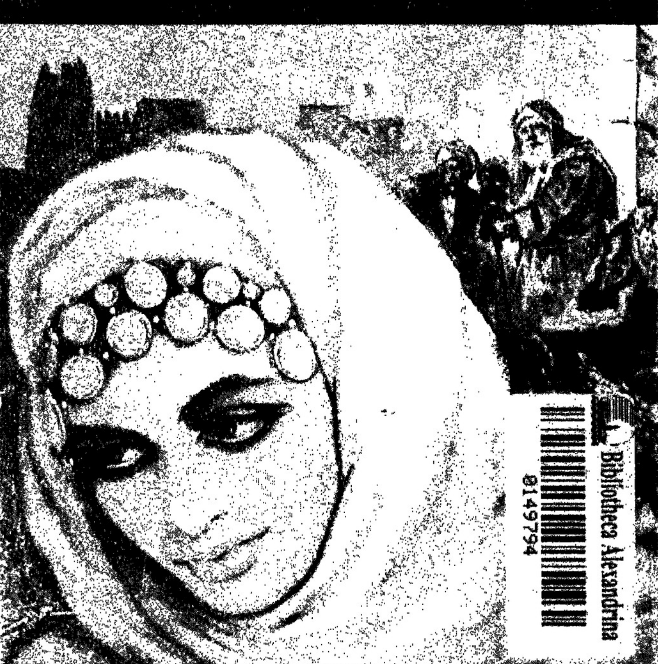
روايات تاريخ الإسلام

١٧ رمضان



جرجي زيدان

دار الجيل
بيروت - لبنان

روايات تاريخ الإسلام



تتضمن تفصيل مقتل الامام علي وبسط حال الخوارج
تتمة الفتنة التي حدثت بسبب مقتل الخليفة عثمان ،
استئثار بني امية بالخلافة وخروجها من اهل البيت

تأليف
جرجي زيدان

دار الجيل
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية

ابطال الرواية

* علي بن ابي طالب	: رابع الخلفاء الراشدين
* معاوية بن ابى سفيان	: اول ملوك الدولة الاموية
* عمرو بن العاص	: والي مصر
* قطام بنت عدي	: غادة الكوفة
* العجوز لبابة	: مربية قطام
* سعيد الاموي	: عاشق قطام
* عبد الرحمن بن ملجم	: قاتل الامام علي
* الحسن والحسين	: ابنا علي
* عمرو بن بكر	: المتآمر لقتل عمرو بن العاص
* البرك بن عبد الله التميمي	: المتآمر لقتل معاوية

مراجع رواية ١٧ رمضان

هذه المراجع هي التي اعتمد عليها المؤلف في تأليف الرواية ووقائعها التاريخية :

★ تاريخ ابن الاثير
★ التقويم العام
★ تاريخ الخميس
★ السيرة الحلبية
★ أسد الغابة
★ مروج الذهب للمسعودي
★ تاريخ المقريزي
★ تاريخ ابن دقاق

- ١ -

فذلكة تاريخية

الخوارج جماعة من رجال الامام علي بن ابي طالب نقموا عليه قبوله التحكيم على اثر وقعة صفين . وكانوا قبل ذالك في مقدمة الذين حرضوه على قبوله . لكنهم لما رأوا التحكيم أدى الى خروج الخلافة من يده الى يد معاوية بن ابي سفيان نقضوا بيعته ونبذوا طاعته . وطمعوا فيها لانفسهم فبايعوا واحدا منهم يدعى عبد الله بن وهب . وحاربوا تحت رايته زمنا .

ولما صدر حكم الحكمين بخلع علي وتثبيت معاوية اشتد أزر معاوية. وبويع بالخلافة في الشام .

وكان الخوارج ما زالوا في بدء امرهم . فأخذ علي يتجهز لحرب معاوية . وفيما هو في ذلك جاءه الخبر بتألب الخوارج وتمردهم ، فنصح لهم بالطاعة وبين لهم انه لم يخطىء بقبول التحكيم وانه لم يقبله الا اجابة لطلبهم ، ولكنهم لم يرتدعوا . فرأى ان يستأصل شأفتهم قبل خروجه الى معاوية ، فحاربهم في مواقع عدة اشهرها موقعة النهروان وراء دجلة بالقرب من بغداد ، وقد انتصر فيها عليهم نصرا مبينا وتشتت شملهم ،

على انهم عادوا الى الاجتماع في الخفاء .

وفي سنة ٣٨ هـ فتح عمرو بن العاص مصر ، وقتل محمد بن ابي بكر عاملها ، وتولاها باسم معاوية . فأصبح معاوية خليفة في مصر والشام ، وجعل مقامه دمشق ، وبقي علي بن ابي طالب خليفة في العراق والجزيرة والحجاز واليمن ، وجعل مقامه الكوفة .

ثم اخذ معاوية يبعث سراياه الى بلاد الامام علي يبغي فتحها ليستأثر بالخلافة . فأنفذ جندا الى مكة ، وآخر الى اليمن ، وثالثا الى الجزيرة، وظلوا يحاربون ويناوئون ولكنهم لم يبلغوا اربا حتى دخلت سنة اربعين للهجرة ، فتأهب الامام علي للخروج الى قتال معاوية ، في جيش قوامه اربعون الفا من أنصاره بايعوه على الفور او الموت . وفيما هو في ذلك فاجأه القدر فمات مقتولا كما سنرى تفصيل ذلك في هذه الرواية .

- ٢ -

غادة الكوفة

الكوفة مدينة اسلامية ، مصرها سعد بن ابي وقاص احد كبار الصحابة ، في السنة السابعة عشرة للهجرة على عهد الخليفة عمر بن الخطاب بعد فتح العراق ، وكان عمر قد اشار عليه «بأن يقيم في مكان لا يحول بينه وبين المدينة بحر ولا جسر حتى اذا اراد ان يقدم اليه على راحلته قدم» . فبنى الكوفة غربي الفراق على شاطىء بحيرة كانت هنالك بقرب مكان الحيرة ، بينها وبين الفرات بضعة وعشرون ميلا .

وكان بناؤها في اول امرها بالقصب ، فأصابها حريق فاستأذنـــوا الخليفة في بنائها باللبن فقال : «افعلوا ، ولا يزيدن احدكم على ثلاثة ابيات ، ولا تطاولوا في البنيان ، والزموا السنة يلزمكم الدولة» . ففعلوا وجعلوا طرقها نوعين : المناهج وعرض كل منها عشرون ذراعا ، والازقة وعرض كل منها سبع أذرع . وما بين المناهج اماكن البناء وقدرها اربعون ذراعا ، والقطائع وقدرها ستون ذراعا .

وكان المسجد اول شيء خطوه فيها ، فوقف في وسط المدينة رجل شديد النزع رمى الى كل جهة بسهم ، ثم أقيمت المبانـــي فيما وراء السهام ، وترك ما دونها للمسجد وساحته . وبنوا في مقدمة المسجد ظلة او رواقا اقاموه على اساطين من رخام كان الاكاسرة قد جلبوها من أخربة الحيرة . وجعلوا على الصحن خندقا لئلا يتقحمه احد ببنيان ، وبنـــوا لسعد بن ابي وقاص قصرا بجانب المسجد نقلوا حجارته من آجر بنيان الاكاسرة وسموه قصر سعد .

وقد زاد عمران الكوفة حين اتخذها الامام علي مقرا له بعد وقعة الجمل سنة ٣٦ هـ . اذ تقاطر اليها المسلمون من جميع الانحاء ، وتكاثرت فيها الابنية وعمرت الاسواق وأنشئت حولها الحدائق والبساتين ممـــا يلي بحيراتها .

وكان في ضاحية الكوفة على شاطىء البحيرة حديقـــة من نخيل ، حولها سور من جذوع النخل يحيط بها الا من جهة البحيرة ، وفـــي وسط الحديقة بيت مبني من اللبن ، يدل جمال بنائه على ان سكانه من اهل اليسار ، وقد يخيل اليك اذا دخلت حديقته انه مسكن بعض الامراء ذوي الخدم والحشم ، لما يرى بين نخيلها من آثار المعالف والاوتـــاد والسلاسل والقيود ، ولتآكل جذوع بعض النخيل من كثرة شد الامراس اليها وتعود الخيل تقشيرها وهي مشدودة اليها .

ففي ليلة من اوائل السنة الاربعين للهجرة ، والوقت خريف ، وقد نضج الثمر على نخيله وليس من يقطفه . فتساقط بعضه على الارض وليس من يلتقطه . كان القمر بدرا وقد أطل من وراء الآكام فأرسل ظلال النخيل مستطيلة متقاطعة ، وكان الجو هادئا والسكوت سائدا لبعد المكان عن المدينة وضوضائها ، فلم يكن يسمع غير نقيق الضفادع على شاطىء البحيرة يتخلله صرير الصراصير وقرقرة القر . وربما هب النسيم فأسمعك حفيف سعف النخل هنيهة ثم انقطع . ولقد تعجب لوحشة ذلك المكان مع ما تراه من آثار الانس ودلائل الابهة .

وهناك في المنزل المؤلف من ثلاث غرف متصل بعضها ببعض ، وقد فرشت ارضها بحصر من سعف النخل فوقها جلود الماعز ، وضعت في احداها طنفسة جميلة عليها وسائد من الخز ، ووضع في بعض جوانبها مصباح ضعيف النور ، وجلست على احدى الوسائد فتاة في مقتبل العمر أشرق وجهها بماء الشباب ، وقد حلت شعرها الاسود فأرسلته على كتفيها فحجب بعض جبينها ، وغطى عذاريها فحجب قرطيها وسالفيها ولكنه زاد عينيها كحلا واشراقا . ولكن عينيها الدعجاوين البراقتين قد غشيهما الدمع فأخذ ينحدر على وجنتين محمرتين بينهما أنف دقيق مستقيم تحته فم صغير . فاذا ازداد انسكاب الدمع تلقته بأطراف جدائلها او بأحد كميها . وكانت لابسة جلبابا اسود زادها جمالا وفتنة . وكأن هذه الغادة استأنست بوحدتها فأطلقت لنفسها عنان البكاء حيث لا رقيب ولا حسيب فأخذت تندب فقيدين عزيزين قتلا في يوم واحد .

تلك هي «قطام بنت شحنة بن عدي» من قبيلة الرباب ، فتاة الكوفة الفتانة التي ذاع صيتها في الآفاق وسمع بجمالها القاصي والداني حتى اصبحت فتنة الكوفيين ومضرب أمثالهم ، وشخصت اليها الابصار وحامت حولها القلوب ، فباتت معجبة بجمالها لا تعرف هما ولم تذق غما حتى

بليت بقتل ابيها وأخيها معا في وقعة النهروان . اذ كانا من جملة الخوارج الذين نقموا على الامام علي لقبوله التحكيم فانضموا الى من نقض بيعته وحاربوا في جملة من حاربه •

وكانت قطام ثابتة الجأش شديدة الميل الى الانتقام ذات حيلة ودهاء، ما انفكت منذ قتل ابيها وأخيها وهي تندبهما وتلتمس الانتقام لهما . ولكنها لم تكن تستطيع المجاهرة بذلك والكوفة مقر الامام علي ومجتمع أنصاره وشيعته • فأقامت بمنزلها هذا في ضاحية الكوفة وحيدة ليس معها سوى عبد كهل ربي في اهلها منذ صباه ، وقد هجرها بعد ان بليت بمصيبتها جميع الخدم والاعوان ما عداه • وكانت ترتاح الى بث شكواها له ، وكان هو يخفف عنها ويعدها بنيل المرام •

وفي أصيل ذلك اليوم ، كانت قد انفذته ليستقدم لها عجوزا من مولدات الكوفة ، كانت قد ربيت بين ذراعيها منذ نعومة أظفارها وهي تحن اليها حنينها الى امها . فلما طال غيابه وسدل الليل نقابا ولم يعد ، شغلت بذلك عن احزانها وهواجسها وهي وحيدة في هذا البيت • ولكنها كانت اذا سكتت هنيهة تذكرت أباها وأخاها ومن كان يقيم في تلك الدار من الخدم والعبيد فتعود الى البكاء والنحيب •

* * *

وفيما هي في ذلك سمعت وقع أقدام مسرعة عرفت انها خطوات عبدها ريحان ، فأجفلت ولكنها استأنست به فوقفت وأسرعت لاستقباله• وكان ريحان طويل القامة ، شديد السواد ، خفيف العضل ، سريع الحركة ، جاحظ العينين ، أفطس الانف ، عظيم الوجنتين ، بارز الاسنان يزيدها بروزا تدلي شفته السفلى وانحسار شفته العليا • وكان يتفانى في خدمة سيدته فابتدرها بالسلام • فقالت : «ما الذي أخرك يا

ريحان وأنت تعلم اني وحيدة هنا • اين العجوز لبابة ؟»

قال : «انها قادمة على أثري» •

قالت : «وما سبب غيابك حتى الان ؟»

قال : «كنت في انتظارها وهي تخاطب شابا وتجادله •••»

قالت : «ومن هو هذا الشاب ؟»

قال : «لا ادري •• وهذه هي قد اقبلت وستقص عليك الخبر مفصلا» •

وما أتم كلامه حتى دخلت العجوز تتوكأ على عكازها وقد احدودب ظهرها ونال منها الكبر فزادها قصرا ولكنها ما زالت سريعة الحركة شديدة العصب ، وكانت عمصاء العينين غائرة الفم لخلوه من الاسنان ، مجعدة الخدين غائرتهما • فتقدمت الى قطام وقد غطت شعرها الشائب بنقاب اسود تجره وراءها لطوله وقصرها • وحالما دنت منها قبلتها وأخذت تخفف عنها وتقول : «لا بأس عليك يا ابنتي ، اعذريني لابطائي في الحضور» •

فلم تزدد الفتاة الا بكاء وهي تقول : «ما الذي يشغلك عني يا خالة وأنت تعلمين ان ليس لي معز في أحزاني سواك» •

قالت : «هوني عليك يا قطام واستريحي ، فقد جئتك بالفرج باذن الله» •

قالت : «من اين يأتيني الفرج ولا يفرج كربتي الا الانتقام ؟»

قالت ذلك وحرقت اسنانها وهي تتشاغل بجمع شعرها وارساله وراء ظهرها • ثم مسحت عينيها بكمها الطويل وأرسلته على كتفيها فبانت اساورها ودمالجها حول معصمها الممتلىء ونظرت الى العجوز كأنها تسألها الايضاح •

فضحكت العجوز وهي تنظر اليها ، ثم كفت عن ضحكها فجأة وكأنها

تذكرت امرا محزنا فاستاءت قطام من ضحكها وهي تبكي وقالت : «ما بالك تضحكين ؟ أتهزئين بكلامي • اني والله لا أقنع بما دون الانتقام» •

فأمسكتها العجوز بيدها وأقعدتها على الوسادة وجلست الـــى جانبها ، ونظرت الى ريحان نظرة فهم منها انها تريد خروجه لتخلو الـى قطام • فخرج •

فلبثت قطام تنتظر ما تقوله العجوز • فاذا بها تظل كأنها تتهيأ لحديث طويل ثم قالت : «وماذا تريدين يا قطام ؟»

قالت : «أريد ان أثأر لابي وأخي اللذين قتلهما علي ظلما ، ولا بد لي من الانتقام » •

قالت العجوز : «ما قولك في اني وجدت لك من يأخذ لك بثأرك ؟»

قالت : «من هو ؟ قولي» •

قالت : «اصبري ولا تكوني لجوجة • أتعرفين سعيدا ؟»

قالت : «وأي سعيد ؟» • قالت : «سعيد الاموي الشاب الجميـــل الواقع في هواك» •

قالت : «دعينا من الحب والغرام وحدثيني عن الانتقام» •

قالت : «سبحان الله ! اجيبيني عن سؤالي • ألا تعرفين هـــذا الشاب المغرم بك ، المفتون بسواد عينيك ؟»

فتململت وقالت : «نعم أعرفه ، وماذا في معرفته ؟• بالله عليك لا تذكري الغرام ، اني لا اشعر بعاطفة الحب ، ولا يهمني أحبني الناس ام أبغضوني » •

فابتسمت العجوز ابتسامة الاستخفاف وقالت : «يا للعجب !• ما اكثر لجاجتك • اذا كنت تعرفين سعيدا هذا فهل تحبينه ؟»

فأجابت على الفور : «لا • لا • لا احبه ، ولا احب احدا • ان قلبي في شاغل عن الحب بالبغض • اني ابغض بعض الناس ولا احب احدا» •

قالت : «اذا كان لا بد من الانتقام فيجب ان تحبي سعيدا» .

قالت : «كيف احبه وليس في قلبي موضع لغير البغض والحقد . حاقدة ناقمة» .

قالت : «انا اعلم ذلك ، ولكن احبي سعيدا ولو الى حين وهـ ينتقم لك» .

فبغتت قطام ، ونظرت الى العجوز وجعلت تتفرس فيها لتتحقق تجد ولا تهزل ، فلما آنست الجد في لهجتها قالت : «هل تقولين حق وهل سعيد يرضى ان يركب هذا المركب الخشن ؟»

قالت : «اني اجعله يركبه ، فان لم يكن اهلاً له فهو ليس اهـ لحبك ، ما رأيك ؟» .

فصمتت هنيهة ثم قالت : «احبه ؟. نعم احبه اذا كان الامر كذ ولو الى أجل قريب . ولكنني لا أظنه اهلا لهذا العمل ، بل لا احـ يقدم عليه . ولكن قولي لي هل تتكلمين من عند نفســك ام سـ ذلك منه ؟»

فاعتدلت العجوز في مجلسها ، ونظرت الى قطام وقالت : «اعلمي حبيبتي ان سعيدا هذا قد علق بك وأحبك منذ بضعة أعوام ، ولكنه يكن يتجرأ على مخاطبة ابيك في الامر ، لان أباك كان يومئذ في جـ القائمين بنصرة علي . وسعيد كما تعلمين أموي . اي انه ممن نقـ على علي وقاموا للمطالبة بدم عثمان . فكان يعلم انه اذا خطبك من ا يومئذ فلن ينال غير الفشل . اما بعد ان خرج ابوك على خلافة علي ونبذ طاعته في جملة من خرجوا عليه بعد التحكيم ، فقد حدثت سعـ نفسه بأن يخطبك ، فكلمني في شأنك مرارا . ولكن أباك كان مشغـ بمحاربة علي وشيعته فلم أتمكن من التوسط له . فلما علم بقتله و اخيك . واحسرتاه عليهما (وتنهدت وهي تتظاهر بمسح دموعها) عاد

مخاطبتي في ذلك . وقد كنت اسوفه لعلمي بحزنك الشديد ، ولكنه لم يزل يتردد علي ويستنهضني واعدا بأن يبذل كل مرتخص وغال في سبيل التمتع بهذا الوجه الجميل ، الى ان جاءني اليوم وأعاد الكرة وألح كثيرا، فلمحت له الى انه اذا طمع في رضاك ، فلا سبيل الى ذلك سوى الانتقام لابيك وأخيك ، وقد آنست منه ارتياحا فأطلت الكلام معه وريحان في انتظارك ، وهذا هو سبب غيابي عنك . فما قولك ؟»

فلما سمعت قطام كلامها استبشرت بنيل مرامها فقالت : «وهل ترينه يفي بالعهد ، او يستطيع قتل علي بن ابي طالب . اني لا أقبل مهرا أقل من ذلك» .

قالت : «أظنه يقبل ، وأرى ان أستقدمه اليك ، ونظرا الى ما أعهده فيك من المهارة لا أشك في انه يأخذ على نفسه العهد ان يقوم بكل ما تريدينه ، ولاسيما اذا اظهرت له ميلا ، وذكرت له انك تحبينه ، وتفننت في اساليب الدلال والتمنع ، مشترطة انك لا تتزوجين منه الا بعد قتل علي . فاذا عاهدك على هذا صبراً حتى يقتله ، فاذا لم يفعل ، او لقي حتفه ، كان دمه على رأسه والسلام . ما قولك ؟»

فأشرق وجه قطام وارتاحت الى هذا الرأي وقالت : «لا بأس بما اشرت به . استقدميه لنرى ما يكون . ولكن لا تنسي ان تذكري لـه اني لم أقبل بعد ، وبالغي في وصف تمنعي ، وعلي بعدئذ ان أكمـل الحيلـة » .

فأغرقت العجوز في ضحكها وقالت : «سامحك اللـه يا قطام ، ألا تزالين تحسبينني ساذجة ، وهل تجهلين اين قضيت هذه الشيبة ؟ اني قضيت عمري في مثل هذه الشؤون ، فكم زوجت من رجال ، وكـم اقنعت بالزواج نساء كان قبولهن اياه ضربا من المحال . لا تخافي علي، كما اني لا اخاف عليك» . قالت ذلك ونادت ريحان فأسرع اليها . فقالت

له : «هل تعرف الشاب الذي كان عندي الليلة ؟»

قال : «نعم أعرفه» . قالت : «سر اليه ، انه ما زال في المنزل حيث رأيتنا الليلة ، وقل له : (ان خالتك لبابة تدعوك اليها) ..»

قال : «واذا ابى ، فماذا اقول له ؟»

قالت : «لا اخاله يأبى ، بل سيسبقك في المجيء ، فاذهب وأدعه» .

قال : «سمعا وطاعة» . وخرج .

***

كان سعيد شابا أمويا في حوالي الثلاثين من عمره ، توفي ابوه وهو طفل فكفله جده وقضى صباه وشبابه مع جده في منزل الخليفة عثمان وكانا من أخلص مريديه . فلما قتل عثمان كان سعيد وجده في مقدمة الناقمين لعثمان والمطالبين بدمه . فلما كانت موقعة الجمل كان سعيد في جملة رجال ام المؤمنين ، وظل جده مقيما بمكة لشيخوخته . فلما فشل جند أم المؤمنين وعادت الى مكة عاد هو معها وظل عند جده ولم يخرج لموقعة صفين .

ولكنه كان يتردد على الكوفة ، وكان يسمع بقطام هذه وجمالها ، وقد رآها مرارا وهي بالخمار فوقعت من نفسه موقعا عظيما ولكنه لم يجرؤ على التقدم لخطبتها ، لان أباها كان قبل تحكيم الحكمين من شيعة الامام علي ، فلم يكن ليزوج ابنته بأموي يطالب بدم عثمان . فلما خرج الخوارج عن طاعة الامام علي بعد التحكيم ، استبشر سعيد وأمل نيل مرامه ، ولكنه لم يتمكن من السعي في طلبها الا بعد مقتل ابيها وأخيها . فجاء الى لبابة ووسطها في الامر ، فاستخدمت هذه كل دهائها في اغرائه بقتل علي ، وتركت بقية الحيلة لقطام لعلمها انها لا تقل عنها دهاء ومكرا .

وكان سعيد حسن الطوية قليل الاختبار ، وبخاصة فيما يتعلق بدهاء العجائز . ولكنه كان جميل الصورة معجبا بجماله وقد أعمى غرامه بصيرته فلم يعد يرى غير قطام او يحلم الا بها . فلما جاء العجوز في تلك الليلة وخاطبها في شأنها وأظهرت ما اظهرته من التمنع ازداد رغبة فيها وبذل كل ما في وسعه من الوعود في سبيل ارضائها ، وأغرى العجوز بكل ما يرضيها من المال والحلي فوعدته ان تسعى في ترغيبها . ومضت وتركته يتقلب على جمر الانتظار .

فلما جاءه العبد يدعوه اليها خفق قلبه وهرول مسرعا يتعثر بأذياله فاخترق اسواق الكوفة وهو لا يرى شيئا مما فيها لاضطرابه وتهيبه اجتماعه بقطام منى قلبه وغاية مرامه ، فكان اذا تصور رضاءها اشرق وجهه وطار فرحا . ثم يعترض تصوره ما آنسه في حديث العجوز من ان الفتاة تتمنع ، ويتذكر ما بدر منه من الوعد بالانتقام ، فتنقبض نفسه ويضطرب لهول الموقف . على ان هيامه كان يهون عليه كل عسير ويصور له المحال ممكنا . فخيل اليه ان قطام اذا رأت جماله وتحققت ما هو فيه من الوجد لا تلبث ان تقع في هواه وتغضي عن امر الانتقام .

وفي ذلك ومثله قطع طريقه ، وريحان يخطو امامه خطواته المتباعدة لطول ساقيه ويحاول الابطاء في مسيره لئلا يسبق سعيدا ولكنه ينسى ويعود الى الاسراع ، فاذا تنبه الى انه قد سبقه عاد يمشي الهوينى حتى يلحق به . كل هذا وسعيد في شغل بأحلامه وأمانيه .

ولما جاوزا المدينة ، آنسا سكوتا لا يسمع فيه الا صوت الحصى تحت أقدامهما ، والكوفة كثيرة الحصى والرمال ، حتى وصلا الى باب البستان ودخلا بين النخيل ، فقال ريحان : «امهلني يا مولاي ريثما أدخل المنزل ثم اعود اليك» .

فظل سعيد يتمشى بين النخيل ، وهو يتشاغل برؤية ظلالها ،

وبالاستماع لنقيق الضفادع على شاطىء البحيرة ؛ بينما يهيىء نفسه لمقابلة قطام ؛ فيصلح عمامته ويمشط شاربيه ولحيته . وينفض جبته ، ويصلح وضعها .

ولما طال انتظاره قلق وحدثته نفسه بأن يستأذن في الدخول الى الدار وفيما هو يهم بذلك سمع حركة ومشيا ، وبعد هنيهة ظهر له نور عند الباب وسمع ريحان يناديه ؛ فهرول وقلبه يخفق وركبتاه ترتعشان رعشة الحب والبغتة ؛ فعثرت رجله بحبل من ألياف النخيل كان مشدودا الى جذع نخلة ؛ فكاد يقع ، ثم تقدم نحو باب الدار فاستقبلته لبابة مرحبة. ومشت امامه وريحان يتقدمها بالمصباح . فدخلت به حجرة قطام ؛ ودعته للجلوس على وسادة وجلست هي على وسادة اخرى ، وترك ريحان المصباح هناك وخرج .

وكان سعيد يتوقع ان يرى قطام هناك ؛ فلما لم يرها قلق ؛ وزاد في قلقه سكوت لبابة عن الحديث وجمودها . فقال : «مالي اراك ساكتة يا خالة ، ألم ترسلي الي بالمجيء ؟» . قالت : «بلى» .

قال : «وأين قطام ؟» . فتنهدت وقالت : «هي هنا في الغرفة الاخرى ، وسنذهب اليها بعد قليل» .

قال : «اراك في قلق . ما الذي جرى . قولي» .

قالت : «لم يحدث شيء» . وتظاهرت بأنها تكتم خبرا ؛ فقال : «ولكني اراك كئيبة ؛ اخبريني ، لقد نفد صبري» .

قالت : «لا تقلق يا ولدي ؛ ليس هناك ما يدعو الى القلق . غير اني مللت من استعطاف هذه الفتاة وترغيبها وتشويقها ، فلم أر منها الا البكاء والنحيب ولم أسمع الا قولها : (الانتقام . الانتقام) . وكل من يخاطبها في غير هذا الموضوع لا يسمع منها جوابا» .

قال : «ألم تذكري لها شيئا من حديثي معك ؟»

قالت : «كيف لا ، انني لو لم أذكر لها اسمك مشفوعا بوعـــدك بالانتقام لما أجابتني» . ثم ادنت فمها من أذنه وقالت : «ولكنني آنست من خلال تمنعها انها ترتاح الى ذكر اسمك ، وأظنها تحبك ولكنهـــا مأخوذة شغلها الانتقام عن الحب ، ولذلك سرت لما اخبرتها بوعدك وان لم تصدق قولي كأنها تحسبني أعبث بها ، او اعلها استبعدت ذلك منك او خشيت رجوعك فيه لجهلها ما انت مفطور عليه من الحمية وكـــرم الاخلاق » .

قالت العجوز ذلك بنغمة تدل على ثقتها التامة بشرف نفس سعيـد وصدق وعده . ثم شغلت نفسها بالسعال ومسح آماقها مما يتحلب فيها من الدمع المتواصل من أثر الشيخوخة ، وصبرت لترى ما يبدو منه قبل اتمام الحديث .

اما هو فأثر قولها فيه وهاج ما في قلبه فقال لها : «انني لا ألـــوم قطام فانها لا تعرفني بعد ، فهي معذورة اذا اساءت الظن بي . ولكن اين هي ؟ أريني اياها فأؤكد لها وعدي فتعلم من هو سعيـــد» . قالت : «هي هنا» .

* * *

وأخذت لبابة المصباح بيدها ومشت امام سعيد الى حجرة تجلس فيها قطام على اريكة وهي تبكي وشعرها محلول . فلما رأت النور يقترب منها اسرعت فضمت شعرها وأرسلته الى ظهرها وغطت رأسها بنقـــاب اسود . ولم تكد تفعل ذلك حتى دخلت العجوز وهي تقول : «خففـي عنك يا قطام وارفقي بنفسك واشفقي على شبابك كفاك بكاء ونحيبا . انهضي فسلمي على محبك سعيد ..»

فقطعت قطام كلامها قائلة : «ألم اقل لك لا تذكري الحب والغرام

بل اذكري القتل والانتقام • اني لا احب الا الانتقام ، ومن ينتقم لي فهو الخليق بأن اعطيه قلبي •• ولكن •••»

فتقدم سعيد وقد اصبح بعد رؤية قطام على تلك الحال لا يـــرى شيئا غيرها ولا يبغي الا رضاها وقد شق عليه قولها : (ولكن) لما ينطوي عليه من ضعف ثقتها به ، فقال لها : «ألا ترضين يا قطام ان اكون انـا المنتقم لك ؟»

قالت وهي تظهر عدم الاكتراث : «لا • لا ارضى ان تعرض نفسك لهذا الامر من اجلي ، فاني أولى منك بركوب هذا المركب الخشن» • ثم رفعت يدها وأشارت بسبابتها الى صدرها وقالت بصوت تتخلله غصـــة البكاء : «انا أقتل قتلة ابي وأخي بيدي • انا اقتلهم • انا اقتل عليا وان كنت فتاة • ان حب الانتقام يقويني ويشجعني • ولا حاجة بي الـــى تعريض سواي لخطر القتل • انك شاب لا يهمك من امر علي شــــيء فكيف تتصدى لقتله من اجل غيرك ، ذلك لا يكون» •

فانخدع سعيد بكلامها وحسبه صادرا عن شهامة وغيرة حقيقيتين • فازداد رغبة في الاقدام على ذلك العمل • وقال لها : «كيف تقدمين يا مليحة على هذا الامر وأنا بين يديك • لعلك لا ترين في الكفاءة • وكيف حسبت انني لا يعنيني قتل علي ، ألا تعلمين ان بني أمية يطالبونه جميعا بدم عثمان ؟ فاذا قتلته فاني ارضي قومي فضلا عن ارضاء قطام • ان بذل النفس يسير في سبيل ارضائك • واذا اذنت لي ان ادعوك حبيبتي فكل شيء هين» •

فلما تحققت قطام وقوعه في الشرك ، ارادت ان تتمكن من عهده بصك تستكتبه اياه ، فأمسكت نقابها بيدها وتظاهــــرت باصلاحه ، فانكشف معصمها عن الاساور والدمالج ، وبانت عيناها وقد ذبلتا من البكاء فازدادتا جمالا ، ورنت اليه وتأملته كأنها تزن مقدرته على ما وعد

به . اما هو فلا تسل عن حاله بعد تلك النظرة ، فثارت عواطفه ونظر الى العجوز كأنه يحرضها على التوسط في الامر . فتظاهرت لبابة بأنها تساعده في غرضه وقالت لها : «ألم يكفك ما قاله هذا الشهم ؟ ألم اقل لك ان وعده صدق ، وفضلا عن ارضائك بقتل علي فهو يرضي عشيرته وأهله ايضا ؟» اعلمي يا قطام انه لا بد من رجل يقتل هذا الخليفة ، ومن يسبق الى قتله يكن صاحب النصيب الاوفر والاجر الاعظم» .

فقطعت قطام كلام العجوز قائلة : «انا أعلم انه مقتول لا محالة ، فان لم يبق من الرجال من يفعل ذلك فعلته انا بيدي . انظري الى هذه الحلي في معصمي وأذني ، اني لم أنزعها ليس لاني لم احزن على ابي وأخي ، بل لاني واثقة من الانتقام لهما ، ومتى اخذت بالثأر فقد احييت القتيلين فكيف احزن ؟» أما ما قاله سعيد فمروءة منه ، ولكن الانسان يا خالة عرضة للتردد فلعل سعيدا اذا خرج من عندنا يرى رأيا اخر ، او يتهيب الامر فيرجع عن الوعد . فأنا لا اريد ان أقيده بعهد ارى انه ربما عاد فندم عليه . ولست اقول هذا استهانة بجرأته ومروءته ، ولا استصعابا لقتل علي ، فان قتله من أيسر الامور ، ولكني اخشى ان يكون تقيد سعيد بهذا العهد على غير رغبته» .

* * *

هم سعيد بأن يجيب قطام ليؤكد لها صدق وعده ، فأوقفته العجوز عن الكلام وتظاهرت بالدفاع عنه وقالت : «اسمحي لي يا قطام بكلمة اقولها لك . انت لا تعرفين سعيدا بعد ، ولكنني اعرفه وأعرف صدقه ، وأنا اسألك بالنيابة عنه : هل تريدين ان يكتب لك عهدا بأنه يفعل كل ما قاله لك ؟»

فلما سمع سعيد ذكر كتابة العهد تهيب وعظم الامر عليه ، وكأنه

صحا من سكره لحظة تبين فيها خطر الامر ، على انه ما لبث ان عاد الى سكرة الغرام ، ولاسيما بعد ما سمعه من كلام العجوز الدال على ثقتها به .

اما قطام فكانت تنظر الى كل حركة تبدو من سعيد ، فلم يفتها ما جال في خاطره ساعتئذ من الندم وهو يحاول التظاهر بغير ذلك . وأرادت ان تحمله على كتابة العهد فقالت للعجوز : «اراك اقمت نفسك نائبة عنه في امر لا تصح النيابة فيه ، ولعله غير راض به ، وفي سكوته دليل على ذلك . فدعينا من هذا الموضوع ، ولا تعرضي سعيداً المخطر وأنت تعلمين ما له من المنزلة في قلبي ، وان آكن قلما رأيته ، فأفضل ان أعرض نفسي للخطر ولا أعرضه» .

فعظم ذلك القول على سعيد وثارت الحمية في رأسه ، فنهض وقال لها : «أتحسبين سكوتي يا قطام عن تردد او خوف ؟. لا وحبك ، فما انا ممن يضنون بالنفس في سبيل الحب ، وقد اكون ترددت في بادىء الرأي . وأما بعد ان علمت بما لي عندك من المنزلة فاني اكتب العهد ولا ارضى الا بكتابته . هاتوا رقا ومدادا» . فنهضت العجوز مسرعة لاحضار الرق والقلم ، وكانت قد أعدت كل شيء قبل مجيئه .

وانتهز سعيد فرصة غيابها وأزاح مقعده وأصلحه بحيث يواجه قطام. اما هي فنظرت اليه وابتسمت وقالت بصوت يتخلله الدلال : «لا تعرض نفسك للقتل يا حبيبي ، ما لنا وللصكوك ألا يكفينا القول ؟»

فما آنس سعيد منها هذا التقرب وسمع قولها : «حبيبي» حتى اخذ يبثها حبه وغرامه وتفانيه في سبيلها ، وطابت له تلك الخلوة القصيرة وانتشى بمبادلتها اياه عواطف الحب ، واعتقد انه اسعد انسان على وجه الارض بفوزه بحبها له . غير عالم بأن قصدها لم يكن سوى اغرائه بقتل علي ، وقد اضمرت انه اذا فشل في مهمته فلن تأسف عليه اذا قتل .

وأرادت ان يكتب الصك حتى لا يرجع عن وعده .

وأدركت العجوز ان في ابطائها وسيلة لاتاحة الفرصة لقطام كـــي تتمكن من اغرائه ، فأبطأت لغير داع ، ثم عادت وبيدها رق من جلد الماعز وقلم من القصب وقرن ابل فيه مداد اسود . فلما رآها سعيـــد ، ورأى الصك في يدها عاوده الخوف ، وحدثته نفسه بالرجوع عن الوعد ، ولكن الحياء والحب منعاه . ولم يخف تردده على قطام فتلافت ذلك بابتسامة ونظرة وهو يرنو اليها ويقول في نفسه : «ما اسعدني بهذا اللقاء ، وما اجمل هذا الحب لولا هذه الشروط» . ولم تترك له قطام فرصة للتردد فقالت للعجوز : «لمن اتيت بهذه الادوات يا خالة ؟ أما زلت تصرين على ان يكتب سعيد عهده ؟ لا . لا أظنه يكتبه» . وابتسمت وهي ترنو اليه، ثم قالت : «وكأني به ندم على ما فرط منه لا عن جبن او خوف لا سمح الله ، ولكنه رأى قطام لا تستحق هذه العناية ، وأراه يقول في سره : (أمن اجل امرأة أقتحم مثل هذا الخطر) . » . قالت ذلك ونظرت اليه نظر المحب العاتب .

فلما سمع سعيد كلامها ورأى دلالها نسي كل خطر ، ولم ير لـــه مخرجا من خجله الا بالمبادرة الى تناول الرق ، فتناوله من يد لبابة وأمسك القلم وقد اخذ منه الهيام مأخذا عظيما حتى توردت وجنتاه واحمـــرت عيناه . فوقفت العجوز الى جانبه والمصباح في يدها ، فكتب ويده ترتعش ولكنه يتجلد لئلا يبدو ذلك لقطام فتظنه خائفا واليك نص كتابه :

«انا سعيد بن .. الاموي أعاهد قطام بنت شحنة على قتل علي بن ابي طالب مهرا لزواجي بها ، فاذا لم أفعل لم أكن كفؤا لها ، وعلى عهد الله وميثاقه . كتبه سعيد الاموي»

* * *

وما فرغ سعيد من كتابة العهد حتى دفعه الى قطام وهو فخور بما فعل . ليريها انه ليس جبانا كما ظنته ، ولكنه لم يكد يدفعه اليها حتى شعر بالخطر الذي عرض نفسه له • على انه لم يتبين الخطر جيدا لما حال بينه وبين عقله من غيابة الوجد والهيام •

اما قطام فتناولت الرق وقرأته الماما ، ثم نظرت الى سعيد وقالت : «يظهر انك كتبت العهد حقيقة ، أليس عارا على قطام ان تأخذ منك صكا على عهد عاهدتها عليه في مثل هذا الموقف ، كأنك حملت كلامي على محمل الجد ، وقد قلت لك الان : (اني لا أبالي من يقتل عليا ، وانه اذا لم يقتله احد فسأقتله انا) • اما وقد كتبته فاني أحفظه عندي تذكارا لهذه الليلة التي أعدها احسن ليالي العمر •• وأرجو ان نجتمع قريبا لنيـــل المرام» • قالت ذلك وفي صوتها رنة الدلال •

فصدق سعيد كلامها واطمأن قلبه ، ولكنه علم بأنه لا ينال قطام الا بعد قتل الامام علي بن ابي طالب فعاد الامـــر الى خطورته ، فانقبضت نفسه وأراد ان ينفرد بنفسه فاستأذن بالخروج • فقالت له قطام : «امكث عندنا •• او اذهب لعلك تهتدي الى سبيل يقرب جمعنا الدائم» • قالت ذلك وابتسمت ورنت اليه ، ثم تأوهت وودعته ، فخرج سعيد ولبابـــة تشيعه ، فرأيا ريحانا لا يزال ساهرا في الحديقة يطوف حول المنزل خوفا من الرقباء والعيون •

ولما خرجت لبابة بسعيد قالت له : «اني أهنئك برضاء هذه الغادة فقد نلت الليلة ما طالما تلهف عليه اهل الكوفة بل سائر اهل العراق ، ومن الغريب انها كانت مع فرط حزنها لا تنظر اليك الا وهي تبتسم •• فمـــا اجمل الحب اذا كان متبادلا • وأما العهد الذي كتبت فليس من الاهمية في شيء • فهب انك صادفت خطرا فان قطام لا ترضى ان تتعرض له» • فودعها ومشى يتعثر بأذياله ، وكأنه غادر قلبه عند قطام • فلما انفرد

عادت اليه هواجسه فتصور خطورة الامر الذي أقدم عليه . ولما لم يبق له حيلة في الرجوع عن عهده جعل ينتحل لنفسه أعذارا تخفف قلقـــه وتحسن له ارتكاب ذلك المنكر . فخيل اليه انه اذا قتل عليا فانه ينتقم لسائر بني أمية ويفاخرهم جميعا بما لم يستطعه احد منهم . فينال حظوة في عيني معاوية فضلا عن تمتعه بقطام . ولما تصور قربه منها اختلج قلبه في صدره وهان عليه كل عسير .

فمشى وهو في هذه الخيالات الكاذبة حتى دخل الكوفة ومـــر بجامعها القائم في وسط الساحة الكبرى . وكان الجو هادئا والقمر منيرا فرأى ما يحدق بمنزل الامام علي من الابنية والخيام بمن فيها من كبار بني هاشم من شيعته . وهو يعرف منهم جماعة صناديد لا يهابون الموت. فخارت قواه وكبر عليه الامر وظل في طريقه الى منزله يفكر في حيلة ينال بها ما يريد .

وكان منزله في سوق من اسواق الكوفة فوصل اليه وهو يظن نفسه بعيدا عنه ، وانما نبهه جعجعة جمل رابض في فنائه فظنه جمله وقد عهده في مأواه قبل ان يغادر المنزل . فدخل الفناء فرأى جمالا وأناسا كأنهم قادمون من سفر فبغت . فتقدم اليه واحد منهم ولم يكد يلقي عليـــه السلام حتى عرف انه من رجال جده ابي رحاب فذهل ولم يرد التحية وقال له : «ما وراءك يا عبد الله ما الذي جاء بكم ؟»

قال : «اننا قادمون من عند جدك مولانا ابي رحاب» .

قال : «وما الذي حملكم على المجيء ؟»

قال : «جئناك في مهمة عاجلة» .

قال : «وما هي ؟»

قال : «ان ابا رحاب وقد شاخ ووهن عظمه بعثنا يستقدمك اليه».

فذهل وصاح قائلا : «وما الذي اصابه . أمريض هو ؟»

قال : «مرض الشيخوخة فقط ولكنه مشتاق لرؤيتك وقد امرنا ان نسرع بالمجيء بك اليه» .

قال : «وأين يكون هو الان ؟»

قال : «في مكة» .

قال : «أأذهب الى مكة ؟»

قال : «ذلك ما أمرنا به فافعل ما بدا لك» .

فلبث مدة صامتا يفكر ثم مشى وهو يقول : «لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم» . وسار عبد الله في اثره حتى دخلا المنزل . ثم التفت سعيد وهو ينزع عباءته وقال : «لا بد من امر ذي بال أقلق جدي فدعاني اليه فهل تعرفه ؟»

قال : «لا اخاله دعاك الا ليراك قبل حلول أجله لانه شاخ وضعف وأنت تعلم حبه لك وان ليس له سواك» .

قال : «لا حيلة لنا في الامر فلنبت الليلة ونصبح مسافرين» . وقضى ليلته يفكر في قطام وسفره .

ولما اصبحوا ركب سعيد ناقته وركب عبدالله ورفاقه جمالهم وهموا بالمسير ، فرأى سعيد ان يودع قطام قبل السفر فاستمهل رفاقه وسار يلتمس منزلها وهو في لباس السفر . فلما أشرف على المنزل تذكر ليلته امس فلم يضطرب لقلقه على جده وقد خاف عليه الموت قبل وصوله اليه. فدخل المنزل فلقي ريحانا فسأله عن قطام . فقال : «انها خرجت في امر وسوف تعود» .

فقال : «الى اين ذهبت ؟»

قال : «لا ادري» .

فشغل بال سعيد لخروجها في الصباح ، وهو لا يرى ما يدعو فتاة مثلها الى الخروج ، فدبت الغيرة في قلبه وقال : «وهل ذهبت وحدها ؟»

قال : «مع لبابة» .

قال : «أتظنها تبطىء كثيرا ؟»

قال : «لا ادري وربما بقيت الى المساء او الى الغد اذ يخيل الي انها ذهبت الى بعض اهلها خارج الكوفة» .

دار الحديث بينهما وسعيد يتردد بين ان ينتظر عودتها وبين ان يسير. وتمنى لو يعلم مكانها ليذهب اليها فيودعها ويزيل شيئا من غيرته عليها. ولو تحقق مجيئها بعد ساعة او بضع ساعات لانتظر ولكنه خاف ان يطول غيابها أياما . فنوى المسير وقال لريحان : «اقرىء قطام السلام عند رجوعها ، واذكر لها اني شاخص الى مكة لامر عاجل وقد جئت لوداعها فلم اجدها . وسأعود قريبا باذن الله» .

وخرج الى رفاقه وساروا قاصدين الى مكة وقلبه في الكوفة . ولم يكد يخرج منها حتى ندم على خروجه دون ان يرى قطام . ولكنه التمس عذرا لنفسه ما شغله من امر جده .

- ٣ -

ابو رحاب

وكان ابو رحاب جد سعيد شيخا طاعنا في السن . ربي سعيدا في حجره بعد موت ابيه ، وكلاهما على دعوة بني أمية في المطالبة بدم عثمان . وكان غرضهما الانتقام لعثمان لانهما اقاما زمنا طويلا في منزله. وكان ابو رحاب على حبه لعثمان غير غافل عن اخطائه التي دعت الناس

الى اضطهاده ، وكثيرا ما حثه على الاصلاح ومصالحة المسلمين فلم يصغ
له الا قليلا . وعلم ابو رحاب بعد ذلك ان جماعة من ذوي الاغراض
كانوا يثنونه عن الاصغاء ويحرضونه على العداء . حتى اذا قتل عثمان
كان ابو رحاب وسعيد في جملة المطالبين بدمه ، ولكنهما عندما عادا من
وقعة الجمل قعد ابو رحاب عن المطالبة ، لانه تحقق ان اصحاب تلك
الوقعة انما حاربوا عليا طمعا في الملك لا غيرة على عثمان .

وأقام لا جليس له بمكة الا سعيد . وكان سعيد ينوي الانضمام الى
جند معاوية في وقعة صفين فمنعه جده . وكان ابو رحاب يعلم ان
سعيدا يحب قطام حبا شديدا وانه ساع للزواج بها . ولذا كان يأذن له
في الذهاب الى الكوفة لتلك الغاية . وطال غياب سعيد هذه المرة وأحس
ابو رحاب بضعفه يتزايد ، فأراد استقدامه ليتزود من رؤيته قبل موته
ويوصي له بوصية لها علاقة كبرى بشؤون حياته وربما غيرت مجاري
اعماله وحولته عن مقاصده وآماله . فبعث رجلا من خاصته اسمه عبدالله
في وفد الى الكوفة لهذه الغاية . ولبث ينتظر رجوعهم وهو يتقلب على
فراش الضعف والهرم كأنه يستمهل ملاك الموت ريثما يصل حفيده لئلا
يذهب ما في نفسه أدراج الرياح وتضيع حياة سعيد عبثا .

اما سعيد فانه قضى مسافة الطريق بين الكوفة ومكة وهو بين شوق
الى قطام وقلق على ابي رحاب . وكان من شدة حبه لقطام يود بقاء جده
حيا ليبشره برضائها وقبولها لانه طالما صرح له برغبته فيها . وكان ابو
رحاب يتمناها له . وكان سعيد اذا فكر في ذلك فرح ثم يعترض فرحه
امر العهد وقتل الامام فيضطرب فيعلل نفسه بما يناله من الفخر اذا قتل
عليا علاوة على استرضاء جده لانه يطفىء ما يجيش في نفسه من نار
الانتقام لعثمان فيفرحه قبل موته .

قضى اكثر ايام الطريق في مثل هذه الافكار لا يبالي بمن حوله من

الرفاق كأنه سائر وحده . ولم يكن يشغله عن ذلك ما يلاقيه في طريقه من الجبال والاودية والصحاري ، وما يمر به من الربوع والاحياء والخيام، حتى أشرف على مكة من أكمة . فاذا هي في منبسط من الارض تحيط بها الجبال والكعبة قائمة بين ابنيتها قيام الملك بين الاعـوان . وكانت الشمس قد مالت الى الغروب فأسرع في مسيره يلتمس منزل جده وقلبه يخفق خوفا عليه من بأس يصيبه قبل وصوله .

ولم يكد يدخل مكة حتى اسدل الليل نقابه فساق ناقته يلتمس المنزل قبل اشتداد الظلام ، وترك رفاقه يهتمون بشؤونهم . وكانت عادته اذا دخل مكة ان يطوف بالكعبة قبل الذهاب الى البيت ، ولكنه سار هذه المرة توا الى المنزل وهو مضطرب خوفا على حياة جده .

فعرج على منعطف يؤدي الى البيت رأى فيه اناسا عرف انهم مـن الاهل والاصدقاء فحياهم وسألهم عن حال ابي رحاب . فلما عرفـوه طمأنوه وسبقه بعضهم ليبشر المريض بقدوم حفيده . فلمـا اطمأن قلب سعيد على جده هدأ روعه وترجل عن ناقته وسلمها الى الخادم ومشى وهو بالعباءة والكوفية والسيف . فانتهى الى باب كبير مقفل دخل من خوخته ولم ينتظر ان يفتحوه له . ومر في فناء لم ير فيه احدا وسار توا الى الحجرة التي يقيم بها جده عادة وفيها مصباح منير دون سائـر الحجرات . وقبل الوصول الى الباب استقبله رجل خارج من عنـده يمشي الهويني على اصابع قدميه مخافة ان يوقظ المريض من نومـه العميق . فعرفه سعيد الله من بعض ذوي قرباه فسأله عن جده .

فأجابه : «انه نائم نوما عميقا وقد مضى عليه بضعة ايام لا ينام فلما أحس بالنعاس اخرج الناس من غرفته ولم يبق سواي وأوصاني ألا اوقظه الا اذا جئت انت» .

قال : «دعني ادخل عليه وهو نائم» . قال ذلك ونزع حذاءه ودخل

الحجرة يسترق الخطى • فاجتاز العتبة وأطل على حجرة مضيئة بسراج على مسرجة قصيرة من الخشب الصلب فوق حافة بارزة من الحائط بجانب فراش • وكانت فتيلة السراج ثخينة يتصاعد من لهيبها سناج يتطاير فيترك في صعوده آثارا سوداء على الحائط قرب السراج ، ولو كان لون الحائط نقي البياض لظهرت آثار السناج اكثر جلاء ولكنه كان مدهونا بطين أسمر •

تقدم سعيد نحو الفراش وقلبه يخفق اشفاقا من ان يكون جده قد رقد رقادا أبديا • فمشى على حصير من سعف النخل يكسو ارض الغرفة ، عليه غطاء كالبساط مصنوع من جلد مصقول • وكانوا لما اشتد به الضعف رفعوه عن الارض الى مقعد مستطيل ، ظهره شبكة من نسيج الجلد ، وهي قدد من جلد يشدونها بين جوانب المقعد كالشبكة يجلسون عليها مباشرة او يجعلون فوقها الفرش ، وقد توسد ابو رحاب فراشا رقيقا والتحف ببرد من صوف اسود يغطيه الى اعلى الصدر ، واستلقى على ظهره ويداه مضمومتان تحت الغطاء وعيناه مغمضتان يظللهما شعر حاجبيه فيزيدهما غورا •

فلما اقترب سعيد من جده نظر الى صدره فرآه يتنفس تنفسا هادئا فهدأ اضطرابه وسكن بلباله ولبث واقفا يتأمل في مظاهر الهرم • فذكر ان جده كان من كبار الهامة طولا وعرضا ، ولكنه اصبح هيكلا من عظام مكسوا بالجلد ، اما وجهه فلم يكن ظاهرا منه الا الانف والجبهة وما بقي منه كان مغطى بالشعر الابيض الناصع • وازداد منظره رهبة حينئذ لضعف النور حتى خيل الى سعيد لما أشرف على فراش جده ان رأسه كتلة من القطن المندوف يتخللها ثنيات مظلمة هي الانف والوجنتان والجبهة ، وأما ما خلا ذلك فقد غطته اللحية والشاربان والحاجبان ، واستطالت لحيته وانبسطت حتى غطت عنقه وصدره ولكنها كانت قايلة

الشعر تشف عن عنق دقيق مستطيل بانت عضلاته وفي مقدمتها القصبة وقد برزت بروزا عظيما اما الرأس فقد كان حليقا او لعله اصلع .

وكان شيخنا الراقد قد دله قلبه على مجيء حفيده فتحرك وتململ ثم فتح عينيه البراقتين وأجال نظره في جوانب الغرفة فوقع على سعيد فتبسم . فلما رآه سعيد قد استيقظ جثا أمام فراشه وهم بتقبيل يديه . فرفع ابو رحاب ذراعيه وضم سعيدا الى صدره وطفق يستنشق رائحة عنقه وخديه بلهفة وسعيد يطاوعه على كل حركة يريدها . فأطال ابو رحاب عناقه وسعيد صابر حتى أحس بماء ساخن ينحدر على خده علم انها دموع سخينة ولكنه لم يدر أدموع الحزن هي ام دموع الفرح . على انه خاف عليه فاستأذنه ونهض عن صدره فرآه يحاول الجلوس فأعانه بيديه ونظر اليه وهو جالس فذهل لشدة ضعفه حتى تخيله قفصا من عظام .

وأخذ ابو رحاب يصلح لحيته وشاربيه ويمسح عينيه . ثم مد يده الى سعيد فعلم هذا انه يريد يده فأعطاه اياها ، فأمسكها بيديه فأحس سعيد كأنها اصابع من حديد ليبس انامله وجفاف جلدها وبرودتها ، وشعر برعشة رعشا متواصلا مما انتابه من الضعف الشديد .

* * *

وما زال سعيد يشاهد في جده الضعف الشديد حتى سمع صوته فاذا هو كما يعهده جهوري رنان . فاستأنس به واطمأن لسماعه . وأول كلمة سمعها منه قوله : «الحمد لله على مجيئك سالما . لقد اطلت الغيبة يا ولدي » .

قال : «لقد جئتك مسرعا حالما علمت برغبتك في ذلك . كيف انت الان وبماذا تشعر يا جدي ؟»

قال : «كنت احسبني على شفا الموت ولكنني لما رأيتك وأمسكت يدك شعرت برجوع قواي . فأنا الان كما تعرفني من عشر سنوات وكأن الله شدد عزيمتي ليمكنني من تزويدك بنصيحة هي اخر ما أتلفظ به في الحياة» .

قال : «اني أشتاق لنصحك كل حين وأرجو ان يمد الله في أجلك لتشهد زواجي بقطام» . ثم التفت يمنة ويسرة لئلا يسمعه احد فرأى المكان خاليا فقال بصوت منخفض : «وتفوح بما يسبق ذلك من الانتقام الذي طالما تاقت نفسك اليه» .

فنظر الشيخ اليه بعينين رأى سعيد بريقهما من خلال الحاجبين ، وكان قوس الشيخوخة واضحا حولهما ، ثم سمع جده يقول : «أما زواجك بقطام فقد فهمته وسرني بلوغك مرامك وأما الانتقام فلم أفهم علاقته بها» .

فتبسم وقال : «ألا تذكر يا جداه ما قمنا به منذ أعوام وقام به كل بني أمية من المطالبة بدم الخليفة المقتول ظلما . وهل جرؤ احد على الانتقام بقتل القاتل ليخلو لنا الجو ؟»

فقطب الشيخ جبينه كأنه غضب وقال : «من هو القاتل ومن سيقتله ؟»

فأدنى سعيد شفتيه من أذن جده وقال : «ان القاتل علي بن ابي طالب وأنا سأقاتله ، وفي ذلك ما فيه من الفخر والفضل ، وأتمنى ان يمد الله في بقائك ليتم الامر تحت جناحك» .

ولم يصبر الشيخ على سماع بقية الحديث لعظم اضطرابه وحنقه ، وعرف سعيد حنقه مما رآه من ارتعاش يديه واختلاج شفتيه واهتزاز لحيته ، ولا تسل عن دهشة سعيد لما سمع جده يقطع عليه الكلام قائلا

بصوت عنيف : «لا لا . لا يا سعيد ... لا تقتلوا البريء» .
فذهل وظن ان جده لم يفهم كلامه فقال له : «تمهل يا جداه ، اي بريء تعني ؟ اني سأنتقم من علي بن ابي طالب ، فكيف تقول انه بريء وأنت اول من دعا الى مطالبته بدم عثمان . يظهر انك اخطأت مرادي» .
قال : «كلا اني لم اخطىء مرادك فلا تخطىء انت مرادي . ان عليا بريء ... انه بريء مما أتهمناه به . انه لم يقتل عثمان ولا مالأ على قتله ولا اراد سوءا بالمسلمين ، ولا ارتكب امرا يستوجب نقمة» .
فوقف سعيد وهو يحسب نفسه في منام لعلمه ان جده كان من اوائل الناقمين على علي فكيف انقلب الى الضد . فتبادر الى ذهنه ان جده قد خــرف .
وأدرك ابو رحاب ما جال في خاطره فقال له : «لا يخالج ذهنك شك في صحة عقلي فاني انما اقول ما اقوله عن روية وصدق نظر ، ولــم أستقدمك من العراق الا لهذه الغاية . ولا اقول ذلك جزافا بل أثبتــه بالبرهان» .
ولبث سعيد مذهولا مستغربا لكنه صبر وقال : «وما الذي دعاك الى هذا التغير العظيم . كيف يكون ذلك ؟ وكيف يكون علي بريئا من دم عثمان ؟ بل كيف تعترف انت ببراءته وقد كنت من اوائل متهميه ؟»
فأشار الشيخ بيده الى سعيد ان يجلس ويهدىء روعه ويصبر ثــم قال : «اما ما دعاني الى ذلك فهاتف سمعته يقول ويكرر القول : (ان عليا بريء وانما يتهمه اهل المطامع وذوو الاغراض) . وكنت كيفما توجهت أسمع هذا الصوت يرن في أذني حتى اقلق راحتي . فبحثت عن الامر بنفسي وتدبرت ما اعلمه من تاريخ علي وعثمان وغيرهما من القائمين بهذه الفتنة ، فوجدت معاوية وسائر بني أمية على ضلال ، بل هم اهل اغراض اتخذوا مقتل الخليفة المظلوم ذريعة للحصول عليها» .

وقطب حاجبيه وقد ابرقت عيناه من خلال قوس الاشياخ حول حدقتيه وبان الجد في لهجته ، فظل سعيد صامتا لا يبدي حراكا لما استولى عليه من الدهشة .

- ٤ -

علي خير من معاوية

ثم اجال الشيخ يده في لحيته وأصلح شعر حاجبيه وشاربيه والتفت الى سعيد وقال : «يزعم معاوية وأصحابه انهم انما جردوا السيوف وسفكوا الدماء للمطالبة بدم عثمان كأنهم لم يكونوا يستطيعون الذب عنه قبل قتله . ولقد يضحكني مطالبة عمرو بن العاص بدم عثمان ، وهو اول من اراد قتله وسعى في ذلك حتى افتخر بأنه قتله وهو في فلسطين. فقد علمت انه لما بلغه مقتل عثمان وهو في وادي السباع قال : (انا قتلته وأنا في وادي السباع) يعني انه سعى في قتله عن بعد . فلا يغرنك بعد ذلك مجيئه هو وأبناؤه ماشين الى دمشق يبكون ويقولون : (واعثماناه! ننعي الحياء والدين) . انهم انما فعلوا ذلك حيلة للانضمام الى معاوية ..

«وأما معاوية وسائر بني أمية ، فهل تحسبهم شرعوا الأسنة وأيقظوا الفتنة مطالبة بدم ذلك الخليفة المقتول ؟. اذا كانوا فعلوا ذلك غيرة وحنانا فما بالهم لم يدافعوا عنه وهو محصور يستنجدهم من المدينة الى الشام؟ وهب انهم تأخروا عن نجدته كرها كما يزعمون فما بالهم نسوه ونسوا اولاده . واذا كانوا يؤمنون بأنه قتل ظلما وانهم انما قاموا للمطالبة

بدمه . فلماذا لم يولوا الخلافة واحدا من اولاده ؟ أرأيت كيف اتخذوا اسم هذا الخليفة ودمه ذريعة الى السلطان ؟

«وهكذا فعل ايضا طلحة والزبير ، فقد قتل عثمان وهما في المدينة على قيد أذرع منه ، فلو ارادا بقاءه لم يعجزهما الدفاع ولكنهم سكتوا عن قتله حتى اذا رأوا الخلافة افضت الى علي ، تظاهروا بالدفاع عن عثمان وقالوا : (انه قتل ظلما) ..»

وكان الشيخ يتكلم محاولا خفض صوته فلا يطاوعه التهيج فلا يلبث حتى يرتفع صوته تتخلله غصات وارتجاج . وأما سعيد فكان يسمع كلام جده وهو مطرق لا يستطيع النظر الى وجهه تهيبا واحتراما . فلما وصل ابو رحاب الى هذا الحد سكت برهة تشاغل فيها بمسح فمه وشاربيه من نفثات ريقه لان الهرم اخلى فكيه من الاسنان . فانتهز سعيد تلك الفرصة وقال له : «كيف تحسب عمل هؤلاء طمعا في الخلافة ولا تحسب عمل علي مثل عملهم . وقد كانوا جميعا في المدينة ؟ وكيف اذا قتل الخليفة تكون البيعة لواحد منهم والباقون ينتظرون ؟. لماذا لا تحسب ذلك طمعـــا من علي ؟»

فضحك الشيخ ضحكة اغتصابية او هي قهقهة تشبه الضحك اعظم ما قام في نفسه وهو في اخر يوم من ايام الدنيا . وأول يوم من ايام الآخرة . وقبل ان يتم قهقهته حول وجهه الى سعيد وقال : «أتسألني عن خلافة علي وقد كان الاولى بي ان اسائل نفسي ما الذي أعماني عن حقه فيها من اول الامر ؟ صدق القائل ان الغرض يعمي ويصم ... ان الخلافة لم تكن لاحد من الصحابة قبل هذا وهو ابن عم الرسول (صلعـــــم) وصهره زوج ابنته فاطمة سيدة نساء العالمين . وهو اول الناس اسلاما بعد خديجة ، وزد على ذلك ان الرسول (صلعم) ربي في حجر ابي طالب والد علي . وقد كفله ودافع عنه في بدء الدعوة . وكانت قريش تكره

دعوته حتى كثيرا ما هموا بايذائه وأبو طالب يمنعهم بما له من المنزلة الرفيعة عندهم . فلما ولد علي ربي في حجر الرسول (صلعم) وأسلم وهو في العاشرة من عمره وذب عن الاسلام بقلبه ويده ولسانه . ولا انسى يوم الهجرة يوم تآمرت قريش على ايذاء الرسول (صلعم) في مكـــــة فاعتزم الهجرة ، وكيف ان عليا اقام مقامه في منزله فتسجى ببردته وبات على فراشه وعرض نفسه لخطر القتل ونجاه الله . هذا عدا حروبه في الغزوات والسرايا ؛ فقد شهد معظم المواقع وأشهرها ، وبذل نفسه فـــي الذب عن الاسلام يوم كان معاوية وأبوه واخوته في مكة من ألد اعداء الاسلام ، ولم يسلموا الا بعد فتح مكة اي بعد قنوطهم من النصر» .

* * *

كان ابو رحاب يتكلم والعرق يتصبب من جبينه كأنه اتى عملا شاقا يجهد نفسه فيه ، وسعيد صامت مطرق لا يزال في دهشته واستغرابه حتى كاد يغيب عن صوابه . ولم يجرؤ على كلام . وطال سكوت جده فهم بسؤاله فرآه يتحفز للكلام فسكت وأصغى . فقال ابو رحاب : «اراك دهشت لما سمعته كأنك لم تعلمه قبلا ، ولا ألومك اذا علمته وتجاهلتـــه فاني اكبر منك سنا وأعلم منك في هذه الشؤون وقد اعماني الغرض ، وكأنني بعد ذاك الهاتف قد فتحت عيناي وصرت انظر الى الحقيقـــــة كما هي ...

«نعم ان عليا أولى منهم جميعا بالخلافة ، والرسول (صلعم) فضله عليهم جميعا وآخاه دون سواه فقال له على مسمع من الصحابة : (انت اخي في الدنيا والآخرة) . وخاطبه مرة وقال : (لا يحبك الا مؤمن ولا يبغضك الا كافر) . ولقد تستغرب ما سأتلوه عليك وتعجب كيف لم يتول الخلافة قبل الان ، ولاسيما بعد قول الرسول : (ان عليا مني وأنا من علي

وهو ولي كل مؤمن بعدي) وقوله (صلعم) : (من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه) . فمن يعلم ذلك ويعجب لخلافته ؟ بل كيف لا يعجب لتقاعده عن الخلافة الى الان ؟»

وكان سعيد مطرقا وقد تغيرت سحنته وتوليه الدهشة حتى ظن نفسه في منام . وندم على مجيئه لانه اصبح بعد سماع ذلك الكلام حجرا بين مطرقتين لا يدري أيقوم بعهده لقطام التي ملكت لبه ام يعمل بوصية جده وهو في اخر ايام الدنيا . فظل صامتا لا يبدي حراكا . وأدرك جده ارتباكه ولكنه تجاهل ما يجول في خاطره وعاد الى اتمام الحديث فقال:

«فأنت ترى يا ولدي ان عليا أولى بالخلافة من سائر الصحابة لقرابته وصهره ووصية الرسول له ، ثم هو يمتاز عن سائر الناس بفضائل تكفي وحدها لتوليه امور المسلمين . ولا ارى في معاوية شيئا منها . ان عليا رجل متقشف زاهد في الدنيا . رأيته مرة آنزل سيفه في السوق فباعه . فسئل لماذا فعل ذلك . فقال : (لو كان عندي اربعة دراهم ثمن ازار لم أبعه) . ويكفي قوله في وصف المؤمنين : (ومن سيماهم ان يكونوا خمص البطون من الطوى . يبس الشفاه من الظمأ . عمش العيون من البكا) . ولو فتشت بيته اليوم ما وجدت فيه صفراء ولا بيضاء . وقد قضى عمره في اعزاز الاسلام وفتح الفتوحات . ولم يلبس ثوبا جديدا ولا اقتنى ضيعة ولا ربعا . ومن كان في مقامه يقدر على حشد الاموال واقتناء العبيد والاماء والضياع كما فعل غيره من الصحابة كطلحة والزبير وعثمان . وصاحبنا وابن عمنا معاوية ...»

* * *

ثم سكت الشيخ وتنهد تنهدا عميقا وقال وصوته يعلو بالرغم منه : «ان معاوية خدعنا بتظاهره بنصرة الخليفة المقتول حتى كرهنا الامام عليا،

وقد كنا في ظلمات من الغرض لا نرى الحق ؛ وأما الان وقد انقشع الغشاء عن عيني فقد اصبحت ناقما على معاوية . واذا فكرت في أعماله وأعمال علي كدت أتميز غيظا وينفطر قلبي اسفا على ما نال هذا الامام من الاذى . كيف لا وهو رجل عرفناه يوم انتصر علينا في وقعة الجمل . فقد اشفق على عدوه اشفاقه على اولاده فأوصى اصحابه بألا يلحقـــوا مدبرا ولا يجهزوا على جريح ولا يمسوا النساء ولا الاولاد بسوء . وكم اوصى عماله ان يقسطوا في أحكامهم وقد اخبرني رجل انه سمعه يوصي احد عماله ويقول : (لا تضربن رجلا في جباية درهم . ولا تبيعن رزقا ولا كسوة شتاء ولا صيف . ولا دابة يعتمدون عليها . ولا تقيمن رجلا قائما في طلب درهم) . ولو اردت ان أسرد الك من هذه الامثلة لضاق بـــي المقام وقد ينقضي أجلي قبل الفراغ منها وأنا انما أستمهل ملاك المــوت ريثما أتم وصيتي .. فاصغ اي يا ولدي وتأمل عدل الامام علي وحلمه وما ارتكبه معاوية وعماله من الاعتداء على المسلمين . وخوفا مـــــن التطويل وقد تعبت من الكلام . أذكر لك حادثة قريبة العهد لا يزال صداها يرن في الآذان .. آه .. آه من القساة اهل المطامع .. أتعرف عبيد الله ابن عباس ؟» .

قال : «كيف لا أعرفه وهو ابن عم الرسول (صلعم) وابن عم علي بن ابي طالب . نعم أعرفه» .

قال : «اصغ لما أقصه عليك واعتبر . لما فرغ معاوية من وقعة صفين وتحكيم الحكمين وظفر بالخلافة بحيلة عمرو بن العاص المعلومة ، بايعه اهل الشام وظل علي في العراق . ولم يقنع معاوية بما أوتيه من الحكم فبعث سراياه الى الحجاز والعراق للفتح يدعون الى بيعته ونقض بيعة علي . وكان رسوله الى الحجاز واليمن بسر بن أرطاة . فجاء المدينـــة وتولاها لان عاملها فر من وجهه . ثم جاء مكة هذه منذ شهرين ولا يزال

الناس يتحدثون بفرار صاحبها ابي موسى الاشعري من وجهه . فأكره اهلها على البيعة فبايعه اهل مكة مكرهين . وقد كنت مريضا ولم أر وجهه . على ان عمله هذا لا يستوجب ملاما . ولكنه سار الى اليمن وعاملها عبيد الله بن عباس . فخاف عبيد الله فهرب الى الكوفة واستخلف عبدالله بن عبد المدان . فلم يكن من بسر بعد دخوله اليمن الا انه آمر بعبدالله هذا فقتله وقتل ابنه صبرا . وسمع بابنين صغيرين لعبيد الله بن عباس قد اودعهما عند رجل من كنانة بالبادية . فأراد قتلهما وبعث في طلبهما فجاء الكناني ومعه الطفلان فلما علم ان بسرا يريد قتلهما ذعر وصاح قائلا : لم تقتل هذين ولا ذنب لهما فان كنت قاتلهما فاقتلني معهما . فلم يكن من ذلك الظالم الا انه قتل الطفلين والكناني . وعلمت ان الكناني دافع عنهما حتى قتل . ولقد اعجبني قول امرأة من كنانة رأت ابن أرطاة مارا بعد تلك الفاجعة فقالت له : (يا هذا قتلت الرجال فعلام تقتل هذين ؟ والله ما كانوا يقتلون الاطفال في الجاهلية ولا في الاسلام . والله يا ابن أرطاة ان سلطانا لا يقوم الا بقتل الصبي الصغير والشيخ الكبير ، ونزع الرحمة وعقوق الارحام . لسلطان سوء) .

«هذه يا ولدي اعمال معاوية وعماله ، فأين هي من اعمال الامام علي ؟ وكيف تنقم عليه بعد ذلك . وتقول انه قتل عثمان وانه يستوجب القتل ؟ »

ولم يتم الشيخ كلامه حتى خارت قواه وعجز عن اتمام الكلام ومل القعود فاستلقى على ظهره وهو يلهث والعرق يتصبب من جبينه . فخاف سعيد عليه فأسرع الى منديل مسح به عرقه وأتاه بلبن كانوا أعدوه له فشربه واستلقى يلتمس الراحة ، وسعيد جالس الى جانبه وقد وقع في حيرة أي حيرة . فذكر عهده لقطام ولبث صامتا . وكان جده الشيخ

يلتفت اليه خلسة يرقب حركاته وسكناته . فأدرك ارتباكه وعلم انه يفكر في قطام وأهلها فحول وجهه اليه وهو مستلق وقال : «أظنك تفكر في قطام وأهلها الخوارج ، وقد يخيل اليك ان خروجهم عن طاعة علي قد يطعن في صدق ما قلته لك ، ولكنهم لم يخرجوا الا طمعا في الدنيا فانتحلوا سببا لا يسمعه عاقل الا هزأ بهم وأيقن جورهم . خلعوا طاعة علي لانه قبل التحكيم ، وما ذنبه وهم الذين اجبروه على قبوله ؟ وهب انه اخطأ فهل يخرجون عليه ويحاربونه ؟. ولكنهم رأوا معاوية قام في الشام وكاد يفوز بالخلافة فطمعوا هم في الحكومة لانفسهم فأجمعوا على نقض البيعة ، ويؤيد ذلك انهم ولوا عليهم رئيسا منهم وبايعوه ولكنهم فشلوا في حروبهم وعادت العائدة عليهم .

«وليس فشلهم بالدليل الوحيد على سوء نياتهم . ولكنني اتلو عليك حكاية سمعتها من رجل اثق بصدق روايته هي ان الخوارج عند اول خروجهم على علي بعد رجوعهم من صفين ، نزلوا عند النهروان فرأوا رجلا يسوق حمارا عليه امرأة ، فدعوه فانتهروه فأفزعوه وقالوا له : (من انت ؟) . قال : انا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله (صلعم) . فقالوا : أفزعناك ؟. قال : نعم . قالوا : لا روع عليك حدثنا عن ابيك حديثا سمعه من رسول الله . فحدثهم بحديث (انه تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت فيه بدنه يمسي فيها مؤمنا ويصبح كافرا ويمسي مؤمنا) . قالوا ما لهذا الحديث سألناك فما تقول في ابي بكر وعمرو ؟ فأثنى عليهما خيرا . قالوا : فما تقول في عثمان في اول خلافته وفي اخرها ؟ قال انه محق في اولها وفي اخرها . قالوا : فما تقول في علي قبل التحكيم وبعده ؟ قال انه أعلم بالله منكم وأشد توقيا على دينه وأنفذ بصيرة . فقالوا : انك تتبع الهوى وتوالي الرجال على اسمائها لا على افعالها ، والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها احدا . فأخذوه

وكتفوه ثم اقبلوا به وبامرأته وهي حبلى ، حتى نزلوا تحت نخل مواقير فسقطت منه رطبة فأخذها احدهم فتركها في فيه ، فقال اخر : اخذتها بغير حلها وبغير ثمن فألقاها ، ثم مر بهم خنزير لاهل الذمة فضربه احدهم بسيفه فقالوا هذا فساد في الارض ، فلقي صاحب الخنزير فأرضاه . فلما رأى ذلك منهم ابن خباب قال : لئن كنتم صادقين فيما ارى فما علي منكم من بأس اني مسلم ما احدثت في الاسلام حدثا ولقد امنتموني وقلتم لا روع عليك . فأضجعوه فذبحوه فسال دمه في الماء وأقبلوا الى المرأة فقالت : اني امرأة ألا تتقون الله ؟ . فبقروا بطنها .. هذه اعمال اعداء علي وهذا هو علي فكيف تنقم عليه وكيف تقتله او تسعى في قتله ؟ بل كيف تسكت عن قتله ولا تدفع عنه ؟»

* * *

فلما رأى سعيد نهاية حديث جده لم يعد يذكر العهد الذي كتبه على نفسه بقتل علي لئلا يزيد غضبه . فظل ساكتا يفكر في حيلة ينجو بها من وعده بالتي هي احسن ، فلم يسعفه ذهنه وأحس بالتعب الشديد ، ورأى ابا رحاب قد تعب ايضا . فقال له : «لقد اتعبت نفسك يا جداه وأنت توصيني فشكرا على رعايتك ، واني ارى قولك الصواب وأطلب اليه تعالى ان يقدرني على العمل به ، فاسترح الليلة وغدا نصبح ان شاء الله وقد ارتحنا فنستأنف الكلام» . قال ذلك وأكب على يده فقبلها فرآها قد بردت ويبست . فقال له جده : «نم هنيها يا ولدي فاني اخشى ألا يصبح علي الصباح فلا بد من كلمة اقولها وهي ختام ما اوصيك به» . قال ذلك ومد يده فدنا سعيد اليه فعانقه وبكى ثم قال والدمع ملء عينيه وشفتاه ترتجفان وذقنه تهتز : «اذا شئت يا ولدي ان يفارق جدك الدنيا آمنا مطمئنا فعاهده بأن تعمل بما اوصاك . لا تبغ سوءا للامام علي واذا

رأيت سبيلا للدفاع فادفع عنه بكل قوتك . هل تعاهدني على ذلك ؟..
عاهدني عليه . واجبر قلبي واذكر اني جدك وكافلك ووصيك وانـــي
ربيتك وتعهدتك واني لا اريد لك الا الخير . هل تعاهدني على ذلك ؟
قل نعم واجبر قلبي اني قلق عليك ..»

فتأثر سعيد من كلام جده حتى اغرورقت عيناه بالدموع وتذكـــر
حنوه وعطفه عليه فلم يسعه الا الايجاب فعاهده .

ولكنه لم يكد يعاهده حتى ذكر عهده لقطام على عكس ذلك فعظم
عليه الامر . ورأى جده يميل الى الرقاد فدعا الرجل الموكل به وأمره ان
يتعهده في اثناء رقاده وخرج الى غرفة اخـــــرى ونزع ثيابه والتمس
الراحة . اما الرقاد فلم يكن له فيه مطمع بعد ما انتابه من شتى الهواجس.

لم يهدأ لسعيد بال ، وازداد الامر خطورة لديه ، وهاله انه رمـى
نفسه بين عهدين متناقضين . فكان كلما تصور نكوله عن قتل الامام
علي شعر براحة بال واطمئنان ، ثم يعاوده طيف قطام وبعدها فترتعـــد
فرائصه ويحار في امره .

* * *

وبقي على هذه الحال حتى انتصف الليل لا يغمض له جفن ولا يستقر
له قرار . فنهض من فراشه وتزمل ببرده وعباءته وتعمم وخرج الـــى
الخلاء . وكان الظلام مخيما ورقد الناس وليس في طرق مكة سائـــر
فخفف السكون من اضطرابه ، وسار على غير هدي يفكر فيما هو فيه
الى ان شعر بالبرد فالتف بالعباءة وظل ماشيا يبطىء تارة ويسرع اخرى
حتى رأى نفسه على باب المسجد الحرام فسرى عنه . فقال في نفسه :
«لأدخلن المسجد أصلي ركعتين لعل الله يوحـي الي بما يخفـــــف
اضطرابي» . وكان الباب مفتوحا وصحن المسجد خاليا فتأبط نعليـــه

ودخل حتى دنا من الكعبة فصلى وسجد فأحس لساعته براحة فطـاف حول الكعبة ثم التمس مكانا وراءها فاتكأ وعادت اليـــه هواجسه . فأجال بصره يراقب النجوم السابحة في الفضاء وأخذ بجمال القبة الزرقاء وأفكاره تائهة واشتد البرد عليه فأدخل رأسه في العباءة يجعلها خماراء وكان التعب والبرد تغلبا عليه فخدر واستولى عليه النعاس . ولكنه لم يكد يغمض لحظة حتى ابتدرته الاحلام فرأى قطام بجلباب اسود وقد اسفرت عن محياها فبدت عيناها المكحولتان وآخذت تمشي نحوه حافية القدمين على بساط من ريش النعام الابيض . فخفق قلبه لرؤيتها وهم بالسلام عليها فرآها اعرضت اعراض العاتب وعيناها تتلألآن بالدموع . فتفطر قلبه لرؤيتها على هذه الحال وساءه اعراضها ، فهم بالاقبال عليها فلم تسعفه رجلاه لما تولاهما من الرعدة فناداها فلم تجبه وظلت معرضة وقد تحولت عنه ومشت تنظر اليه شزرا ولسان حالها يقول : «لقد خنت عهدي فما انت اهل لي» .

وحاول سعيد اللحاق بها ليخبرها ببقائه على العزم فلم يستطع ، ولما ابتعدت عنه هم بأن يناديها فأفاق من رقاده فاذا هو وحده بجانب جدار الكعبة والظلام محدق به .

فمسح عينيه ليتبين أفي يقظة هو ام في منام ، ولما تحقق انه كان حالما حمد الله ولكنه ايقن انه اذا لقي قطام فلن يرى منها غير الاعراض .

فمكث صامتا تتقاذفه الهموم وهو لا يهتدي الى حل مقنع ، فنهض راجعا الى المنزل ليرى ماذا حدث لجده . واشتاق ان يأوي الى فراشه بعدما اضناه التعب والبرد . ولم يكد يتلو سورة الفاتحة عند عودته حتى سمع لغطا خافتا كأن اناسا يتسارون . وكان قد وصل الى مقام ابراهيم امام الكعبة فوقف وأصاخ بسمعه فسمع خطوات بطيئة تقترب مـــــن الكعبة وهمسا يتكرر كأن القادمين يتشاورون في امر خطير . فانزوى

وراء المقام في مكان لا ينتبه اليه احد في الظلام ، وكـــان لا يرى الا الكعبة وما حولها .

- ٥ -

١٧ رمضان

وبينما كان سعيد واقفا في مكانه اذ رأى ثلاثة رجال لم يعرف احدا منهم ولكنه عرف من قيافتهم انهم غرباء ولم يتمكن من تمييز الوانهم ولا سحنهم وقد لفوا رؤوسهم بالعمائم لفا كالخمار اما اتقاء للبرد وامـــا تنكـــرا .

فعجب لامرهم وخفق قلبه خوفا من انكشاف مخبئه وحذرا من ان يكونوا قد استخفوا ليكيدوا لاحد فاذا علموا به وبافتضاح سره قتلوه ، فبالغ في انزوائه لا يأتي بحركة وخشي ان يداهمه العطس فيفتضـــح امره . اما هم فوصلوا الى باب الكعبة واقتربوا من سعيد بحيث يراهم جميعا فلو كان القمر طالعا او كان هناك مصباح لتبين سحنهم جيدا ولكنه لم يستطع ان يتبينهم لسواد الليل . على انه لمح من بادي احوالهـــم وحركاتهم انهم في امر ذي بال ، وكان احدهم طويل القامة وهو اكثرهم حركة فجلس رفيقاه الاربعاء وظل هو واقفا ثم جلس القرفصاء وقال : «مالنا ولهؤلاء انهم جبناء ، تعالوا نبدأ نحن بالامر فيكون لنا الفخر».

قال الثاني وكان قصير القامة ممتلىء الجسم : «انا على رأيك فانه لم ينلنا من الأئمة الا الضرر . يتنازعون على الخلافة فيقتتل المسلمون في

نصرتهم فاذا قتلناهم رقدت الفتنة . نعم نقتلهم جميعا» . قال ذلـــك بصوت خافت وفي نطقه لجلجة وكان يلتفت يمنة ويسرة لئلا يسمعه احد.

فقال الرفيق الثالث وكان لا يزال ساكتا : «اني لا أذكر يوم النهروان ومن قتل فيه من الابطال حتى يقطر قلبي دما . ان عليا قتلهم لانهم لم يرضوا بالتحكيم» .

فابتدره طويلهم وكان اجرأهم كلاما وأعلاهم صوتا على عكس رفيقيه فقال : «لا يجدينا التذمر والتضجر ونحن سكوت نرى ابناءنا واخوتنا يقتلون في نصرة هؤلاء الأئمة ولا نبدي حراكا . هلم نكف المسلمين شرهم » .

فلما سمع سعيد حديثهم علم انهم يتآمرون على قتل جماعة مـــن الأئمة ، وان الامام عليا واحدا منهم ، ولم يعلم من هم الاخرون . فجعل يرتعد فرقا وخوفا من ان ينكشف مكانه ولكن حب الاستطلاع جعلـــه يقدم على علم ما هم فيه ، فبينما هو ينزوي ليختبىء ويتمنى علـــى السحب ان تشترك مع الظلام في حجبه عن العيون اذا به راغب فـــي كشف ما يبيتون .

وسكت صاحبا الرجل الطويل الجريء بعد ان انتهى من كلامه . فلما رأى صمتهما ابتدرهما قائلا : «وماذا علينا لو متنا ؟ حبذا الموت في سبيل انقاذ المسلمين من فتنة يقتتلون فيها . وأصل الفتنة ثلاثـــة يتنازعون على الخلافة وسلطان الدنيا وهم علي بن ابي طالب ومعاوية ابن ابي سفيان وعمرو بن العاص . هلم بنا نقتلهم نرح الناس منهم» .

فقال الثاني : «اني على رأيك من اول الامر فكيف السبيل الـــى قتلهم وهم محاطون بالجند والاعوان فلنفكر في وسيلة تضمن لنا الفوز ونأمن بها الخطر» .

فأسرع الاول في جوابه وقال : «اراك تتردد كأنك تخاف هـــول

الموقف او كأنك تتمنى ان يكون نصيبك قتل امام يرهبك . تعالوا نقسم العمل فيما بيننا . تعالوا نقسم ليقتلن كل واحد منا واحدا من اولئك الثلاثة ، ونعين يوما نباشر العمل فيه معا ، فيكون احدنا في الكوفة لقتل علي ، وآخر في مصر لقتل عمرو ، والثالث في الشام لقتل معاوية . وهكذا يقتل كل منا صاحبه في ذلك اليوم فيصبح المسلمون وقد نجوا من اسباب الفتنة ، فيختارون خليفة يولونه أمورهم وترجع الخلافة الى بساطتها » .

فلما سمع سعيد ذلك تهيب الامر واستعظمه ولم يصدق انهم يستطيعونه وبدا له ان قتل علي يمهد له رضاء قطام وان لم يكن قتله على يده ، ولكنه تذكر كلام جده وما أوصاه به من الدفاع عن علي لبراءته مما ينسبونه اليه فانقبضت نفسه ولكنه أفاق من اضطرابه عندما عاد المتآمرون الى الكلام . فلما فرغ اولهم من كلامه ولم ير اقبالا عليه من رفيقيه لم يصبر حتى يسمع ما يقولان وانطلق يقول : «لا تترددوا ولا يهولنكما الامر فهو أسهل ما يكون على ذي جرأة ، وكأني بكما تفكران في قسمة العمل وتخافان ان يكون نصيب احدنا اصعب مراسا من نصيب الاخر ، فلا تخافا فاني آخذ على عاتقي قتل اكبر هؤلاء الثلاثة وأشجعهم . انا اقتل عليا بن ابي طالب ، فاني وان يكن مقامي بالفسطاط فاني آتي الكوفة فأقتله» . قال ذلك وأقبل حتى دنا من باب الكعبة وأمسك بحلقته وقال : «ها أنذا امسكت بحلقة الكعبة وأقسم بالله وبهذا البيت الحرام لأقتلن عليا بن ابي طالب وأبذل في هذا السبيل ما في وسعي وأشهد الله على ذلك» .

فلما فعل ذلك نهض رفيقاه متحمسين فأمسك كل منهما بحلقة الباب وأقسم احدهما ليقتلن معاوية بن ابي سفيان ، والاخر ليقتلن عمرا بن العاص .

ولا تسل عن سعيد عندما شهد هذا العهد الخطير وقد تمنى لو عرف المتآمرين ولكنه لم ير سبيلا الى ذلك . ولكنه فهم من سياق الحديث ان الذي آل على قتل الامام علي من اهل فسطاط مصر .

ثم عاد الثلاثة الى مجلسهم فقال احدهم وهو السجين القصير : «لقد تعاهدنا على قتل هؤلاء الأئمة ولكننا لم نعين اليوم الذي نفعل فيه ذلك فان لم نعينه فشلنا جميعا» .

فقال الثالث : «وهذا ما اراه انا ايضا لاننا ان لم نعين اليوم كان المجال واسعا ، ونخشى ان سبق احدنا الاخر ولم ينجح او قتل او قبض عليه ان يخاف الباقيان وينكلا . فلنعين اليوم والساعة» .

فقال الاول : «ان الساعة يصعب تعيينها فلنعين الليلة ليتم عملنا في ليلة واحدة . في اي الشهور نحن الان ؟»

قالا : «في جمادي» .

قال : «فليكن موعدنا رمضان المبارك لنشهد عيد الفطر والمسلمون قد اطمأنوا ، واذا قتلنا لقينا ربنا وقد فعلنا ما علينا . فاختاروا ليلة من ليالي رمضان» .

قال الثاني : «انا أختار الليلة السابعة عشرة من رمضان فمـــــا قولكما ؟ »

قالوا : «انها خير ليلة» . ونهضوا وسعيد يخاف ان يمروا به ويروه، ولكنهم داروا حول الكعبة كأنهم يطوفون بها ولبث هو ينتظر عودتهم فلم يعودوا . فلما استبطأهم علم انهم خرجوا من باب اخر او داروا وتحولوا الى الباب الذي دخلوا منه . فرفع رأسه ونظر حوله فلم ير احدا ولا سمع صوتا فنهض وطاف حول الكعبة فتحقق انهم خرجوا . فجلس هنيهة يفكر فيما مر به وهو يحسب نفسه في حلم لغرابة ما رآه واتفاق حدوثه في الليلة التي اوصاه جده فيها بألا يقتل عليا . ونظر الى الافق فاستقبلته

الزهرة تتلألأ كأنها تبشره باقبال الفجر . وتذكر جده فرأى ان يعود الى المنزل قبل ان يطلع النهار ويخرج الناس . ومشى .

* * *

ولما اقترب من المنزل خفق قلبه مخافة ان يكون جده قد اصاب حتفه في غيابه فدخل الدار فرأى السكون مخيما عليها فاستبشر وقصد الحجرة التي كان جده نائما فيها فرأى المصباح مضيئا فأطل من الباب فرأى عبدالله جالسا بجانب الفراش وجده نائم . فنظر الى عبدالله كأنه يستطلعه الحال فنهض لاستقباله ووجهه باش فاطمأن قلبه وقبل ان يلقي التحية ابتدره عبدالله قائلا : «لقد شغلنا بغيابك فان جدك أفاق من نومه مرارا وطلب ان يراك ونحن لا نعرف مكانك وقد آلح كثيرا في طلبك» .

قال : «وكيف هو الان ؟»

قال : «في خير وقد رأيناه في راحة لم يذقها منذ ايام» .

ولم يتم عبدالله كلامه حتى رأى ابا رحاب يتحرك في فراشه فتقدم سعيد اليه ففتح عينيه وأشار اليه فدنا منه وجثا امامه .

فقال ابورحاب : «اين كنت يا ولدي فقد طلبناك فلم نقف لـــك على أثر ؟»

قال : «خرجت في حاجة الى الكعبة واتفق لي حادث شغلني عـــن المجيء حتى الان» .

فمد الشيخ يده وقبض على يد سعيد وضغط عليها كأنه لا يريد ان يفارقه وسعيد صامت لا يبدي حراكا لشدة تأثره من منظر جده الشيخ وقد شعر انه انما ضغط على يده بغية الوداع .

فترقرقت الدموع في عينيه والتفت الى عيني جده فرآهما غارقتين بالدمع وهما شاخصتان اليه فتفطر قلبه وهم بأن يتكلم فابتدره جـــده

قائلا : «اني لا ازال في قلق على مستقبلك وأخشى ألا تكون قد استوعبت نصيحتي فقد نصحتك وأنا في اخر ايام الدنيا نصيحة اوحي الي ان ألقيها اليك . وقد تركتني الليلة غارقا في بحار الاحلام وكان هاتفا خوفني من غيابك . هل انت باق على عهدي يا سعيد ؟»

قال : «لقد عاهدتك يا جداه عهدا وثيقا اني لا اسعى بضر للامام علي ما حييت ، وأنا باق على عهدي ، وأزيدك علما انني صادفت في الكعبة عصبة يتآمرون على قتله وقتل صاحبيه معاوية وعمرو في يوم عينوه وتعاهدوا عليه فلم يبق ثمة حاجة الى سعيي» .

فبغت الشيخ وحملق وصاح : «ومن هؤلاء ؟»

فقص سعيد خبره مختصرا وختم كلامه قائلا : «اني لم اعرفهم وما استطعت اللحاق بهم خوفا منهم لاني أعزل» .

قال : «ألم تعرف الذي حلف على قتل الامام علي ؟»

قال : «كلا ولكنني علمت من كلامه انه من مصر ، ويغلب على ظني انه من الخوارج» .

فصمت الشيخ برهة كأنه يفكر في امر مهم ، ولحظ سعيد من شخوص عينيه وذبول أجفانه وانقلاب سحنته انه تعب . وأما ابو رحاب فتجلد وقال وهو يرتجف ولا يستطيع التلفظ بكل مقطع من مقاطع الكلام كأن لسانه شد برباط : «يا ليتني كنت بينهم لاقنعهم بالكف عن ذلك ... فلو استطعت استمهال أجلي لسعيت في البحث عنهم فاذا عرفت الساعي في قتل الامام علي ارجعته عن غيه بالبرهان ... انهم والله ظالموه» . ثم سكت هنيهة ليستريح وعاد الى الكلام وهو يتلجلج ويقف عن الكلام عند كل شهيق من تنفسه وقد اسرع تنفسه وظهر الاضطراب عليه ، فعلم سعيد ان جده في النزع فارتعدت فرائصه وتخشع قلبه وحزن ، ولكنه اصغى لتتمة حديثه فاذا هو يقول : «وأما

انت يا سعيد فاصغ لقولي واعمل بنصيحتي .. ولا أقبل منك السكوت عن هذا الامر .. وانما انت .. مكلف بالبحث عنه .. انك مكلــف بالبحث عن هذا .. الرجل في مصر .. والشام .. والعراق حتى تعلم مقره .. فاما ان تقنعه .. واما ان تنبىء .. الامام بأمره . انـــي .. ألقي .. هذا الامر على عاتقك .. فاحذر .. ان تتقاعد عنه . والا فانك .. قاتل عليا بيدك .. هذه وصيتي لك ، احتفظ بها ولا تتسهل او تتكاسل .. والله شاهد .. على ما اقول . هذه .. وصيتي الاخيرة بل .. هذه .. اخر كلمة افوه بها في هذه .. الحياة الدنيا .. وكنت مستغربا تأخير أجلي الى .. الساعة . وكنت أحسبني .. ميتا منذ ايام ولكن الله .. انما اراد بذلك .. ان أكل اليك .. هذا الامر .. هذه اخر وصيتي لك ، ابحث .. عن هذا الرجل وارجعه .. عن غيه .. كما أرجعتك .. ولو اوتيت .. عمرا ثانيا لقست في بني أمية .. وفـــي الخوارج خطيبا أصرح ببراءة .. الامام علي ، على رؤوس الاشهاد ، ولكن آه .. ان الساعة آتية.. لا ريب .. فيها.. وها أنذا أستودعك.. الله وآخـــــر ك .. لم .. ة أقو .. لها لك . علي .. علـــي .. اد .. فع .. عن علي بيدك .. وقلبك .. ولسا .. ن .. ك »

ولم تخرج هذه الكلمات الاخيرة من فيه حتى اختنق صوته ثـــم شهق شهقة دوى صوتها في اطراف المنزل وارتخت مفاصله ، فأفلتت يد سعيد من يده ونظر سعيد الى جده ، فاذا هو قد اغمض جفنيه ووقف تنفسه .. فجس يده فاذا هي باردة فلمس جبينه فاذا هو كالثلج وقد فتح فاه وأرسل نفسه الاخير وبطلت حركة الحياة فيه فأصبح جسما بلا روح. فاقشعر بدن سعيد ودق يدا بيد وصاح : «واجداه واجداه . ويـــلاه كلمني وزدني نصيحة اخرى ...» . وما من مجيب . وكان عبدالله قد خرج فعاد ولما رأى ابا رحاب قد مات اخبر اهل المنزل فاجتمعوا وعلا

النحيب والبكاء .

ولم يكن الحزن على موت ابي رحاب شديدا لتوقعهم ذلك منذ ايام. اما حزن سعيد فكان مضاعفا لامتزاجه بالهواجس والاضطراب ولما سمعه من جده وما هو مقيد به من العهود المضادة .

* * *

وبعد الدفن عاد سعيد الى صحوه وفكر في حاله فرأى نفسه في مشكلة لا يدري كيف يتخلص منها ، وبعد التأمل الطويل رأى انه قد يسهل حلها اذا استطاع اقناع قطام ببراءة علي فتنزل عن حقدها ونقمتها. فلما فتح عليه بذلك توسم خيرا وأحس بانفراج الازمة . فأعمل فكره كيف يستولي على عواطفها ويغير اعتقادها في الامام حتى سكت عن طلب ثأر ابيها وأخيها فخيل اليه ان اقناعها سهل فهدأ روعه .

وأسرع في تدبير شؤون ذويه وكان فيهم شاب اسمه عبدالله رباه ابو رحاب كما ربى سعيدا ، وكان يتعزى به ويحبه . وهو الذي انفذه الى الكوفة لاستقدام سعيد ، فلما مات ابو رحاب تقدم عبدالله الى سعيد بأن يأذن له في مصاحبته وألح في ذلك كثيرا . فتعجب سعيد لتلك الرغبة في السفر ولم يكن يعهد عبدالله ميالا الى ذلك .

والسبب في تلك الرغبة ان ابا رحاب كان من الدراية والفراسة بحيث لم يخف عليه ضعف سعيد ، فأرسل أنفاسه الاخيرة وهو يخاف عليه غدر الناس وخداعهم . ولكنه استدرك قبل موته فأوصى عبدالله هذا بأن يكون له عونا فيصحبه حيثما سار فينجده ويرشده فانه وان يكن شابا مثله ولكنه أعرف بالدهر وبالناس .

وبعد ايام ودع سعيد اهله ، واصطحب عبدالله وسارا يطويان الصحراء الى الكوفة . وعبدالله لا يعرف شيئا من علاقة سعيد بقطام ولا

ما تآمر عليه الثلاثة في المسجد الحرام ، ولكنه فهم من حديث ابي رحاب معه ان سعيدا كان عازما على قتل الامام فأرجعه ابو رحاب عن عزمه . وسمع حديث سعيد عن المؤامرة ولكنه لم يتفهمها جيدا . فلما أوغلا في الصحراء بدأ عبدالله حديثا تطرقا منه الى ذكر قتل الامام علي ، واستأنس سعيد بعبدالله وهو مخلص بفطرته ففتح له قلبه وكشـــف له عن سره وارتاح لمشورته . ولم يصلا الى الكوفة حتى اصبح عبدالله عارفا بكل مكنونات قلبه فشاركه في شعوره بشأن عهده مع قطام ورجوعه عنه ، فثبته على اتباع وصية جده وهون عليه اقناع قطام الى ان قال : «فاذا لم تقتنع فاتركها والنساء كثيرات وأنا أختار لك فتاة من اجمل الفتيات خَلقا وخُلقا وأرفعهن نسبا لا تقاس بها قطام» . وكانا يتحدثان وهما على ناقتيهما يطويان البيد طيا .

فقال سعيد : «لا لا تقل هذا فليس في النساء اجمل من قطام ولا صبر لي على فراقها بله اغضابها فانك على ما يلوح لي لم تعان الحب ولا عرفت سلطانه» . قال ذلك وتنهد .. وتوقف هنيهة ثم قال : «وهب اني لا احبها ولست عالق القلب بها فان في يدها عهدا مكتوبا اخاف اذا اغضبتها ان تشي بي الى علي او .. ولكنني واثق بصدق مودتها فهي لا تريد بي سوءا بل تبغي رضاي» .

فقال عبدالله : «اذا كانت تحبك كما تقول فليس أسهل من اقناعها بالرجوع عن قتل الامام فيتاح لك البحث عن الساعي في قتله وتردعه عن غيه فاذا لم يرتدع قتلته او نقلت خبره الى الامام ليرى رأيه فيه» .

فارتاح سعيد الى هذا الرأي .

أقبلا على الكوفة والشمس مائلة الى المغيب وكان سعيد قد قضى ذلك النهار يستحث ناقته لعله يدرك المدينة قبل الغروب ليتمكن مـــن الذهاب الى بيت قطام اذ لا صبر له على تأجيل زيارتها وهو على مقربة

منها ، فلما دنا الغروب وهو لم يدخل الكوفة بعد ، انقبضت نفسه ، وأدرك عبدالله ذلك مما آنسه فيه من السكون . فأراد ان يروح عنه فقال له : «أبعيدان نحن عن منزلك» .

قال : «اذا ما دخلنا المدينة دنونا منه لانه في اطرافها» .

قال : «اني أستعجل الوصول لاستريح من وعثاء السفر وأنجو من ركوب الجمال فقد اتعبني اليوم جريها» .

قال سعيد : «اني اراني على ضد ذلك وتحدثني نفسي ان أصلي العشاء في المسجد قبل المبيت» .

فأدرك عبدالله انه انما يريد زيارة قطام ليطلعها على حديث جده ويرى ما يبدو منها عندما تعلم بما عول عليه ، فرأى ان يثنيها عن زيارتها حتى يتمكن من تهيئة السبيل والحيلة في مخاطبتها لئلا يفشلا ، لعلمه بما هو عليه سعيد من سلامة الطوية التي يخشى عليه منها . فقال له : «دعنا نصل العشاء معا في المنزل ونصبح ان شاء الله فنصلي في المسجد» .

فلم يراجعه سعيد حياء وقبل . ولكنه أسر في قلبه ان يذهب خلسة الى منزل العجوز لبابة ليتحسس الحال .

ودخلا الكوفة وقد امسى المساء فقصدا الى منزل سعيد فترجلا واغتسلا وصليا ثم تناولا العشاء وتظاهر سعيد بالنعاس فذهب كل الى فراشه ، وانتظر سعيد حتى ظن رفيقه قد نام فالتف بعباءته وانسل الى بيت لبابة وقطع طريقه يفكر كيف يبدأ بالكلام . فلما وصل رأى لبابة خارجة منه وقد تخمرت ومشت تتوكأ على عكازها ، فبغت لرؤيتها وحياها فردت التحية وهي لا تكاد تصدق انها تراه . فلما تحققت انه سعيد رجعت وهي تبالغ في الترحاب به وتضحك ضحكتها المعهودة . فاستأنس بترحابها ، ثم تذكر ما جاء فيه من الامر الجديد فانكمش قلبه ولكنه تبعها حتى وقفا بباب الحجرة فأمرت عبدها ان يضيء المصباح

وعادت الى مخاطبته فسألته عن ساعة وصوله • فقال : «اني وصلت الساعة ومن شدة تعبي من السفر الطويل لم اصبر على رؤيتك قبـــل المنـــام » •

فقهقهت قهقهة دوى لها البيت وخيل اليه لفرط قلقه ان عبدالله يسمعها فقال لها بصوت خافت : «وما الذي يضحكك يا خالة ؟»

قالت : «لقد اضحكني شوقك الى رؤية هذا الوجه القبيح (واشارت الى وجهها) وأنت انما تشتاق الى رؤية وجه اجمل منه •• أليس كذلك؟»

فقاطعها وهو يخفض صوته وقال : «لا والله اني الان في شوق اليك اكثر من شوقي الى قطام لاني وقعت في ورطة لا ارى احدا ينجيني منها سواك فاسعفيني برأيك ودهائك • وأرجو قبل كل شيء ان تحفظـــي قدومي اليك الان سرا تكتمينه عن كل انسان ، لان معي رفيقا صحبني من مكة فلما وصلنا الى الكوفة ورأى ميلي الى الخروج اقعدني حتى الصباح فاستحييت وبقيت فلما استغرق في نومه جئت خفية ••»

ولم يتم كلامه حتى جاء العبد بالمصباح فدخلا الغرفة وسعيد يقول: «لقد عودتني يا خالة ان تكوني عونا لي في مصائبي فأنت التي اقنعت قطام بمهارتك ودهائك بزواجي بها فألتمس منك الان ان تقنعيها بمـــا جئت به اليك» •

فعجبت العجوز لاهتمامه الشديد ولو كان قلبها حيا لخفق واضطرب ولكنها تعودت الاهوال ولاقت الغرائب فلم يعد يخيفها امر • فقالت : «قل ما بدا لك اني مستودع اسرارك ولا آلو جهدا في خدمتك» •

فتنهد سعيد وسكت وهي تحدق فيه بعينيها الغائرتين • وبعد هنيهة قال لها : «لقد جئتك بأمر لا ادري كيف ابدأ الحديث فيه» •

قالت : «قل ولا تبالي ولا تجزع فاني عركت الدهر ولقيت الاهوال حتى لم اعد أستغرب امرا •• قل ما بدا لك» •

* * *

قال سعيد : «انت تعلمين اني عاهدت قطام على قتل الامام علي» •
قالت : «نعم أعلم ذلك» •
قال : «وهل تعلمين لماذا خرجت الى مكة» •
قالت : «علمت انك شخصت اليها ولكنني لم أعلم السبب» •
قال : «شخصت اليها اجابة لطلب جدي رحمه الله» •
قالت : «جدك ابو رحاب ؟ ما الذي اصابه ؟»
قال : «انه مات بعد وصولي الى مكة بيوم واحد وكان قد بعث الي ليراني قبل موته» •
قالت : «مات ابو رحاب !• رحمة الله عليه • انه كان رفيقا بـك شفوقا عليك وأنا أعلم انك ربيت في حجره وقد كان أحن من الوالد عليك • ولا شك ان موته شق عليك كثيرا • وكم كنت تود ان يبقى حيا ليفرح بك ويشهد زواجك بعد ان يعلم بما عاهدت عليه لتنقذ بني أمية من العار و •••»
فقطع كلامها قائلا : «آه يا خالة لقد كنت أظن هذا الظن قبل ان اراه ولكنني ما لبثت ان ندمت على ذهابي اليه لانه حملني قبل موته حملا ترينني أنوء به» •
قالت : «وماذا عسى ان يكون ؟»
قال : «ان ما ظننته سببا لارتياحه قد رأيته داعيا لغضبه» •
قالت : «هل اخبرته بعزمك على قتل علي ؟»
قال : «نعم اخبرته ولكنه أنكر علي قتله وأوصاني وهو على فراش الموت ان لا أمد يدي الى هذه الجريمة لان هاتفا جاءه وأنبأه ببراءة الامام علي مما يتهمونه به» •
وكان سعيد يتكلم ولبابة شاخصة اليه وقد اسفت لخيبة مسعاها ؛ ولكنها لدهائها ومكرها لم تبد حراكا ولا اظهرت استغرابا بل تشاغلت

باصلاح خمارها تنتظر اخر الحديث •

وأما سعيد فكان يكلمها وهو يتوقع بغتتها او غضبها فلما رآهـــا صامتة مصغية تجرأ على اتمام الحديث فقال : «ولما سمعت كلام جدي جادلته فرأيت منه اصرارا على رأيه وقص علي شيئا كثيرا من الادلـــة والشواهد المؤيدة لقوله» •

قال سعيد ذلك وسكت وهو ينتظر ما تقوله العجوز ، فرآها لا تزال صامتة ولم يبد على وجهها شيء من الاستغراب ، فعطف بحديثه علـــى المؤامرة التي شاهدها في الكعبة ظنا منها انها توازن ما تقدم من الحديث الغريب • فلما سمعت قصة المؤامرة على قتل الامام علي وعمرو ومعاوية، رأت فيها تعزية ولكنها اظهرت الاستخفاف بما تآمروا عليه وأرادت ان تتحقق ما عول هو عليه فقالت : «وهل علم ابو رحاب قبل موته بتلــك المؤامرة ؟ »

قال : «نعم الي اطلعته عليها قبل ارسال نفسه الاخير ببعض الساعة فلم يزدني الا ثقلا بوصية قالها وهو في اخر ساعات الدنيا •• آه من تلك الوصية» •

قالت : «وما هي ؟»

قال : «انه يوصيني بألا أكتفي بالكف عن قتل الامام علي ، بل يجب ان أدفع عنه • فلم أر بدا من اجابة طلبه وأنت تعلمين موقفي في مثـــل هذه الحال ••• ولكني لم أعاهده الا بعد ان تفطر قلبي لدموعه التـــي كانت تنحدر على لحيته وقد شخصت عيناه وتلعثم لسانه وتلجلج صوته حتى خيل الي ان عظامه تتكلم» •

* * *

فلما تحققت نكوله عن عهده خافت اذا اظهرت له الاستياء ان يبوح

بأمرها وأمر قطام الى علي وهما في الكوفة فينتقم علي منهما ، فأرادت ان تخادعه فتأخذ منه ولا تعطيه فقالت : «ولماذا لم تذعن لجدك فان كلام مثل هذا الشيخ الجليل يعتبر خارجا من أفواه الملائكة» •

فلما سمع كلامها انشرح صدره فابتسم وقال بكل سذاجة : «كيف لم أذعن ؟ لقد أذعنت وعاهدته وهل استطيع غير ذلك ؟» ولكنني عاهدته وقلبي في شاغل بقطام وعهدها لعلمي ان ذلك العهد يحرمني منها» • ثم عطف فقال : «ولكنني لما تذكرت حبك لي وغيرتك علي هان الامر وقلت ان ما يعسر على مثلي يهون على خالتي لبابة •• بالله•• ألا ساعدتني على اقناع قطام بالرجوع عن عزمها على قتل الامام علي ، انه والله بريء مما اتهموه به •• بالله ساعديني واشفقي علي فقد وقعت في حيرة بل هي مصيبة لا ينجيني منها سواك» • قال ذلك وجثا امامها وهم بيدها وقبلها وقد كادت العبرات تخنقه •

فتظاهرت تلك العجوز المحتالة بالحنو وتبسمت وهي تجذب يدها من بين يديه لتمنعه من تقبيلهما وأجلسته وقالت : «طب نفسا يابني ، انني فاعلة ما تريد وأرجو ان يساعدني الله على اقناعها ••» •

فلما سمع سعيد قولها ابتسم والدمع ملء عينيه اعجابا بحنوها وفرحا بنيل بغيته التي لم يكن يتوقعها وفرح بمجيئه تلك الليلة ومقابلة لبابة قبل مقابلته قطام •

اما لبابة فنظرت اليه وهي تحك ما وراء أذنها برأس سبابتها كأنها تفكر فيما تختلقه من الاسباب لاقناع قطام ، وهي في الحقيقة تدبر حيلة لخداع سعيد ثم قالت : «طب نفسا ولا تبالي فاني أضمن لك الفوز اذا اطعتني ••» فابتدرها قائلا : «اني طوع مشيئتك في كل ما تأمرين ، هذا مالي وكل ما املكه بين يديك» •

وكان سعيد يتكلم ولبابة مطرقة • ثم سكت هو وظلت هي مطرقة،

ثم استأنفت الحديث بغتة فقالت : «سبحان الله لقد مرت بي ايام وأنا مستغربة ما يبدو لي من قطام على غير المعتاد فقد يكون الذي فاه به جدك في مكة أثر في قطام هنا ولا ادري ما هو هذا التأثير» .

فدهش سعيد مما سمعه وقال : «ماذا تعنين ؟»

قالت : «أعني اني آنست من قطام تغيرا غريبا بعد ذهابك ، فانها لم تعد تذكر الانتقام وقضت اياما عديدة كأنها في حيرة او كأن امرا طرأ عليها لا تتكلم الا قليلا فعسى ان يكون ما غيرك قد غيرها . وعلى كل حال كن في راحة وسكينة وأنا أدبر الامر ، فلا تذكر انك جئت الي ولا انك رأيتني قبل رؤيتها » .

قال : «بارك الله فيك . والله ان قضيت لي هذه المهمة لا ادري كيف آكافئك . ولكنني اتقدم اليك ألا تذكري زيارتي هذه لاحد ولاسيما رفيقي عبدالله» .

قالت : «سمعا وطاعة فعليك اذن ان تأتي غدا لزيارتها في منزلها وأنا هناك ، ولا تزد علي السلام والكلام العادي . واحذر ان تذكر شيئا عما خضنا فيه الا اذا هي خاطبتك به .. وهل تنوي اصطحاب رفيقك غدا؟»

قال : «سيأتي معي ولا بأس من الخوض في الامر بين يديه لانه بمنزلة اخي» .

قالت : «فليكن ما تريد وفقنا الله لما فيه خيرك وراحتك» .

فازداد سعيد اعجابا بغيرتها وحنوها فقال لها : «اسمحي لي ان اقبل يدك فاني لما فقدت جدي الذي كان بمنزلة ابي حسبت نفسي يتيما ولكنني تحققت الان من حنوك اني ما زلت مرموقا بعين العناية . ها اني قد القيت الحمل على عاتقك فدبري الامر كما يلوح لك» . قال ذلك وقبل يدها مرارا ونهض ونهضت لوداعه وهي تقول له : «نم هنيئا وموعدنا في اللقاء غدا في بيت قطام» .

خرج سعيد من عندها وقلبه يطفح سرورا لنجاته من شر عظيم . ولم يدر ما بيتته له تلك العجوز من اساليب الخداع . فلما توارى عنها عادت الى غرفتها وأعملت فكرتها الخبيثة في حيلة تنطلي عليه بحيث يصدق عدول قطام عن عزمها . ولولا خوفها من ان يشي بها وبقطام الى علي اذا انكرت عليه وصية جده لجاهرت بمقاومته ، ولكنها رأت من الفطنة والدهاء ان تجاريه في رأيه ، وتحمل قطام على مشاركتها في ذلك ، ثم تحتالا في بقاء المؤامرة مكتومة حتى ينفذ المتآمرون عهدهم فيقتل علي. وما درت لبابة ان قطام أشد دهاء منها وأعظم حيلة وانها ستزيد على ذلك وسيلة اخرى للفتك بسعيد على اهون سبيل .

ولم تعد لبابة تستطيع رقادا قبل اطلاع قطام على الامر ليهيئا الحيلة قبل مجيء سعيد فنهضت لساعتها وسارت الى بيت قطام .

- ٦ -

لقاء قطام

اما سعيد فخرج والفرح ملء فؤاده حتى اتى منزله فرأى رفيقه نائما لفرط تعبه فسر لذلك سرورا عظيما . ومضى الى فراشه ولكنه لم يستطع رقادا لشدة تأثره ، فقضى ساعات يتقلب على الفراش وقد طال ليله وهو يفكر في ساعة اللقاء غدا ولا يصدق ان يلقى قطام على مثل رأيه . فلما تصور عدولها عن قتل علي كاد يطير من الفرح بما سيناله من الاقتران بها ثم يعترضه كلام جده وما كلفه به من السعي في الدفاع عن

علي وردع الساعي في قتله فيختلج قلبه في صدره لهول ذلك الامر .
على ان هذا الامر لم يكن شيئا بالنظر الى ما يتوقعه من السعادة بالحصول على قطام .

ولم تغمض عيناه حتى الصباح ، ولم يكد ينام حتى أفاق مذعورا وقد رأى شعاع الشمس يسطع على جدار غرفته فأسف لابطائه في الفراش والوقت ثمين ، فنهض لساعته وخرج يبحث عن عبدالله فاذا هو قد لبس ووقف يصلي فصلى معه وهو لا يفقه ما يقول .

فلما فرغ من الصلاة قال له عبدالله : «لقد ابطأت في رقادك يا اخا أميـة » .

قال : «انما ابطأت لهول ما لقيناه من التعب في الطريق» .

فصدقه عبدالله وجلسا لتناول الطعام وسعيد غارق في تصوراته وقد ادرك عبدالله ذلك فيه ولكنه حسبه من قبيل الشوق الى قطام فقال له: «ألا تنوي الذهاب الى قطام ؟»

قال : «بلى ارى ان نسير اليها لعل الله يأخذ بيدنا ونرى منهـا انصياعا للحق فتعدل عن عهدها» .

فأراد عبدالله ان يختبر ثباته فقال : «هب انها لم تقبل فماذا تفعل . هل تبقى على عزمك ام ترجع عما أوصاك به جدك ؟»

قال سعيد : «اننا نبذل جهدنا في اقناعها فاذا لم تقتنع ظللنا علـى عزمنا فان وصية جدي مقدسة» .

فسر عبدالله لثباته على عزمه وهو لا يعلم انه لم يفعل ذلك الا بعد ما أملته به لبابة من اقناع قطام ، ولولا ذلك لتردد في الجواب كثيرا وربما آثر البقاء على عهد قطام على احترام وصية جده . لان غرامه بتلك الغانية الفتانة غلب على كل عواطفه .

فلما رأى عبدالله عزمه استعجله في الذهاب الى قطام مخافة ان يطرأ

عليه ما يضعف عزيمته . وكان عبدالله أسر في نفسه اذا أنس فيه ترددا ان يثنيه عن الذهاب اليها . فلما فرغا من الطعام نهضا ومشيا يقصدان بيت قطام .

ولم يكن بال سعيد خاليا من القلق.ولكنه اطمأن الى ما منته به لبابة من الوعود .

ووصلا الى المنزل ودخلا الحديقة فاختلج قلب سعيد اذ عادت اليه ذكرى لقياه قطام هناك وما تبادلاه من آيات الغرام . وفيما هما سائران بين النخيل رأيا لبابة بالباب تبتسم . فلما رآها سعيد استبشر وتشدد فمشى ورفيقه وراءه حتى دنوا منها فحياها سعيد كأنه لم يكن قد رآها بعد رجوعه . فردت تحيته وسلمت على رفيقه ، فدخلا حتى اقبلا على قطام فاذا هي واقفة الى نافذة تطل على البحيرة وقد لبست جلبابا اسود فوقه خمار اسود فلما رأتهما ارخت خمارها وأقبلت نحوهما ، فحياهـا سعيد وذكر اسم رفيقه لها وقال : «لقد اتيت ومعي صديقي وأخي عبدالله فانه انيسي ومساعدي» .

فرحبت بهما ودعتهما للجلوس فجلسا وكلهم سكوت ، وبدأت العجوز بالكلام فقالت : «لقد اوحشتنا يا سعيد بطول غيابك وقد اخبرنا ريحان انك اتيتنا يوم سفرك فلم تر قطام فشغلنا عليك لسرعة ذهابك فعسى ان يكون الباعث خيرا ؟»

فتنهد سعيد وقال : «كلا انه لم يكن خيرا يا خالة لاني ذهبت الى جدي ابي رحاب في مكة فقد ارسل اخي هذا عبدالله يدعوني اليه» .

قالت : «وماذا عسى ان يكون سبب استدعائك ؟»

قال : «دعاني لأراه بعد ان هرم وغلبه الضعف والمرض على امره ، فلما تحقق دنو أجله اراد ان يراني قبل موته فسرت ولم امكث الا ليلة حتى قضى نحبه» .

فتظاهرت قطام باستغراب الخبر كأنها لم تسمعه من قبل وقالت : «هل مات جدك ؟.. رحمة الله عليه وعزاك الله وأبقاك» . وتنهـــدت كأنها تذكرت من فقدتهم وقالت : «ان موت الاهل شديد الوطأة» .

وكان عبد الله يراقب حركات قطام ، وكان قد سمع بجمالها فلم يلم سعيدا على افتتانه بها وخاف ان تصر على عهدها فتخرج من نصيب سعيد، فأحب ان يطرق الموضوع ليرى ما يبدو منها ولكنه رأى انه لم يسبق له ان عرفها فقد تتجنب الخوض في الامر ، فنهض وخرج وخرجت لبابة في اثره تماما لحيلتها .

* * *

فلما خلت قطام بسعيد سألته : «من هـــذا الشاب . وهل هو ممن يوثق بهم ؟»

قال بنغمة المحب المفتون : «انه رفيق صباي وموضع اسراري ولا اخشى بأسا من اطلاعه على كل شيء» .

قالت : «وهل اطلعته على عهدنا ؟»

قال : «نعم يا حبيبتي وهل ترين ما يمنع ذلك ؟»

قالت : «كلا ، لا ارى مانعا ولكنني كنت أوثر ان لا تطلعه الخاطــر خطر لي بعد ذهابك الى مكة» .

فاستبشر سعيد بهذا الاستهلال فقال : «وما الذي خطر لك ؟»

قالت : «سأقصه عليك وآمل ان تطاوعني عليه ولا تطالبني بما سبق بيننا من العهود» .

قال : «قولي ما تشائين . فمشيئتك هي العهد الذي يقيدني . فاني رهين اشارتك» .

قالت : «أتذكر لما جئت الينا يوم سفرك ولم تجدني في البيت ؟»

قال : «كيف لا أذكر ذلك وقد كان له عندي أثر شديد» .

قالت : «أتدري اين ذهبت يومئذ ؟»

قال : «كلا» .

قالت : «خرجت في ذلك اليوم الى اهلي ولم يكن غرضي الزيارة وحسب ولكنني شعرت بقلق واضطراب ولم أذق رقادا تلك الليلة التي عاهدتك فيها على قتل امير المؤمنين . فلما اصبحت قلت في نفسي لعل سبب هذا القلق اني ارتكبت ذنبا بما سعيت فيه ظلما لقتل الامام . فلاح لي ان امضي الى اهلي وأبحث وأدقق عن حقيقة ما وقع ، فعلمت بعد البحث ان الذنب في قتل ابي وأخي لم يكن ذنبه هو . وتحققت انه بريء ، وانه نصح لهما مرارا قبل الوقعة بأن يرجعا فأبيا ، ولما احتدم النزال وعلم انهما في خطر اوصى بألا يصيبهما احد بسوء . ولكن بعض الاغرار قتلهما وهو لا يدري ، فلما علم غضب على القاتل وانتقم منه . فشعرت عندئذ اني قد اخطأت بما نويته واعتزمت ان أحولك عما تعاهدنا عليه . فقضيت مدة غيابك وأنا في حيرة لا ادري كيف أبدأ باقناعك . وحفظت ذلك سرا كتمته حتى عن خالتي لبابة» .

ولم يتمالك سعيد عند سماعه ذلك عن النهوض فجأة ونادى عبدالله ولبابة فجاءا ، فالتفت سعيد الى عبدالله وقال له : «تعال اسمع يا اخي ما أعده الله لنا من اسباب السعادة . فاننا لم نكلف انفسنا عناء اقناع قطام . بل هذه هي تريدنا ان ننسى العهد الذي رويت لك خبره ونقلع عما عزمنا عليه» .

فتجاهلت قطام قوله وقالت : «ماذا تقول يا سعيد وما الذي جئتنا به عساه ان يكون خيرا» .

فعرضت لبابة للكلام وقالت : «يلوح لي انك جئتها بمثل ما جاءتك هي به» .

قال : «نعم يا خالة وأحمد الله على ذلك فاني جئت من مكة مقتنعا ببراءة الامام علي وأخذت على نفسي عهدا امام جدي ألا أمس عليـــا بسوء ، وكنت اخشى ألا توافقني قطام عليه فأصبـــح اشقى الناس . فالحمد لله اذ قضى بما فيه خيرنا جميعا» . وجلس يقص عليهم حديث جده وما أوصاه به فظهرت امارات البشر والسرور على الجميع . ثـم استطرد الى حديث المؤامرة فلما ذكر ان احد المتآمرين آل على نفســه ليقتلن الامام عليا تظاهرت قطام بالغضب وقالت : «ألم تعرف من هـــو الرجل ؟ »

قال : «لم أعرفه ولكننـــــي علمت من سياق الحديث انه مـــن فسطاط مصر» .

قالت : «اما وقد علمت بعزم هذا الرجل فقد اصبح السكوت عنــه مشاركة له في القتل ، فلا بد من ردعه او قتله» .

فابتسم سعيد لذلك الاتفاق الغريب وقال : «وقد فاتني ان أذكر ان جدي اوصاني بأن اسعى في دفع السوء عن علي» .

فقالت : «وهذا ما اراه انا ايضا لان السكوت عنه جريمة ، ولكني ارى ان يبقى امر هذه المؤامرة سرا لا نطلع عليه احدا لئلا يسبقنا الى نيل الفخر برده ، وحتى لا يتسرب الخبر الى المتآمر فيستعجل امره ويقتل عليا ونحن لم نعرفه بعد ولم نبدأ سعينا لاحباط عمله . ألا ترى هـــذا الرأي يا عبدالله ؟»

فدهش عبدالله من توارد الخواطر ، فلو علم بزيارة سعيد للبابـة لانكشف له سر الحياد ولكنه اخذ الامر على ظاهره فقال : «هذا هـــو الرأي الصواب ، وها أنذا شارع مع اخي سعيد في السعي لردع ذلك الرجـــل » .

قالت : «وماذا تنويان عمله ؟»

قال سعيد : «ارى ان نذهب الى الفسطاط ونبحث عن الرجل فاذا عرفناه هان علينا ردعه» .

فقالت قطام : «وما الفائدة من ذهابكما وأنتما لا تعرفان الرجل ولا تعلمان شيئا من امره وكيف يتأتى لكما معرفة اسمه . هل ذهبتما الى الفسطاط قبل الان وهل تعرفان احدا هناك ؟»

قال عبدالله : «اني أعرف الفسطاط ولكنني لم اقم بها طويـــلا ولا أعرف احدا من اهلها ولكننا نبذل جهدنا» .

- ٧ -

الاجتماعات السرية

فتقدمت لبابة والاهتمام باد عليها وكأنه قد فتح عليها برأي سديـــد فقالت : «اجلسوا وسأهديكم الى طريق يهون عليكم كل صعب» .

فجلسوا جميعا فقالت :«لا تسخروا برأي عجوز مثلي فاني اعرف من الاسرار ما لا تعرفون . اعلموا ان في مصر من مريدي الامام علي احزابا جمة اذعنوا لعمرو بن العاص مكرهين ، وهم صابرون على مـــا اصابهم في مقتل ابن ابي بكر ، وهم ينـــــوون الانتقاض اذا أتيحت الفرصة لذلك» .

فقال عبدالله : «هذا ما تفاخريننا بمعرفته ؟ انه لا يجهله احد من المسلمين ؛ واني لأعلم ما هو اكثر منه» .

قالت : «وما الذي تعلمه ؟»

فابتسم عبدالله مستخفا وقال : «هناك أمور كثيرة علمتها من جدنا ابي رحاب رحمه الله ، وقد اوصاني بألا أطلع عليها احدا» .

فتوقعت لبابة انتطلع علي على ما ورائي على سر، وهي لم تقل ما قالته الا استدراجا له ، فهزت كتفها والتفتت الى قطام التفاتة ذات معنى ، ففهمت قطام مرادها .

فابتدرت عبد الله قائلة في دلال : «اذا كنت قد وقعت على سر فاحفظه ولا تبح به لاحد من الخوارج مثلنا» .

فخجل عبدالله من توبيخها اللطيف ، ونظر الى سعيد فرآه ينظر اليه كأنه يتوقع منه ان يفشي السر لئلا تسيء قطام الظن بهما ، فقال معتذرا: «حاش يا مولاتي . اني لا أعني كتمان السر عنك بعد ان رأيناك مثلنا حماسة للدفاع عن امير المؤمنين بل لقد كنت انت الداعية الى الدفاع عنه. ولكنني قلت ما قلته عفوا ، ولكي تثقي من حسن نيتي سأبسط السر لك ولخالتي لبابة» . قال ذلك والتفت يمنة ويسرة كأنه يحاذر ان يسمعه رقيب ، او عدو ، فلما اصغى الجميع قال : «علمت من جدي رحمه الله ان في الفسطاط جمهورا كبيرا لا يزالون على دعوة الامام علي ، وهم متحدون قلبا وقالبا في القيام بنصرته ، ولهم اجتماعات سرية يعقدونها للمفاوضة في الوسائل المؤدية الى ذلك» . ولما بلغ الى هذا الحد تلعثم لسانه كأن شيئا أوقفه عن اتمام الحديث ، وارتبك وظهرت عليه البغتة ، كأنما ندم على ما فرط منه وعول على الامساك عن تتمة الحديث . فأدركت لبابة المحتالة سبب توقفه فابتدرته قائلة وهي تضحك : «انعم به من سر عميق لم يطلع عليه احد ، اني لا اراك زدت على قولي حرفا واحدا . ألم اقل ان دعاة علي باقون على دعوته، فماذا زدت انت على ذلك الا انهم يجتمعون سرا ؟ أم تراك ندمت على ثقتك بنا فبدأت بالحديث ثم قطعته؟. وعلى كل حال لست ألومك على ذلك فانك لا تعرفنا قبل هذه الساعة» .

فقطعت قطام حديثها قائلة : «أتقولين انك لا تلومينه بينما اراك عاتبة عليه ؟» دعيه لئلا يظننا راغبين في استطلاع سره لغرض لنا ولحن انما نريد بعض ما يريده عبدالله فلا حاجة لنا في سره ، ولكننا نوصيه بأن يقوم بمؤازرة سعيد فيما اوصاه به جده ، وهذا يكفينا» . ثم وجهت كلامها الى سعيد قائلة : «لقد سرني من رفيقك محافظته على السر حتى عن هذه الحقيرة التي بعد ان كانت اول الناقمين على علي اصبحت من اكبر المدافعين عنه ، وهب انه اراد افشاء ذلك السر فما نحن سامعون ما يقول ، اذ ربما وسوس لنا الشيطان فبحنا به للاعداء» .

فوقع كلام قطام في قلب سعيد موقع السهام ، وغلب عليه الحياء والتفت الى عبدالله وقال : «لا طاقة لي باحتمال هذا التأنيب يا عبدالله ، قل ما تعلمه سواء أسمعته قطام ام لم تسمعه ، ولن ابزح هذا المكان قبل ان اسمع بقية الحديث» .

فندم عبدالله على ما فرط منه واصبح لا يدري كيف يتخلص من حيائه وارتباكه . ولما رأى الحاج سعيد هان عليه التصريح بما يعرفه ولم ير في ذلك اوما عليه فقال : «اراكم تتهموني بذنب انا براء منه . فاني لم اتوقف عن اتمام الحديث ضنا به على قطام بعد ان تحققت اخلاصها في الدفاع عن علي . ولكنني صبرت ريثما أستجمع كلام جدي بحرفه ، فاذا اذنت قطام تلوته عليكم حالا» .

قال سعيد : «قل ما علمته . واذا سدت قطام أذنيها عن سماعه فأنا اسمعه» .

قال عبدالله : «اخبرني ابو رحاب رحمه الله ان دعاة الامام علي يجتمعون سرا في معبد قديم خارج الفسطاط في مكان يعرف بعين شمس ، وهم يتفاوضون فيه سرا في يوم الجمعة من كل اسبوع» .

فسرت قطام ولبابة بالاطلاع على ذلك السر . ولكن لبابة لدهائها

ومكرها تظاهرت بالاستخفاف والانكار وقالت : «أهذا هو السر العظيم ؟ انه باطل لا يقبله العقل !»

فاغتاظ عبدالله من استخفافها وقال : «وما الدليل على بطلانه يـــا خالة ؟ »

قالت : «تقول ان دعاة علي يجتمعون هناك كل يوم جمعة ونحن نعلم انهم يعدون بالالوف فكيف يسعهم ذلك المعبد ؟» وهب انه وسعهـــم فكيف يجتمع الالوف منهم كل اسبوع ولا يدري بهم عمرو بن العاص وعيونه مبثوثة في اطراف الفسطاط . فهل ذلك معقول ؟»

فسر عبدالله لاستخفافها بكلامه وحسب افشاءه السر غير ذي اثر . وود الوقوف عند هذا الحد ، فلم يرض سعيد بذلك بل اخذ على نفسه تفسير مقاله وهو يحسب انه اتى جديدا فقال : «ان عبدالله لا يعنـــي باجتماع دعاة علي انهم يجتمعون جميعا كبارا وصغارا ولكنه يريد ان رؤساء العشائر وكبارهم هم الذين يجتمعون فقط» . فضحكت ابابـــة وهمت بالرد عليه . فقطعت قطام كلامها قائلة : «يظهر يا خالة انك انمـــا تريدين المزاح ، فقد طلبت من عبدالله افشاء سره ثم جعلت تجادلينه . ونحن لا يهمنا من الامر الا الوصول الى الغاية المرجوة . وهذا يكفي» .

* * *

ثم وجهت كلامها الى سعيد قائلة : «دع لبابة وتخريفها واسع فيما انت ساع فيه . سر الى دعاة علي حيث هم مجتمعون وهم يعينونك على البحث والتنقيب . ولا أوصيك الا وصية واحدة ذكرتها في بدء الحديث وهي ان تبقي هذا الامر مكتوما فيما بيننا عن كل انسان ، حتى نعرف الخائن الذي يريد قتل الامام علي ، فاذا عرفناه فاما ان نرجمه عن غيه او نرى رأينا فيه على ما تقتضيه الحال . اما اذا أشعنا خبره الان فانه يبالغ

في التستر ، وربما أسرع في انفاذ سهمه فيقتل امير المؤمنين غيلة ويذهب سعينا عبثا . اما الان فنحن على يقين من انه لا يقدم على ذلك الا في ١٧ رمضان ، ونحن لا نزال بعيدين عنه . وزد على ذلك انك اذا حفظت هذا الامر مكتوما وتفردت في البحث عنه كان الجزاء عظيما . ولا ارى فائدة من اطالة البحث . ولكي تتحقق من شدة رغبتي في الاسراع ، أبدل عهدي ابدالا يسرك فبدلا من ان يكون اقتراننا موقوفا على قتل الامام علي فقد جعلته وقفا على انقاذه من القتل ، فاذا كنت تحبني ، وهذا ما لا أشك فيه ، فبادر الى العمل ، وهذان عبدالله ولبابة شاهدان على ما اقول » .

وكان سعيد بعد ان تغير وجه المسالة يرجو ان يقترن بقطام قبل ذهابه في هذه المهمة . فلما سمع كلامها خجل من مراجعتها لئلا يقال انها أشد رغبة منه في الدفاع عن علي ، فانطلت الحيلة عليه ولم يسعه الا اجابتها فقال : «وهذا ما اطلبه انا ايضا لكي يتم عقد الزواج على يد الامام نفسه بحول الله» .

وكان عبدالله يسمع هذا الحديث وقد خامره شك في كلام قطام ، وندم لتسرعه في افشاء السر فظل صامتا لئلا يقع فيما يزيد ندمه ، وشعر لساعته بما أتيته تلك الفتاة من الدهاء . ولم ير خيرا من اظهار ثقته بها فأخذ يطري غيرتها ويثني على صدق مودتها فقال لها : «اني أعد اخي سعيدا من أسعد خلق الله لتوفيقه الى مثلك ، واني ادعو الله تعالى ان ينجح مقاصدنا» ، وسكت هنيهة ثم قال : «وقد أصبت في حرصك على كتمان الامر عن كل انسان ، بارك الله فيك» . والتفت الى لبابة فقال: «وأنت يا خالة نرجو ان تزودينا دائما بدعواتك الصالحة وآرائك الصائبة » .

فقالت لبابة : «اما الرأي ففي الاسراع في الامر ، فعليكما بالسفر

حالا الى مصر ، وأطلب الى الله تعالى ان يوفقكما ويسهل طريقكما ، واذا اتيتما الفسطاط فاطلبا عين شمس في يوم الجمعة ، ولن تعدما من انصار امير المؤمنين من يرشدكما الى الباغي» •

وقضوا برهة في احاديث اخرى ، ثم انصرف عبدالله وسعيد ، وفي نفس اولهما شكوك لم يجسر على مكاشفة سعيد بها ، لما آنسه من اخلاصه لقطام وارتياحه الى وعودها ، ولكنه عول على انتهاز فرصة يستطيع بها التسلط على افكاره •

* * *

ولما خلت لبابة الى قطام بعد خروج سعيد وعبدالله قالت لها : «لقد تمت لنا كل المعدات وآن يوم الانتقام على يد غير هذا الجبان وان عليا سيقتل لا محالة ولقد احسنت بتطمينه ومسايرته • وأحسن ما رأيته من دهائك توصيته بالكتمان لانه لو اطلع عليا على خبر المؤامرة لفشل اصحابها ونجا علي من الموت» •

فأجابت قطام قائلة : «ولكن ذلك وحده لا يضمن لنا الفوز ، وأنا لم ألتمس منه الكتمان لهذا الغرض فقط ، ولكني اردت ان يبقى خبر المؤامرة مكتوما عن كل انسان لغرض اخر» •

قالت : «وما ذلك فاني لم أفهم مرادك ؟»

قالت : «أتكونين لبابة العجوز الماكرة ويخفى عليك مغزى كلامي؟ ما الفائدة اذن من البحث عن مجتمع أنصار علي ؟»

قالت : «اني ما زلت أجهل ما تريدينه ، فما مرادك ؟»

قالت : «مرادي ان أبعث الى عمرو بن العاص بخبر تلك الجمعية ويوم اجتماعها ، ليقبض على رجالها ، وسيكون سعيد وعبدالله بينهم ، فاما ان يقتلهما او يسجنهما ، فاذا قتلهما ظل امر المؤامرة مكتوما عن كل انسان،

واذا سجنهما ظلا في السجن الى ما بعد ١٧ رمضان على الاقل فيكون قد نفذ السهم وانتقمت لابي وأخي ، ولا يهمني بعد ذلك امر» .

فلما سمعت لبابة كلام قطام همت بها وقبلتها وهي تقول : «بورك فيك يا بنية والله انك أبعد مني نظرا وأشد دهاء ، واذا احياك الله الي سني فان ابليس نفسه لن يقوى على مكرك !» . قالت ذلك وضحكت . وظلت قطام عابسة لم تعبأ بضحكها ولكنها نادت ريحان خادمها فحضر وكان جالسا في مكان بحيث يسمع ويرى ولا يراه احد ، فلما وقف بين يديها قالت له : «ألم يقتل سيداك ظلما ؟»

قال : «كيف لا ، واني مطالب بدمهما ؟»

قالت : «أتدري لماذا دعوتك ؟»

قال : «احسبك دعوتني لتبعثي بي الى عمرو بن العاص في الفسطاط لاخبره بأمر مجامع العلويين» .

قالت : «نعم اني دعوتك لمثل هذا ، بورك في سوادك . هذا وقت الحاجة اليك . ولكن لا تذكر اسمي لعمرو ، انا واثقة بفطنتك فلا تخيب املي . اذهب الى مصر ابلغ الرسالة ، وجئني بمقتل هذين او سجنهما وأنت حر لوجه الله» .

فقطب ريحان حاجبيه وأجاب كأنه يعاتبها : «ألا تعلمين يا مولاتي انك تهينينني بهذا الكلام من حيث تريدين سروري . أتظنينني أوثر الحرية على الاستعباد لك . لقد قلت قولا فاسمحي لي ان اقول مثله . انني ذاهب لانفاذ مرامك فاذا انا فزت فيه رجوت ان تعديني بألا تذكري حريتي ابدا» .

فضحكت قطام وأظهرت الاعجاب بشهامة ريحان وقالت : «سر يا اسود . انك والله خير من الف ابيض» .

امام الفسطاط

الفسطاط مدينة عمرو بن العاص في مصر بناها سنة ٢٠ للهجرة بعد فتحه الاسكندرية • وسبب تسميتها بالفسطاط (الخيمة) انه لما فتح حصن بابل حيث دير مار جرجس الان او دير النصارى بقرب مصر القديمة واستقر الصلح بينه وبين المقوقس ، نهض لفتح الاسكندرية وكانت خيامه منصوبة خارج الدير بين النيل وجبل المقطم ، فأمر بتقويضها للرحيل فجاءه منبىء بأن في فسطاطه يماما معششا وتحته صغاره لا تستطيع الطيران ، فقال عمرو : «لقد احتمت بجوارنا فأقروا الفسطاط حتى تطير فراخها» • فتركوا الفسطاط منصوبا حتى عادوا بعد فتح الاسكندرية فابتنوا الدور حوله • ولما اكملوا عمارة المدينة اطلق عليها اسم الفسطاط ، وهي اول مدينة بناها المسلمون في مصر واتخذوها عاصمة ملكهم ، حتى بنيت القاهرة في القرن الرابع للهجرة فنقلت الحكومة اليها •

وكانت الفسطاط في العام الاربعين للهجرة ، وهو العام الذي جاءها فيه سعيد ورفيقه عبد الله ، قد عمرت وأقامت بها القبائل والافخاذ في خطط وحارات بنيت لهم • وكانت مستطيلة الشكل على ضفة النيل الشرقية طولها ميلان فيما يقرب من مصر العتيقة الان • وأما مكان مصر العتيقة فقد كان يومئذ مجرى النيل ، وكان اذا جرى رست سفنه بباب دير النصارى حيث كنيسة المعلقة اليوم ، فكل ما بين الدير والنيل من اليبس وما أقيم عليه من البناء انما حدث بعد ذلك •

وكان جامع عمرو الباقية آثاره الى اليوم مركز تلك المدينة ، وحوله

أنشئت الخطط والازقة • وكان اقربها الى الجامع المذكور دار عمرو ، او هما داران : الدار الكبرى والدار الصغرى ، وكان المسلمون اولا ينزلون في الخيام فلما بنى عمرو داريه اهتم الناس ببناء المنازل • ولم يكن قبل الفسطاط هناك الا بعض الاديار للقبط متفرقة بين النيل والمقطم • وبنوا الخطط او الطرق على اسماء القبائل التي تألفت منها حملة ابن العاص في ذلك الحين ومن نزح بعدهم ، وأوجههم جميعا اهل الراية من قريش والانصار وخزيمة وغيرهم ، فبنوا لهم خطة سموها خطة اهل الراية ، ثم خطة مهرة ، وخطط لخم واللفيف والصدف من كندة وخولان ، فضلا عن خطط غير العرب مثل خطة الفارسيين الذين حضروا الفتح وأصلهم من بقايا جند (باذان) عامل كسرى على اليمن قبل الاسلام ، أسلموا في الشام ، وكانت هناك خطط اخرى لا تحصى فضلا عن الطرق والازقة والحارات •

فنرى مما تقدم انه لم يكن يقيم بالفسطاط في اول امرها غير المسلمين وأما المسيحيون واليهود ممن كانوا هناك قبل الفتح فمن آثر البقاء برعاية المسلمين اقام في الاديار خارج الفسطاط ؛ وأكبرها دير النصارى (دير مار جرجس) وهو الحصن الذي حوصر فيه المقوقس ورجاله لما جاءهم المسلمون ، وكان يسمى حصن بابل او قصر الشمع • وربما اقام بعض القبط او اليهود في الفسطاط لتجارة او صناعة او كتابة : لان عمرا عهد الى القبط اول الامر في اعمال حكومته وأبقى الدواوين تكتب بالقبطية ، وبقيت كذلك الى امارة عبدالله بن عبد الملك بن مروان فأبدلت بها العربية •

وكانت مدينة عين شمس (المطرية) شمالي الفسطاط خربة لم يبق من ابنيتها الشامخة ومعالمها الرفيعة الا بعض الجدران الغليظة او الاعمدة الضخمة والمسلات من بقايا الهياكل الفرعونية وهي مهجورة لا يقيم بها

احد فاذا احتاج الناس الى حجارة او اعمدة يبنون بهـا دارا كبيرة او جامعا حملوها من أنقاضها .

* * *

وقد تركنا سعيدا وعبد الله وهما يتأهبان للرحيل في ذلك اليوم ، فأصبحا على راحلتيهما وخرجا من الكوفة يلتمسان الفسطاط ، وهما لا يعلمان ما أعدته لهما قطام من المكائد . وسارا يواصلان الليل بالنهـار حتى اقبلا في فجر يوم جمعة على الفسطاط ، فأطلا عليها من سفح المقطم فاذا هي ممتدة على ضفة النيل على مسافة طويلة وراءها يجري النيل وفيه السفن راسية تحمل الغلال والاحمال ، بعضها قادم من الصعيد والبعض الاخر صاعد من الشمال . وفي وسط المدينة جامع عمرو وحوله الابنية والدور ، فوقفا هنيهة يدبران الخطة التي يجب ان يسيرا عليها للقيـام بمهمتهما .

فقال عبدالله : «ها نحن اولاء امام الفسطاط وقد طلع فجر الجمعة الذي يجتمع فيه دعاة امير المؤمنين في عين شمس على ما نعلم . فهل نظل هنا برهة ثم نسير توا الى عين شمس ؟»

فقال سعيد : «لا داعي الى بقائنا هنا ، وقد يكون في بقائنا مظنة سوء ونحن على ما يعلم الناس من دعاة معاوية . وزد على ذلك اننا لا ندري متى يعقد ذلك الاجتماع : أفي الصباح ام في المساء ؟ ام فـي وقت بينهما» .

قال عبدالله : «لست على يقين من ساعة الاجتماع ، ولكنني أظنهم يجتمعون بعد صلاة العصر الى المساء على اني لا ارى بأسا من النزول الى الفسطاط حيث نصلي الصبح ونضع دوابنا في مأوى تستريح فيه ، ثم أخرج انا للبحث عن ساعة الاجتماع ومكانه وأعود اليك فنذهب معا» .

قال سعيد : «هذا هو الصواب» .

ونزلا بناقتيهما حتى دخلا المدينة وهي ساعتئذ آهلة بالناس وقد أذن المؤذنون يدعون الناس الى صلاة الصبح فأتيا المسجد وأمامه ساحة كبرى تقف فيها الدواب تشد الى أوتاد او نخيل . فربطا الراحلتين ودخلا المسجد للصلاة وكانت الشمس قد اضحت وتقاطر المسلمون أفواجا فدخلا في جملة الداخلين .

* * *

ولم يكد يستقر بهما الجلوس حتى رأيا الناس في حركة وجلبة وقد فتح باب في بعض جوانب المسجد دخل منه رجال في أيديهم السياط يزجرون الناس . فقال سعيد : «من هؤلاء ؟» . قال عبدالله : «انهم الشرطة يفسحون الطريق للامير» . ولم يكد عبدالله يتم كلامه حتى دخل رجل ربعة قصير القامة وافر الهامة ادعج أبلج عليه ثياب موشاة كأنها العقيان تأتاق عليه حلة وعمامة وجبة ، فعرفا انه عمرو بن العاص . وصعد المنبر والناس ينظرون فحمد الله وصلى على النبي (صلعم) ووعظ الناس وأمرهم ونهاهم ، وجعل يحضهم على الزكاة وصلة الارحام ، ويأمر بالتوفير وينهي عن الفضول ، وكثرة العيال وأفاض المقال في ذلك الى ان قال : «يا معشر الناس ،اياكم وحلالا اربعا فانها تدعو الى النصب بعد الراحة والى الضيق بعد السعة والى الذلة بعد العزة . اياكم وكثرة العيال، واخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقيل بعد القال في غير درك ولا نوال، ثم انه لا بد من فراغ يؤول اليه المرء في توديع جسمه والتدبير لشأنه وتخليته بين نفسه وبين شهواتها ، ومن صار الى ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الاقل ، ولا يضيع المرء في فراغه نصيب العلم من نفسه ، فيحور من الخير عاطلا وعن حلال الله وحرامه غافلا . يا معشر الناس انه تدلت

الجوراء ، وذلت الشعري ؛ وأقلعت السماء وارتفع الوباء ، وقل الندي وطاب المرعى ؛ ووضعت الحوامل ، ودرجت السخائل ، وعلى الراعـــي لرعيته حسن النظر ، فحي لكم على بركة الله تعالى الى ريفكم فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده ؛ واربعوا خيلكم وأسمنوها وصونوهـــا وأكرموها فانها جنتكم من عدوكم وبها مغانمكم وأنفالكم ، وأستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا ، واياكم والمومسات والمعسولات فانهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم . حدثني عمر امير المؤمنين انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ان الله سيفتح عليكم بعـــدي مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فان لهم فيكم صهرا وذمة) . فكفوا أيديكم . وعفوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم . ولا أعلمن ان رجلا اسمن جسمه وأهزل فرسه . واعلموا اني معترض الخيل كاعتراض الرجال . فمن اهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك . واعلموا انكم في رباط الى يوم القيامة لكثرة الاعداء حولكم ، وتشوف قلوبهم اليكم والـى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية . وحدثني عمر امير المؤمنين انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا فذلك الجند خير اجناد الارض) . فقال له ابو بكر رضي الله عنه : (ولم يا رسول الله ؟) قال : (لانهـــم وأزواجهم في رباط الى يوم القيامة) . فاحمدوا الله معشر الناس على ما اولاكم . وتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم . فاذا يبس العود . وسخـــن الماء ، وكثر الذباب ، وحمض اللبن وصوح البقل وانقطع الورد مـــن الشجر فحي الى فسطاطكم على بركة الله . ولا يقدمن احد منكم ذو عيال الا ومعه تحفة لعبدالله على ما اطاق من سعته او عسرته . اقول قولي هذا وأستحفظ الله عليكم» .

وكان عمرو يخطب والناس يسمعون وقد خشعوا لما تكلمه من الاوامر

والنواهي والوصايا . فقال سعيد لعبد الله همسا : «والله انه لنعم الامير ، وشلت يد تقتله . اني والله منذره بذلك متى دنا الاجل المضروب» . فلم يجبه سعيد مخافة ان يلحظ احد شيئا مما هما فيه .

وخرج الناس بعد الصلاة ، وخرج عبد الله وسعيد ، واجتمعوا في ساحة المسجد خارجا ، وتعارفوا فعرف عبدالله رجلا من غفار كان له معه صداقة فدعاه سعيدا الى منزله ليقيما عنده فاعتذرا فألح عليهما فسارا معه لئلا يوجب ابتعادهما شبهة . فأنزلهما في منزل له في خطة اسمها خطة خارجة بن حذافة فأمر الغفاري عبدا له بتسلم الراحلتين والسير بهما الى المرابط ، ودخل بالضيفين الى غرفة لم يريا فيها نافذة الا كوة في اعلاها فعجبا ، وهم عبدالله بالاستفهام عن ذلك وأوقفه التأدب ، فلحظ الغفاري استغرابه فقال له : «لا تعجب لحال هذه الغرفة فان كذلك سائر ابنية الفسطاط » .

فقال عبد الله : «اني والله يا اخا غفار لفي عجب عجاب مما ارى فما الذي دعا الى هذه الاقفال ؟» . فقال الغفاري : «اعلما ان خارجة بن حذافة صاحب شرطة الأمير عمرو بن العاص هو اول من ابتنى غرفة في الفسطاط . فلما علم بذلك امير المؤمنين عمر بن الخطاب يومئذ كتب الى عمرو بن العاص يقول : (ادخل غرفة خارجة وانصب فيها سريرا وأقم عليه رجلا ليس بالطويل ولا بالقصير فان اطلع من كواها فاهدمها) . ففعل ذلك عمرو فلم يبلغ الكوى فأقرها فلم يجسر احد ان يبني غرفة بعد ذلك الا على هذا الوصف وهو اضمن للحجاب» .

ثم جاءهما الغفاري بالزاد فأكلا . وما لبثا حتى خرجا يطلبان الخلوة للنظر فيما جاءا من اجله ، ومشيا في المدينة يتظاهران بالتفرج على مشاهدها فقال سعيد : «اننا في وقت الظهر وما العمل ؟»

فقال عبدالله : «دعني أسر وحدي الى عين شمس فانها على بضعة

اميال من هنا حيث ترى الخرائب وأمامهـا هاتان المسلتان ، وسأبحث لاهتدي الى مكان الاجتماع فاذا عثرت عليه جئتك على عجل . فأين الملتقى ؟ » .

قال : «ابقى انا في المسجد حتى تعود الي واحذر ان تطيل غيابك» .

فسكت عبدالله ولبث برهة يفكر ثم قال : «اذا ابطأت في الرجوع اليك فاذهب الى عين شمس وانتظرني بقرب هاتين المسلتين القائمتين فأوافيك اليهما او أبعث من يدعوك الينا» .

فافترقا وقصد عبدالله الى عين شمس وقد جعل وجهته اليها المسلتين وكانتا ظاهرتين عن بعد . وعاد سعيد في الجامع .

وأقبل عبد الله على عين شمس فاذا هي مؤلفة من أطلال ليس فيها من الابنية الا الجدران والاعمدة ، فطاف بين خرائبها فلم ير احدا ولا سمع صوتا . وقضى في ذلك ساعتين يتردد بين تلك الجدران ثم يعود الى حيث بدأ فلم ير اثرا للآدميين ، فظن نفسه قد اخطأ المكان او اساء فهم ما بلغه من امر ذلك الاجتماع حتى كاد يهم بالرجوع وقد خاب ما أمله وخيل اليه ان دعاة علي ابدلوا بمجتمعهم هناك مكانا اخر .

فأسند ظهره الى الجدار ووقف يفكر فيما يفعله وقد مالت الشمس الى المغيب فرأى رجلا قادما من الفسطاط فتشاغل عبدالله بمشاهدة ما هو محفور على تلك الآثار من الرسوم الهيروغليفية كأنه يعجب لغريب صنعها . وكان الرجل يظهر تارة ويختفي تارة اخـــرى في مروره بين الاعمدة والخرائب وعبدالله يختلس النظر اليه . ثم نظر فاذا به قــد اختفى .

* * *

فعجب عبدالله لامره وقال في نفسه : «لا بد ان يكون الرجل من

اهل ذلك الاجتماع السري وقد نزل في نفق او نحوه» . فالتمس المكان الذي ظن انه اختفى فيه فوجد منحدرا يظهر لأول وهلة انه مسدود فنزل فيه وهو يخطو الهوينى حتى انتهى الى ظلمة دامسة فوقف وأصاخ بسمعه فسمع لغطا فاستبشر بالوصول الى المكان المطلوب ولكنه لم يكن يعرف مدخل تلك المغارة وخاف ان يراه القوم فيقتلوه .

فوقف برهة يتردد بين ان يسير متلمسا طريقه وبين ان يرجع ليأتي بسعيد . ثم بدا له ان يتحقق المجتمع اولا ثم يعود ، فخطا بضع خطوات وهو لا يرى شيئا امامه فلطم رأسه السقف ، فحنى ظهره وداهمه العطاس لرطوبة الهواء فعطس عطسة دوى لها المكان وما شعر الا قد ظهر نور ضعيف وتقدم بضعة رجال كلهم ملثمون وعليهم أردية سوداء تزيدهم رهبة فقبضوا عليه وهو لا يبدي حراكا ، ونزلوا به في الممر الى قاعة تحت الارض واسعة وكل جدرانها وسقفها مغطاة بنسيج اسود مما يجعل المنظر رهيبا ، ولولا شمعات مضيئة في بعض جوانب المكان لكانت الظلمة لا تطاق لكثافتها . ونظر عبد الله الى ما حوله فرأى في وسط القاعة دكة مغطاة بملاءة سوداء لم يدر ما تحتها ولكنه لم يستطع التأمل وقد أحدق به بضعة عشر رجلا التحفوا العباءات تحتها السيوف وكلهم ملثمون ، فخاطبه واحد منهم يسأله عما يريده .

فقال : «اني جئت أشارككم فيما انتم فيه» .

قال : «وما أدراك ما نحن فيه ؟»

قال : «علمت انكم تدعون الناس الى نصرة الامام علي . أليس ذلك ما تدعون اليه ؟»

قال : «وما شأنك في هذا ؟»

قال : «شأني هو شأنكم . لا تسيئوا الظن بي اني قادم من الكوفة لهذا الامر» .

فقال له رجل اخر : «كيف تكون أمويا وتدعي نصرة الامام علي ؟»

فخيل الى عبد الاله انه يستمع صوت صديقه الغفاري الذي اضافه في الصباح .

فقال : «ألست انت صديقي الغفاري . اصدقني ولا تخف اني والله جئتكم بخبر مهم اذا اشركتموني في امركم اطلعتكم عليه وتحققتم صدق قولي » .

فقال الغفاري : «اذا كنت صادقا فيما تقول تعال معي» . ومشى فتبعه الى الدكة في وسط القاعة ورفع عنها الملاءة السوداء فاذا هناك مصحف فوقه سيف مسلول وقال له : «ضع يدك على هذا السيف واقسم بالله العظيم انك حليف للامام علي تنصر نصيره وتحارب عدوه» .

فوضع عبد الله يده على المصحف والسيف معا ، وأقسم .

ثم قاده الرجل الى دكة اخرى رفع غطاءها وتناول قارورة فيها مسحوق اسود كأنه الكحل فقال عبدالله : «وما هذه ؟» قال : «هذه قارورة فيها بقية من رماد ابن ابي بكر الذي احرقتموه ظلما ، فاذا كنت تطلب الهداية ونصرة الحق فعليك ان تكتحل بهذا الرماد وتبكي ذلك القتيل المظلوم وتعاهدنا على الاخذ بثأره . فهل تقبل وتظل على قسمك؟»

قال : «اني معكم فيما تريدون وقد صدقتكم القول» .

فتقدم صاحبه ففتح القارورة وأدخل فيها شيئا علق عليه بعض الرماد فأعطاه الى عبد الله فاكتحل به فهاجت عيناه وانسكب الدمع على الرغم منه فشاركه الرفاق في البكاء .

ثم ازاح الغفاري لثامه وقال : «نعم اني صديقك كما قلت ، ولكن اعلم انك اذا كنت على غير ما تقول فاني عدوك أهدر دمك بحد هذا السيف . قل ما بدا لك» .

فلما اطمأن عبد الله تذكر سعيدا فقال : «ان لي رفيقا أريد ان

ادعوه ليشهد ما نحن فيه ويشاركنا في هذا الجهاد» .

فقال له الغفاري : «انك لا تبرح هذا المكان حتى خروجنا جميعا فقل ما تريد» .

فأطاع وقال : «لا تعجبوا لاني أموي . فقد اصاب صاحبي الغفاري، فقد كنت من أنصار معاوية وكنت مطالبا بدم عثمان . ولكن طرآ علي طارىء سأقص عليكم نبأه بعد ، اما الان فأقول اني قادم من الكوفة وقد علمت ان امير المؤمنين عليا بن ابي طالب قد جمع رجاله هناك فاجتمع له اربعون الف مقاتل ، وكلهم مستعدون للنزال وبذل النفس والمال في هذا السبيل» .

فقال الغفاري : «ان رجالنا يعدون بالآلاف وكلهم وكل ما ملكت أيديهم وقف على نصرة الامام ابن عم الرسول» .

وهم عبد الله باتمام الحديث فاعترضه احدهم قائلا : «عرفناك أمويا من ألد اعداء الامام ، فما الذي حملك على نصرته مجازفا بحياتك ؟»

فأخذ يقص عليهم حديث ابي رحاب ، ولم يكد يفوه بكلمتين حتى سمعوا وقع حوافر الخيل فوق رؤوسهم وقد ارتج المكان فوقهم فأنصتوا ووقع الرعب في قلوبهم . وخيل اليهم انها دسيسة من عبدالله ، فهموا بقتله ولكنهم ما لبثوا ان رأوا المشاعل منبعثة من مدخل الممر وقد انهالت الشرطة عليهم فأرادوا الدفاع عن انفسهم فلم يفلحوا ، وشد الشرطة وثاقهم وساقوهم في ظلام الليل الى الفسطاط .

- ٩ -

السجينة الامينة

مكث سعيد في الجامع حتى دنا الغروب ولم يعد عبدالله فحار في

امره هل يذهب الى عين شمس او ينتظر عـودة عبدالله • ثـــم غربت الشمس فلم ير بدا من المسير الى عين شمس كما أوعز اليه عبدالله • فخرج من الفسطاط وجعل المسلتين وجهته والظلام يكاد يحجبهما عنه فمشى وقد أوجس خيفة من ابطاء عبد الله ولم يعد يرى المسلتين الا اذا برزتا في الافق • ثم اختفتا ولم يعد يراهما وخاف ان يضل الطريق • وفيما هو في ذلك سمع دبيبا وقرقعة كأن جندا قادما وراءه فتنحى عن الطريق فاذا بكوكبة من الفرسان مرت به مسرعة نحو عين شمس فأوجس في نفسه خيفة • والتفت الى يمينه فرأى بيتا قائما في بستان • فبدا له ان يتوجه اليه يستفهم عن الطريق • فلما دنا منه سمع صوتا خارجا من بعض جوانب المنزل استوقف انتباهه فوقف وأصاخ بسمعه فسمع صوتا رخيما يمازجه بكاء ولم ير هناك نورا ولا رأى احدا في البستان . فقصد باب البيت فاذا هو موصد ووضح له صوت الباكي فأنصت فسمع صوت امرأة تبكي وتقول : «ألا تخاف الله يا ظالم ؟ أما كفاك ما وانأت عليه من قتل البريء حتى رميت ألوفا من الناس في خطر القتل الفظيع ؟ هل من ينبىء هؤلاء الابرياء بالوشاية بهم فينقذهم من الموت ؟»

فلما سمع سعيد تلك العبارات اقشعر بدنه ولم يعد يصبر علـــى استطلاع سبب ذلك البكاء • فقرع الباب قرعا خفيفا فانقطع الصـــوت بغتة . فصبر هنيهة وكرر القرع ويده ترتعش رهبة فلم يسمع شيئا ؛ فازداد شوقا الى استطلاع السر ، ولكنه خاف ان يقع في مكيدة وهو غريب هناك ؛ فلبث برهة والهواجس تتقاذفه وقد حدثته نفسه ان بين ما سمعه وبين ما يسعى في البحث عنه علاقة كبرى • وكان الفرسان الذين مروا به قد بعدوا عنه ولم يعد يسمع من وقع حوافر أفراسهم غـــير الدوي البعيد • فأيقن انهم في طريقهم الى عين شمس ولم يفهم سبب ذهابهم اليها في ذلك الليل • وبعد التأمل فيما سمعه ورآه ايقن ان في

الامر سرا يهمه الاطلاع عليه •

فهز الباب بيده هزا عنيفا كأنه يفتحه بالعنف فلم ينفتح ولم يعد يستطيع صبرا فقال بصوت خافت : «هل في المنزل احد يفتح الباب •• اني غريب ضللت الطريق !••»

فأجابه الصوت من الداخل : «ليس في البيت سواي •• والباب مقفل لا سبيل الى فتحه» •

فازداد سعيد دهشة واستغرابا وقال : «من انت ايها المتكلم ؟ اني اراك في ضيق فهل من سبيل الى انقاذك ؟»

فأجابه الصوت : «يا حبذا اذا استطعته اني حبيسة • من انت ؟»

قال : «قلت لك اني غريب ضللت الطريق : أريني وجهك او ارشديني الى وسيلة أفتح بها الباب» •

قالت : «عالج الاقفال بالعنف لعلك تستطيع فتحها فتنقذني ، وربما انقذت آلوفا من الناس معي» •

* * *

ثارت الحمية في رأسه واستل خنجره وجعل يعالج الاقفال وهي تساعده من الداخل حتى فتح الباب فبرزت منه فتاة محلولة الشعر عليها رداء اهل الفسطاط ولما رأت سعيدا قالت : «من انت اصدقني الخبر ؟»

قال : «اصدقيني انت ولا تخافي ، لقد سمعتك تندبين ألوفا من الناس فمن هم ؟»

فتفرست فيه وتفرس فيها فلم يعرفها ولا عرفته •

ثم قالت له : «من قال لك اني أندب ألوفا ؟»

قال : «سمعتك بأذني • افصحي ولا تخافي» •

قالت : «وما يهمك من امر هؤلاء الالوف ؟»

قال : «اخاف ان اكون منهم» .

قالت : «وما الذي جاء بك الى هنا ؟»

قال : «كنت ذاهبا الى عين شمس فتهت وجئت لاسأل اهل هذه الدار عن الطريق فسمعت بكاءك ، فما خطبك . قولي لقد نفد صبري» .

قالت : «اني اخاف العيون ، ولا اثق بأحد بعد ان غدر بي ابي فكيف اثق بالغرباء ؟»

قال : «رب غريب اقرب من القريب . قولي ولا تخافي» .

وفيما هما في ذلك سمعا وقع الحوافر وصوت الضوضاء من ناحية عين شمس ، فدخلت الفتاة الغرفة وجرت سعيدا بثوبه ولم تفه بكلمة، فدخل في اثرها وقد تولته الدهشة ولبث صامتا . ولم تمض برهة حتى دنت الضوضاء منهما وسمعا من بين الاصوات قائلا يقول : «لقد وقعتم في أيدينا ايها الخائنون وعرفنا دسائسكم» . وسمعا لغطا كثيرا مختلطا فظلا صامتين حتى مر الفرسان كلهم وهم يسوقون جماعة من المشـــاة موثقين .

فلما تواروا عن البيت لطمت الفتاة وجهها وقالت : «لقد نالوا بغيتهم قبحهم الله وقبضوا على الجماعة» .

فقال : «وأي جماعة . هل قبضوا على جماعة عين شمس ؟»

قالت : «نعم انهم قبضوا عليهم والأسفاه» .

فدق سعيد يدا بيد وخرج يرقب الفرسان كأنه يريد ان يتحقـــق طريقهم .

فقالت له : «اخالك كنت سائرا اليهم» .

قال : «نعم» .

فقالت : «لقد نجاك الله من ايديهم وكأنما اراد الله ان تضل الطريق لنجاتك» .

فاضطرب سعيد واختلج قلبه في صدره وقال : «بالله عليك افصحي يا أخية فقد نفد صبري ، وقد علمت غرضي فأخبريني عن حقيقة امرك» .

قالت : «لم اعد استطيع البقاء هنا مخافة ان يفاجئنا قادم فتكـون العاقبة وخيمة علينا» .

قال : «وهل تريدين ان نبعد عن هذا المكان ؟»

قالت : «نعم هلم بنا ، فاذا خلونا تحادثنا ، وعساك ان تتلافى امرا لا ازال خائفة من وقوعه ، وهو شر عظيم» . قالت ذلك وخرجت فمشت امامه وهو يتبعها حتى خرجا من البستان وأوغلا في الحقول . وهـو يسير في اثرها الى حيث لا يدري ، وكلاهما صامت لا يفوه بكلمـة ، حتى دنوا من بناء عالي الجدران كأنه لا باب له فقالت له : «هذا دير انقبط فلندخله بحجة الزيارة فنكون في مأمن» ، ومشت امامه الى باب صغير في اسفل الحائط مصفح بالحديد ، فقرعته فأطل عليها من نافذة في اعلى الحائط راهب في يده مصباح وقال : «من يقرع الباب ؟»

ولم تمض هنيهة حتى فتح الباب فدخلا وقد احنيا رأسيهما لضيقه فأشرفا على ممر دخلا منه والراهب يسير بالمصباح امامهما حتى انتهيا الى الكنيسة . فنظر الراهب اليهما في نور المصباح فعرف ان الفتاة من اهل الفسطاط بل من أشرافهم ، فسر لزيارتهما ورحب بهما وأدخلهما الى غرفة مضاءة في الجانب الاخر من الكنيسة وسألهما : «هل تحتاجان الـى شيء ؟» . فقالا : «كلا» . فتركهما وقفل راجعا .

* * *

تأمل سعيد الفتاة على ضوء المصباح فوجدها شابة في مقتبل العمر جميلة الطلعة وقد احمرت عيناها وذبلت اهدابهما من البكاء ، فلم يزدها ذلك الا حسنا ، وكانت قد ضفرت شعرها في اثناء الطريق وغطت رأسها

بطرف ثوبها . فجلسا على وسادة فوق حصير وسعيد في لهفة على حديثها وقلبه يخفق توقعا للنبأ الغريب ، فابتدرها بالسؤال عن حقيقة امرها .

فنظرت اليه ولم تكد تتأمله حتى قالت : «لعلك احد الغريبين اللذين وصلا الى الفسطاط صباح هذا اليوم ؟»

قال : «نعم ، وما ادراك بذلك ؟»

قالت : «رأيتكما مع جارنا الغفاري ، وها أنذا أقص عليك خبري الغريب ، وأرجو منك ان تسرع في تلافي الخطر العظيم الذي سيدهم المسلمين قريبا» .

قال بلهفة : «قولي ، اني لهذا الامر اتيت الفسطاط ، فعسى ان اكون قد وقعت على ضالتي» .

قالت : «اني اطلعت على سر لا اظن احدا عرفه قبلي ، ألست على دعوة الامام علي ؟»

قال : «بلى اني على دعوته ، وقد جئت في سبيل نجدته» .

وهست بالكلام ، ثم توقفت برهة وأطرقت ، فلحظ سعيد ترددها وادرك انها اساءت الظن به فقال لها : «لا تظني سرك مجهولا لدي واذا شئت قلته لك . وليطمئن قلبك اقول انه يتعلق بالامام علي وفيه خطر على حياته» .

فاطمأنت ولكنها تنهدت وقالت : «اعلم يا سيدي ان ابي يصنع السلاح ويبيعه في الفسطاط ، وقد ربيت وأنا اسمعه يتشيع للامام علي فانغرس حب هذا الامام في قلبي ، وما انا في حاجة الى مدح ابي الحسن وهو ابن عم الرسول وصهره ، ولكنني ذكرت لك هذا لاطلعك على التغيير العجيب الذي طرأ علينا فقد كنا ندعو ابدا لعلي بالنصر ، حتى كانت واقعة صفين منذ بضع سنين فلحظت فتورا في غيرة ابي ، ولكنني لم أعرف لذلك سببا . وقد كنت كثيرا ما اراه يختلي بجار لنا

من بني مراد ، كان يعلم الناس القرآن ، وكنت احسبه من اهل التقوى. ولكنني وجدته واأسفاه من اهل العداء . وما زالا يجرؤان على التظاهر به لان مصر في حوزة الامام علي وعاملها محمد بن ابي بكر . فلما جاءنا ابن العاص بخيله ورجله ، وحارب دعاة علي فقتل ابن ابي بكر قتلة لم يسبق لها مثيل في الاسلام ، استقام الامر للامويين ، فجاهر ابي بعداء علي . وكان جارنا المرادي يزيده كرها له . فعلمت انهما تشيعا للخوارج، فظالمت مع ذلك صابرة كاظمة اذ لا سبيل لي الى شيء أعلمه وأنا فتاة ضعيفة كما ترى . وكان ابي يظنني على دعوته . ففي ذات يوم جاءنا ذلك المرادي يخطبني من ابي فقبل ، اما انا فلم اجب خوفا من اكراهي على الزواج . وصممت على الفرار اذا حملني ابي اليه كرها ، وما زلت أماطل في عقد القران الى الان» .

- ١٠ -

عبد الرحمن بن ملجم

كانت الفتاة في اثناء كلامها عن الزواج مطرقة حياء فلما بلغت هذا الحد رأت سعيدا مصغيا كأنه يتطلع الى اتمام الحديث فقالت : «ولا أطيل عليك قبل ان اصل الى جوهر الموضوع فأقول الي احتملت الامر بالصبر ثم علمت ان المرادي خرج الى مكة فظننته حاجا وتمنيت ألا يعود ، ولكنني ما لبثت ان رأيته قد عاد» .

قالت ذلك وتنهدت وسعيد ينتظر لسماع ما تقول وقد دهش لغرابة

الحديث .

فقالت : «عاد المرادي بمهسة جديدة ليتني مت قبل ان أسمع نبأها . فاذا لم اجد من يتحمل المشقة في تلافيها تلافيتها بنفسي .. جاء هـــذا المرادي ثاني يوم وصوله الى الفسطاط ، فخلا الى ابي كل الليل ، وأنا لا أعلم ما دار عليه حديثهما ، ثم بلغني انه اوصى ابي بأن يصنع له سيفـــا ماضيا أنفق عليه الف درهم ، وقضى مائة يوم يشحذه فلم أفهم معنى هذا الاستعداد ، ولا اهتممت به . وبعد ان شحذه كلف ابي فسقاه السم . وقد علمت انه أنفق على سقايته الف درهم ايضا . فويل لجسم يجرحه هذا السيف ولو جرحا خفيفا» .

فقال : «لقد سقيته السم» .

فتظاهرت بالدهشة وقلت : «ولأي شيء هذا ؟» . وما زلت أحاوره وأجادله حتى خدع فقال : «اعلمي يا خولة اني سأقتل بهذا السيف رجلا يزعمون انه اكبر رجل في الاسلام ويقولون انه اقربهم الى الرسول» . قال ذلك والشر باد في عينيه واصفرار اللؤم يتخلل ما كان يحاوله من الابتسام . اما انا فلما سمعته ارتعدت فرائصي واختلج قلبي وأظنه قرأ ذلك على وجهي . كيف لا وقد ظهر لي انه يريد قتل الامام علي . ولكنني اردت التثبت فقلت : «ومن هو ذلك الرجل ؟» . فقال : «ألا تعلمين من هو ؟ ألا تعرفين سبب كل هذا الانقسام ؟ فاذا كنت لـــم تفهمي بعد فأقول لك انه علي بن ابي طالب الذي يدعوه أشياعه امـــير المؤمنين» . قال ذلك واحمرت عيناه وتجلى الغدر في وجهـــه وقال : «احذري ان تبوحي بذلك لاحد ، والا اصابك جرح من هذا السيف» . قال ذلك وهو يمزج الجد بالهزل . اما انا فتحققت انه يقتلني ولا يبالي ، فالذي يجرؤ على قتل امير المؤمنين كيف لا يقتل فتاة مثلي . فلـــم استطع جوابا وخفت اذا انا نطقت ان ينكشف امري ، فسكتت وقد عولت

في سري على السعي لابلاغ امير المؤمنين ذلك على عجل ، لان موعد القتل قريب وأظنه في ١٧ رمضان ، لاني كثيرا ما كنت اسمعه يذكر هذا التاريخ ويعرض بذكر الكوفة ، ولم اكن افهم مراده وقتئذ . وأما الان فقد تأكدت انه عازم على قتل الامام علي في ١٧ رمضان ، ونحن الان في أواسط شعبان وأخاف ان ينال هذا الرجل بغيته قبل ان يبلغ الخبر عليا . آه يا ليتني طير لأحمل الخبر اليه» .

فمل سعيد ولم يعد يستطيع صبرا على التصريح باسم ذلك الرجل والافصاح عن غرضه بسقاية السيف ، وخامره الشك في انه ربما كان يعد لقتل الامام علي . وكان قد صبر نفسه حتى يسمع ذلك من فم الفتاة ولكنه مل الانتظار فسألها قائلا : «وما اسم هذا الرجل ؟»

فقالت : «أسمه عبد الرحمن بن ملجم المرادي» .

فلم يذكر انه يعرفه ، اما خولة فتنهدت وقالت : «فلما رأيت منه هذا الاستعداد المريب عمدت الى الحيلة ، فلما جاءنا في صباح امس يودع ابي وقد عزم على الكوفة ، قلت في نفسي : سيذهب الرجل وأنا جاهلة السر . فتظاهرت باعجابي بشجاعته واقدامه ، وأطريت غيرته على الاسلام ونحو ذلك ، وسألته ان يريني السيف لاتأمل فرنده ، فجاء به وأوصاني ان أتقي حده لان جرحه يميت ، فسللته بحذر ، فاذا هو يلمع لمعانا تقشعر منه الابدان ، فارتعد جسمي ولكنني اظهرت الجلد وقلت : اراك انفقت مالا كثيرا على صقله . ما الفائدة من هذا اللمعان ؟»

فضحك مستخفا وقال : «أتحسبينني انفقت كل ذلك المال على صقله فحسب ؟ »

قلت : «وماذا هناك ، اني لا ارى فيه غير اللمعان» .

* * *

نهض سعيد عندما سمع كلام خولة ، وجعل يخطر في الغرفة ذهابا وايابا والحمية ملء رأسه ، وندم على تركه الكوفة قبل ان يطلع الامام عليا ، ولكنه تذكر انه لم يكن يعرف اسم المجرم الذي يريد اغتيـــال حياته ، فلم تكن ثمة فائدة من اعلامه ، اما الان فانه يذهب اليه بالخبر اليقين ٠

وكان مع شدة اضطرابه بعد ان سمع حديث خولة لا يغفل عما يتجلى في وجهها من ملامح الجمال وما في حديثها من صدق اللهجة ، وقد اعجبه منها بنوع خاص غيرتها على الامام علي ، فشعر بميل اليها ٠ ولكنه تذكر عهده لقطام وما يظنه من حبها له فرأى ألا يطلق لنفسه العنان في حب سواها ٠ على انه ما لبث ان عاد الى التفكير في عبدالله ومصيره وسبب وجود خولة في ذلك البيت المنفرد ٠ فقال لها : «لا أدري يا مولاتي ما الذي ساقني الى منزلك حتى حظيت برؤيتك وسمعت هذا الحديث الذي جئت الفسطاط من اجله ٠ ولا اخفي عليك اني كنت عالما بعزم بعضهم على الفتك بالامام ، ولكنني لم اكن أعلم اسم ذلك المجرم ، فجئت الفسطاط ومعي رفيق من ذوي قرابتي كان قد سبقني في صباح هذا اليوم الـــى مجتمع العلويين في عين شمس ، على ان يعود الي بخبرهم ، فلما ابطأ سرت في أثره وأنا لا اعرف الطريق فضللت في الظلام حتى اهتديت اليك لحسن حظي ٠ ولكنني في قلق على رفيقي فانه يلوح لي ان الفرســان الذين شاهدناهم الليلة كانوا قادمين من عين شمس ، وربما قبضوا على أنصار علي هناك ٠٠ ألا تظنين ذلك ؟»

فقالت خولة : «لو صبرت حتى تتمة حديثي لكفيت نفسك مؤونـــة الظن ، ويلوح لي انك تود الاطلاع على سبب وجودي منفردة في ذلك البيت المغلق ، فاعلم اني لما سمعت حديث المرادي سكت وكظمت غيظي، فخرج الرجل وأظنه شخص الى الكوفة ، ولبثت انا في حيرة لا ادري ماذا

أعمل ، فقضيت امسي في الهواجس والظنون، وكلما تصورت عليا مقتولا بسيف هذا الغادر يقشعر بدني • وكان ابي يخرج الى حانوته في الصباح ولا يعود الا في المساء ، وعندنا في المنزل عبد رباني منذ حداثتي وهو يحبني ويكرمني ، وكنت قلما أكلمه ، فخطر لي ان أنتهز فرصة غياب ابي وأكلم العبد عساه ان يطلعني على نبأ جديد . او لعلي افهم شيئا اخر • لان حديث ابن ملجم اتعبني وأقلق راحتي ، وليس لدي من اشكو اليه امري . او أكاشفه سري • فخرجت من حجرتي لادعو العبد فلم اجده ، فناديته باسمه فأبطأ ولم يجب ، فنظرت من الدار الى الطريق فرأيته واقفا مع عبد اخر غريب وهما يتهامسان • فلما رآني خجل وأسرع الي، فدخلت غرفتي ودخل هو في أثري وعلى وجهه آثار الاضطراب كأنه سمع خبرا غريبا يريد ان يقصه علي • فقلت : (اين كنت وقد دعوتك فلم تجب ؟) • قال : (كنت مع عبد قادم من الكوفة في مهمة سرية الى الامير عمرو) • فقلت : (وهل أطلعك على خبرها ؟) • فأراد ان يبرهن على ثقته بي فقال : (انه أطلعني على سر لا اظن احدا يعرفه في كل الفسطاط سوى الامير وبعض شرطته) • ثم اخبرني ان ذلك العبد الذي كان معه جاء الى الامير عمرو بأن انصار علي يجتمعون سرا في عين شمس يوم الجمعة ، وان عمرا ارسل جندا للقبض عليهم او قتلهم في ساعة الاجتماع) • فلما سمعت ذلك لم أتمالك عن البكاء لشدة الغيظ ، ورأيت فرضا علي ان أبلغ المجتمعين ذلك الخبر ليحذروا • ولكنني لم اكن اعرف احدا أثق به في انفاذ هذه المهمة فعولت على الذهاب بنفسي ساعة الاجتماع • فأصبحت اليوم وأنا أنتظر خروج ابي الى حانوته ، لأتنكر وأسير الى عين شمس . فلم يخرج ورأيته مضطربا كأن العبد اخبره بالحديث . وبأنه اطلعني عليه ، فخاف ابي ان ابوح به لاحد قبل القبض على المجتمعين • فلازمني حتى الظهر . ثم دعاني الى الخروج من الفسطاط للنزهة ، فأتينا

هذا البيت وهو بيت لشريك لنا في الفلاحة وليس فيه احد ، فلم اظهر استغرابي ولم اقل شيئا لاني كنت عالمة بأن ابي سيكون فـــي جملة الذاهبين الى عين شمس فلا بد له من ان يتركني ، فاذا تركني خرجت وأنا على مقربة من المكان . وما علمت ما اضمره لي فانه لم تكد الشمس تميل الى الغروب حتى خرج متظاهرا بأن امرا ما يدعوه الى الذهاب . وادعى انه أقفل الباب علي خوفا من الغرباء او ابناء السبيل ، وهو يعلم اني لا استطيع النداء والاستنجاد لاني اذا تظاهرت بنصرة الامام كنت من المغضوب عليهم ، فظللت هناك حتى جئت انت ورأيتني في هذه الحال. فلا شك انهم قبضوا على زميلك في جملة من قبضوا عليهم من الانصار» .

قال سعيد : «هل ترين بأسا عليه ؟»

قالت : «أظنهم يسجنونه ليستجوبوه ، ثم اذا رأوا قتله قتلوه . وكذلك يفعلون برفاقه . ولكن لا بأس عليه باذن الله وسنتدبر امره . على اني اخاف اذا عاد ابي ولم يرني في البيت ان تزيد نقمته علي . فأرى ان اذهب الى منزلنا في الفسطاط ، وأتظاهر بأني خفت من البقاء في البيت وحدي ففتحت الباب بأسلوب ما وأتجاهل كل ما حدث ، فماذا انت صانع ؟»

قال : «أود ان أسرع الى الكوفة لأرى ابن ملجم فأقنعه بالعدول عن جريمته ، او اخبر الامام عليا» .

فبادرته قائلة : «وكيف لا تقنعه وهو لا يقنع ، بل قد يسرع فـــي القتل ؟ ليس افضل من ان تطلع الامام عليا على الامر وهو يرى ما يراه» .

قال : «وكيف افعل برفيقي هل اتركه في السجن ؟»

قالت : «اخاف اذا تأخرت هنا ان تفوت الفرصة والمسافة من هنا الى الكوفة بعيدة ، واني لأعجب منك كيف كنت عالما بخبر هذه المؤامرة ولم تخبر بها عليا وأنت في الكوفة ؟»

فتنهد وقال : «كفــــي الملام فقد وقع ما وقع ، وكنت اظن الكتمان يبعد المصيبة ، وفاتني ان اخبرك بأن المؤامرة ليست على مقتل الامام علي فقط ، بل هي كذلك على مقتل عمرو ومعاوية ايضا» . وقص عليهـــــا الخبر موجزا .

* * *

استغربت خولة الخبر وقالت : «مالنا ولهذين؟ اننا نريد الدفاع عن الامام علي الان ؛ ولكنني لم افهم كيف انتقل خبر قدومكما الى هنـــا وأنت تقول انه كان سرا مكتوما لم يطلع عليه احد» .

فكاد سعيد يسيء الظن بقطام ، ولكن الحب اعمى بصيرته فانتحل سببا اخر وقال : «لا ادري» . وخطر له ان يقص حديثه مع قطام ثـم أمسك عن ذلك حفظا لعهدها ، ولا عجب فهو سليم النية لا يعرف الدهاء، ولهذا لم يطلق لعواطفه الحرية في حب خولة ، مع ما آنسه فيها من جمال وكمال وتفان في نصرة الحق .

على انه ادرك خطأه في كتمان خبر المؤامرة عن علي الى ذلك الحين، ولكنه حمله على اهمال من قطام لا على سوء قصدها ، ومع ذلك فقد رأى الامر سهل التلافي ولا يزال ثمة باب مفتوح لانقاذ علي بابلاغـــه خبر المؤامرة ، وهذا يدعو الى السفر السريع ، وهو لا يعلم ما آل اليه حال عبدالله فقال لها : «اني عازم على الكوفة في اقرب وقت ، فما الــذي أفعله برفيقي وأنا لا ادري أحي هو ام ميت ؟»

قالت : «غدا نعرف الحقيقة ، دعني اذهب الان الى منزلنا بالفسطاط، وامكث انت هنا الى الصباح» .

قال : «كيف استطيع البقاء هنا وحدي ولا صبر لي على استطلاع خبر عبدالله ، فأرى ان أدخل الفسطاط وأتردد الى المسجد ، اذ لا يعرفني

احد هناك ، فاما ان اسمع خبرا ممن يفد على المسجـــد من المصلين او تبعثي الي بالخبر» .

قالت : «لك الخيار في ذلك» . ونهضت فنهض وخرجا فرافقها الى قرب منزلها وودعها وعاد يلتمس بيت الغفاري للمبيت وهو لا يدري ان الرجل في عداد المقبوض عليهم ، وقد اصبح بيته موضع شبهة ولم تكن خولة تعلم ذلك ايضا .

وكان الجند بعد القبض على المجتمعين قد ساقوهم في الاغلال الى السجن ، وكان عمرو ينتظرهم في داره فلم يصبر الى الصباح وأمـــر باستقدامهم اليه واحدا واحدا ، فرأى بينهم جماعة ممن لم يكن يخطر له انهم على غير دعوة بني أمية خصوصا الغفاري . ولما وصل الى عبدالله عرف انه من بني أمية وعرف قرابته من ابي رحاب ، ولكنه تجاهل ذلك، وأمر بأن يسجن كل منهم في حجرة على حدة ، وبعث جندا يفتشـــون منازلهم ويقبضون على من فيها من الرجال لعلهم يطلعون على شيء جديد، ولم تمض ساعة حتى دهم الجند منازل العلويين وأخذوا ما فيها .

***

لما ذهب سعيد الى بيت الغفاري سأل عن صاحبه فقالوا له : انه خرج منذ الظهر ولم يعد . فلم يخطر له انه في عداد المقبوض عليهم ، فدخل الحجرة التي وضع فيها ثيابه وحاول ان ينام ، ولم يكد يلقي رأسه على سريره حتى تراكمت عليه همومه فأخذ يفكر في عبدالله وماذا عسى ان يكون اصابه ، وخاف ان هو ابطأ في الذهاب الى الكوفة ان ينفذ ابن ملجم جريمته فيذهب سعيهم عبثا .

وفيما هو في هذه الهواجس وقد طار نومه سمع لغطا في الدار ، ثم علت الضوضاء وضج الناس فوقف وتسمع فاذا برجال عمرو قـــد

دخلوا المنزل وأوغلوا في النهب وآذوا كل من تعرض لهم فأيقن انهـم آتون الى حجرته ، وسيفتكون به ، فتقلد حسامه والتفت يمينا وشمالا لعله يجد مخرجا ينجو منه فسمع صوتا يناديه من وراء الحجرة فاستأنس بالصوت وعرف انه صوت خولة ، ولم يكن له سبيل الى رؤيتها غـير نافذة عالية يشرف منها اذا صعد على مرقاة ، فاحتال في الصعود اليها وأطل وكان الظلام حالكا ولكنه رأى شبحا وسمع صوت خولة تقول له: «انهم سيفتكون بكل من في المنزل ، فاليك هذا الخمار والجلبـــاب فالبسهما وافتح الباب واخرج ، وسيظنونك امرأة فلا يتعرضون لك» . فمد يده وتناول الخمار والجلباب فارتداهما وهو يرتعش مخافـــة ان تفاجئه الشرطة قبل خروجه .

فلم يكن الا كلمح البصر حتى فتح باب الغرفة وخرج بزي امرأة فرأى الضوضاء على أشدها ، ولم يتعرض له احد في ابان النهب ، فمشى الى الشارع وراء البيت فرأى خولة واقفة فلم يتمالك عن الاعجـــاب بشهامتها والاقرار بفضلها برغم دهشته وبغتته . ثم رآها تمشي امامه فاقتفى خطواتها حتى وصلا الى مكان منفرد فوقفت وقالت له : «الحمد لله على سلامتك وسلامة الامام علي» . فلم يفهم مرادها فابتدرته قائلة: «لا تعجب لقولي فان حياة الامام علي تتوقف على حياتك اذ ليس هنا من يعلم الخطر الذي يتهدده سواك . نعم اني انا اعرفه ايضا ولكنني لا اراني استطيع الذهاب ولا آمن على السر احدا» .

فقال «اما انا فلا مطمع لي في الحياة الا بانقاذ الامام من القتل وأنت صاحبة الفضل ؛ ولكن كيف عرفت بالخطر المحدق بي حتى جئت بهذه الحيلـــة ؟ »

قالت : «علمت من ابي ان عمرا أمر بنهب منازل العلويين والقبض على من فيها من الرجال ، وأخبرني ايضا ان الغفاري كان من المقبـــوض

عليهم ، وقد علمت انك مقيم بمنزله فجئت اليك بهذه الحيلة • فالحمد لله على سلامتك» •

فشعر سعيد بفضل خولة وأحس بميل اليها ولكن حبه لقطام ما زال غالبا على قلبه لا يترك له سبيلا الى سواها •

وبعد التأمل برهة قال : «وما العمل الآن ؟ اني عازم على الكوفة عاجلا ، ولكنني لا ادري ما ألم بعبد الله ولا ما يؤول اليه حاله • هل علمت شيئا عنه ؟»

فتشاغلت خولة عن الجواب باصلاح ثوبها كأنها تحاول اخفاء مـــا تعلمه ، فظنها لم تسمع كلامه فأعاد السؤال • فقالت : «لا يعلم المستقبل الا الله» •

فلم يعجبه جوابها فقال : «افصحي عما تعلمينه يا خولة» •

قالت : «ان عمرا أمر بقتل العلويين في فجر هذا الصباح ولكن من يدري ماذا حدث ؟»

فاختلج قلب سعيد أيما اختلاج ، وشعر كأنما صب عليه المــــاء الساخن ، وقال : «ماذا تقولين ؟ هل يقتلون عبدالله ؟ كيف يكون هذا؟»

فقالت : «دع الامر لله واعذرني • اني لا استطيع البقاء معك طويلا لئلا يفطن ابي لغيابي فلا انجو من القتل • وأما انت فحياتك في خطــــر عظيم ، فاخرج من الفسطاط حالا» •

فابتدرها قائلا : «كيف اخرج وأترك عبدالله يقتل ؟ انه ابن عمي وأعز من اخي • كيف العمل ؟»

فقالت له : «لا خيرة في الواقع ، فان شرا واحدا اهون من شرين، والوقت ضيق لا مجال فيه للسعي او البحث عن سبيل لانقاذ حياة عبدالله اذا قدر الله قتله ، ونحن الان في منتصف الليل وسينفذ القتل عنــــد الفجر» • قالت ذلك وسكتت هنيهة •

فابتدرها سعيد قائلا : «ما قولك في ان أقابل ابن العاص ، وأنبئه بعزم بعض الناس على قتله وأحذره من الوقوع في الخطر ؟ ألا تظنينه يعفو عن قتل عبدالله مكافأة على هذا الجميل ؟»

قالت : «ربما عفا ، ولكنه لدهائه والقسوته قد يظن في قولك السوء فيقبض عليك ويؤجل قتل عبدالله حتى ١٧ رمضان ، فاذا لم يظهر صدقك قتلكما معا • فهل انت واثق من مجيء المتآمر على قتل عمرو في ميعاده، حتى لا تكون النتيجة زجك بنفسك في التهلكة ؟ اترك هذا الامر لي فلعلي أهتدي الى وسيلة اذهب بها الى عمرو وأطلعه على هذا السر ، فاذا رأى ان يقبض علي فليفعل ولله الامر • اما انت فسر الى الكوفة قبل فوات الفرصة لان الوقت قصير ؛ ووقتي الان أقصر منه • والآن دعني أذهب الى ابي قبل ان يعلم بغيابي فيعرقل مسعاي ، واقصد انت الى الدير الذي كنا فيه في اول هذا الليل وسآتيك بالخبر • ولا تنس ان تنزع النقاب والازار وادخل بثوب الرجال فرئيس الدير يعرفك فلا يسيء بك الظن» • وانصرفت مسرعة الى منزلها وهو يود لو انها لا تفارقه •

* * *

مشى سعيد وهو مضطرب قلق لا يدري الى اين يسير فاذا به قد خرج من الفسطاط ووصل الى حافة ترعة ظنها لاول وهلة نهر النيل • ثم رأى ضيقها فعلم انها خليج • وكان الظلام حالكا فوقف برهة يفكر في عبد الله ومصيره والخطر المحدق به فازداد قلقا •

وظل واقفا مشرد الذهن وحانت منه التفاتة فرأى بالقرب منه نخلة فجلس على حجر تحتها وأسند ظهره اليها وجعل يسبح في بحر خياله ومصائبه • فتذكر قطام ووعودها وما مر له معها من الاحداث • وكان

الجو هادئا لا يكدره الا نقيق الضفادع على شاطىء الخليج فتشــــاءم وخيل اليه ان عبدالله قد مات ، فرجف وجلا وقال في نفسه : «أأبقى انا هنا وعبد الله في الخطر الشديد ؟ ماذا تكون حاله مع عمرو ؟ أيقتله ام يستبقيه ؟ وماذا أعمل : هل ابقى في الفسطاط لانقذه من القتل ؟ ام اسير الى الكوفة لانقاذ الامام علي ؟ ولكن ما الفائدة من بقائي هنا وابن العاص قد أمر بقتل عبد الله في صباح الغد ؟ لا بد من المبادرة الــــى انقاذه» . قال ذلك ومشى محاذيا الخليج جنوبا وهو ينظر اليه . فتذكر انه خليج امير المؤمنين وقد حفره عمرو بن العاص لما فتح مصر منــــذ عشرين عاما لارسال المؤونة فيه الى الحجاز تلافيا لما كانوا يخافونه من القحط هناك . وكان قد حفره باشارة الخليفة عمر بن الخطاب لما كانت الخلافة في المدينة ؛ فتذكر حال الاسلام في ذلك العهد وما كان فيه من اجتماع الكلمة وما فتحته سيوف المسلمين من البلاد الواسعة في الشام ومصر والعراق في بضع عشرة سنة . وكيف تحولت تلك السيوف بعد مقتل الخليفة عثمان الى الفتنة فانقسم المسلمون فيما بينهم . وشغلوا عن تثبيت ملكهم بالحروب الاهلية حتى اصبحوا يقتلون خلفاءهم وينهسونهم نهسا ما أنزل الله بها من سلطان . وأقبح ما آلت اليه الفتنة تآمرهم على قتل أمرائهم، ولاسيما الامام علي وهو ابن عم الرسول وخيرة قـــواد المسلمين ، ولا ذنب له غير العمل على تأييد الكتاب . فلما تصور تلــك الحال انقبضت نفسه وحزن حتى كادت تخنقه العبرات وهو لا يــدري أيبكي عبد الله ام يبكي الاسلام ام يبكي الامام عليا ام يبكي ســـوء حظه الذي قاده الى الفسطاط فوقع فيما هو فيه ؟

وكأنما اعترته هزة من الحماسة فوقف على الخليج وجعل يناجيــه قائلا : «ايها الخليج ، أليس امير المؤمنين عمر بن الخطاب . هو الذي اشار بحفرك ؟ قل لي بمائك الذي يجري فيك هل علم ابن الخطاب لما أذن

بذلك ان دولة الاسلام سيقضي عليها بالانقسام حتى يحمل عامتهم على خليفتهم ليقتلوه . ثم يختلفوا على الخلافة ليقتسموها ، ثم يختصموا على اقتسامها ؟. هل خطر لابن العاص يوم نزل وادي النيل وحاصر هذا الحصن المنيع حصن بابل انه سيجرد سيفه على المسلمين ويقتل ابن ابي بكر حرقا بالنار ، ثم ينقم على ابن عم الرسول فيخرج الخلافة من يده بالحيلة ؟. اين هو عمر جامع كلمة المسلمين ؟. كانت المدينة مقـر الخلافة في عهده فأصبحت منقسمة على نفسها يدعيها غير اهلها .. رباه ما هذه الحال ؟ يا ليتني مت قبل هذا . هنيئا لك يا ابا رحاب ان عظامك ساكنة في التراب وروحك تنتظر لقاء ربها يوم الحساب اما انا فاني تائه بعدك تتنازعني عوامل لا ادري مصدرها ولا اعلم مصيرها . أأبقى هنا لأرى مصير اخي عبدالله ؟ ام اسرع الى الكوفة لانبىء الامام بما تآمروا به عليه ؟. ولكن ما الفائدة من بقائي ؟ هل يعفو عمرو عن عبداللـــه فيبقى حيا فأراه ؟ ما أظنه يفعل ، وما اظن انني استطيع الدفاع عنه ؟»

ثم تذكر خولة فقال : «آه يا خولة ، يخيل الي انك ملك كريم ارسلك الله لترشديني الى سواء السبيل .. فهل يتم السعد على يدك وتنقذين عبدالله من القتل ؟»

وفيما هو في ذلك يمشي الهوينى على ضفة الخليج ، سمع لغطـــا وحركة عن بعد . فأجفل وتقدم نحو الصوت وهو يحدق بنظره . فعلم انه بجانب فم الخليج عند اتصاله بالنيل ، ورأى في النيل سفنا كبـيرة وسمع دويا عميقا كأن لصوصا يهمسون فيما بينهم ويحاذرون ان يسمعهم احد . وكان ما زال بلباس النساء فخاف ان يراه احد فينكشف امره . فانزوى وراء جميزة كبيرة بقرب الشاطىء ، ثم تسلق احد فروعها واختبأ بين الاغصان والاوراق مبالغة في الحذر حتى اذا استقر على غصن غليظ جعل يتفرس فيما يراه فاذا هناك بضعة وعشرون رجلا يحيطون بآخرين

في مثل عددهم كأنهم اسرى مغلولون يساقون الى قارب كبير ، وسمع بعضهم يقول : «الى اين انتم ذاهبون بنا في هذا البحر ؟ لعلكم تريدون اغراقنا ؟» . فشجبه احدهم قائلا : «وما علينا اذا اغرقناكم ، وأنتم عصبة شريرة تآمرتم على نصرة رجل قتل الخليفة عثمان ؟»

فصاح اخر : «أهذه اعمال ابن العاص ، يقتل الرجل غيلة ؟. اما كفاه انه طلب الخلافة لصاحبه بالحيلة حتى يقتل نصراء الحق غرقا ؟.. أما تخافون الله ؟ ألا تخافون يوم القيامة ؟»

فصاح به اخر وقال : «لا تخف اننا امرنا بنقلكم الى جزيرة الروضة تبقون فيها اياما» . ثم علت الضوضاء فعلم سعيد انهم أنصار علي الذين قبض عليهم تلك الليلة في عين شمس . فظن ان ابن العاص اشار بقتلهم غرقا في النيل ، فارتعدت فرائصه حتى كاد ان يقع ؛ وحدثته نفسه ان ينزل لنصرتهم ، ولكن الخوف غلب عليه فانه أعزل وهم عصبة كبيرة بالسلاح ، فلبث برهة كأنها سنة وهو يرتجف غضبا . وتسمع لعله يسمع صوت عبدالله او يراه فلم يسمع شيئا ولم ير شيئا ، وما هي الا دقائق معدودة حتى احتوى القارب القوم ثم اداروا الدفة وهو ينظر اليهم وقد ندم على سكوته وود لو انه اظهر نفسه لعله يستطيع نجدة اولئك المظلومين او يقتل . ثم تذكر ان في بقائه حيا نفعا للامام علي . فمكث برهة كأنه في حلم يتردد بين الندم والاسف حتى توارت السفينة عن بصره فأيقن ان عبدالله ملاق حتفه وسيذهب ومن معه طعاما للاسماك .

واشتد اضطراب سعيد وهواجسه ، ثم بكى ونزل من الشجرة وهو يندب عبدالله ويوبخ نفسه لضعفه وتردده قائلا : «أأرى عبدالله يساق الى القتل ولا أنصره ؟ يا للجبن ويا للخيانة !. وكيف أتخلى عن رجل ذهب ضحية حبه لي ، فانه لولاي لم يأت الى هنا ولا رأى ما رآه من

الشقاء .. فما الفائدة من حياتي الان اني لا أستحق البقاء ولا بد من ان القي نفسي في هذا الماء لعلي ألقى صديقي عبدالله» . قال ذلك وهم بأن يلقي نفسه في النيل فشعر بقوة خفية اوقفته بغتة ، وفكر في الامام علي وما يحدق به من الخطر فقال : «اذا قتلت نفسي فانما أقتل عليا معي. نعم أقتله لاني اذا لم أذهب الى الكوفة وأنبئه بعزم ابن ملجم ذهب قتيلا بذلك السيف المسموم . آه يا خولة اين وعدك بانقاذ عبدالله ؟.. ولكن ما ذنبك وأنت لا تعلمين انهم سيسرعون في القائه في اليم قبل الصباح.. هذا دهاء ابن العاص ومكره . ولكنه سوف ينال جزاءه من اولئك المتآمرين .. ليتني أنبأته بالمؤامرة وجعلتها فدية لعبد الله . ولكن قضي الامر ولا خيرة في الواقع» .

ثم سكت وجعل ينظر فيما حوله وقلبه لا يطاوعه على التطلع الى اتجاه القارب . فأراد ان يعود الى المكان الذي اتى منه فرأى شبحا مسرعا نحوه فخاف وتهيأ للقتال اذ رآه يقترب منه . فلما اقترب الشبح اذا هو امرأة فعجب لقدومها وحدها في ذلك الليل ولكنه ما كاد يتفرس في قيافتها حتى علم انها خولة ، فخفق قلبه وغلب الخجل عليه لما رآه من جرأتها واقدامها ليلا وهي فتاة لا يحملها على القدوم الا السعي في انقاذ عبد الله . فحدثته نفسه ان يختبىء خجلا ، ولكن المفاجأة اذهلته فدنا منها وناداها . فلما عرفت صوته صاحت : «اين عبد الله ؟»

فأراد ان يجيبها فاختنق صوته وسبقته العبرات .

فدنت منه وهي تقول : «سعيد ، هل رأيت احدا جاء الى هنا ؟ وما الذي جاء بك انت ؟»

قال : «رأيت الشرطة يحملون الاسرى في قارب» .

قالت : «وأين هم ؟ اين ذهبوا بهم ؟.. هل رأيت عبد الله معهم ؟»

قال : «اخذوهم في القارب ، ولا ادري اذا كان عبد الله معهم ام

لا ، لاني لم أسمع صوته ولا رأيته» .

فدقت يدا بيد، وقالت : «لا بد من ان يكون معهم . آه ما الحيلة الان ؟ ما كنت أظن ابن العاص يعجل بقتلهم هكذا .. ولماذا لم تحاول الدفاع عنهم ؟»

فقال والاعتذار والخجل يتنازعانه : «لم اكن أعلم ان عبدالله معهم، وهبي اني علمت فكيف استطيع انقاذه وأنا أعزل وهم جماعة مسلحون؟»

فصمتت خولة ثم قالت : «حسنا فعلت فأبقيت على نفسك لانقاذ الامام علي ، لان حياته موكولة الى الاسراع في رجوعك» .

فقال بلهفة : «وأنت ما الذي جاء بك وكيف عرفت امرهم ؟»

قالت : «علمت ذلك من عبدنا ، وكنت قد اعددت حيلة أدخل بها على عمرو لاستمهله في امر عبد الله باطلاعه على سر المؤامرة ، فعلمت انه بعث بهم هذه الليلة لالقائهم في النيل حذر الفتنة ان هو قتلهم جهارا ، وهو يعلم كثرة أنصارهم في الفسطاط . فأسرعت لعلي استطيع انقاذ عبدالله ولكن لم يسعفني القدر .. وأأسفاه عليك يا عبدالله . آه من اهل الظلم . ان ابن العاص غلب عليا بحيلته فأخرج الخلافة من يده لسذاجة ابي موسى الاشعري ولكنه لن ينجو بنفسه من غائلة المؤامرة.

ثم دنت من سعيد وقالت : «ان فقد عبدالله مصيبة علينا لانه شهم، وسيذهب ضحية مروءته ، على اننا نرجو ان نعتاض عن فقده بانقاذ الامام علي من خطر القتل ، فاركب الى الكوفة على عجل وتمم المهمة التي جئت ما اجلها . فها قد عرفت اسم المتآمر ، وانه سار الى الكوفة فأسرع ما استطعت قبل فوات الفرصة» .

وكان سعيد مع شدة تأثره مما رآه تلك الليلة من الاهوال لا يغفل عما ابدته خولة من الحمية والشجاعة فازداد حبا لها واعجابا بشهامتها ، وفيما هو يفكر في ذلك ابتدرته قائلة : «اعلم يا سعيد اني خرجت الليلة

من بيت ابي مجازفة بحياتي وأنا احسبك في الدير كما تواعدنا ، وكنت عازمة على الذهاب لأحثك على السفر ثم اعود الى ابي وأتنحل له سببا لخروجي . اما وقد التقينا هنا فاني أستودعك الله وأرجو منك ان تسرع في الذهاب ، وسأرسل اليك جملا مع عبدنا ليسير في ركابك الى الكوفة » .

فأعجب سعيد بحسن تدبيرها ورباطة جأشها ، ورأى نفسه ضعيفا بين يديها ولم يستطع مخالفتها فقال : «سيتبين لنا الخيط الابيض من الخيط الاسود قريبا وها أنذا ذاهب الى جبل المقطم ، فهل يوافيني عبدك وجملك الى هناك ؟»

قالت : «انه سيوافيك حتما . سر بحراسة الله واحذر ان تفوتك الفرصة . اذ ابن ملجم قد سبقك الى هناك .. هل علمت ذلك ؟» .
ومدت يدها اليه فصافحها ويده ترتعش وقد نسي نفسه لحظة ، ثم نسي ما هو بسبيله ، فأخذ يودعها وقلبه يضطرب حبا لها ، واعتزم الرحيل . وبين نفسه اذا نجح في مهمته ان يطلق لقلبه العنان في التقرب من خولة. قال لها : «آمل ان تذكريني وتدعي لي بالتوفيق» .
قالت : «اذهب فاني معك بقلبي وان لم ابرح الفسطاط . وأرجو ان نلتقي يوم ينجو الامام من ايدي الظالمين وينال ما يستحقه من الاستئثار بالخلافة » .

ثم ودعته وألحت عليه في الاسراع في السفر ، وأكدت له ان عبدها سيلاقيه ومعه الجمل وراء المقطم ، ثم توجهت الى الفسطاط .
فلما تركته وحده ادار وجهه الى النيل حيث كان القارب ، وتأوه وتحسر وقال : «أستودعك الله ايها الصديق الحميم ، أستودعك الله ايها الاخ الحبيب ، هنيئا لك ذهابك ضحية في سبيل نصرة امير المؤمنين فستلقى ربك باسما مفتخرا ، فادع لي ان القاه انا ايضا منتصرا على

القوم الظالمين» .

قال ذلك واتجه نحو جبل المقطم ، ولم يدركه حتى انبلج الصبح ، فلقي العبد قد سبقه الى هناك ومعه الجمل وسائر معدات السفر .

***

فلنتركه سائقا ظعنه يطوي البيد طيا ، ولنعد الى قطام بالكوفة وما كان من دهائها ومكرها بعد سفره . وكانت قد ارسلت عبدها الى الفسطاط الوشاية بسعيد وعبدالله ثم خلت بلبابة فقالت لها : «لقد تمت لنا الحيلة في قتل هذين المغرورين فانهما مقتولان لا محالة . وبقي علينا ان نعلم من هو المتآمر على قتل علي ، فاذا عرفناه شجعناه على قتله وساعدناه » .

فضحكت لبابة وقالت : «انه لامر سهل ، فان عبدك ريحان ماهر داهية اخذ عن سيدته ، ولا نظنه الا عائدا الينا بالخبر اليقين ، وأما تحريض المتآمر على القتل فهو أسهل ، ولاسيما اذا رأى هذا الوجه الجميل فيفتتن به لا محالة ، فما عليك حينئذ الا ان تعديه بالزواج وتجعلي قتل علي مهرا لك فما قولك ؟»

فقالت قطام : «بورك فيك يا خالة ، أما وعده بالزواج فأمر سهل علي . ولا نظننا نحتاج في البحث عن ذلك الرجل الى مشقة فانه اذا دنا الميعاد المضروب لا بد قادم الى الكوفة ، واذا جاءها فلا بد من ان يطلع احدا من اهلي على عزمه لعلمه اننا على دعوته ، فاذا عرفناه هان علي كل عسير» .

ولم يهل شهر رمضان حتى تحدث اهل الكوفة بتوقع حادث فظيع يخشى منه على حياة امير المؤمنين علي بن ابي طالب ، وكان الناس يتداولون الخبر همسا ولا يعيرونه اهتماما لعدم نهوض الدليل من شاهد

او عارف للقاتل المنتظر ، فضلا عن علم العقلاء ان أمثال تلك الاشاعات تروج في مثل ما كان فيه الامام علي يومئذ . ولم يفت الامام وحاشيته شيء من تلك الاشاعة ، ولكنهم لم يعبأوا بها وأخذها اهله وأصحابه على انها اشاعات ينشرها ذوو الاغراض . هذا مع العلم انك قلما ترى حادثا فظيعا لم تتقدمه الاشاعات المنبئة بقرب وقوعه . ومهما يكن من الامر فان اهل الكوفة كانوا يتحدثون ببلاء يتوقعون نزوله بأمير المؤمنين ولكن اكثرهم كانوا لا يكترثون .

ومضت ايام من شهر رمضان ، فتلفتت قطام لتعرف من هو المتآمر عى قتل الامام علي لتنصره او تحرضه . فلما اقترب لصف الشهر ولم يأت احد ولا سمعت بأحد ظنت المتآمرين قد رجعوا عن عزمهم تهيبا وقرفا . واستبطأت عودة عبدها ريحان ، وكانت في انتظار قدومه لعلها تسمع منه شيئا عن المؤامرة ، ولكي تسأله عما آلت اليه حال سعيد وعبد الله . على انها لم تكن تشك في وقوعهما في الفخ .

ولما كان الخامس عشر من رمضان وقطام في بيتها ومعها لبابة سمعتا قرعا بالباب ، فنهضت لبابة فسمعت جعجعة جمل عرفت انه جمل ريحان فأسرعت الى الباب ففتحته ودخل ريحان فقبل يدها وهو ما زال بلباس السفر ودخل توا الى غرفة سيدته . فلما رأته ابتسمت له ابتسامة عوضت عليه كل شقائه . فتقدم لتقبيل يدها وهو مشرق الوجه اشارة الى نجاح مسعاه . فقالت : «اني أقرأ آيات البشر على وجهك رغم سواده ، فاقصص علي تفصيل ما قمت به من آيات الدهاء والمهارة» .

فقال وهو ينفض الغبار عن لحيته ووجهه : «ركبت الى الفسطاط فوصلت اليها يوم الخميس قبل وصول سعيد وعبد الله بيوم ، فسرت توا الى الامير عمرو بن العاص ، وقصصت عليه خبر القادمين وان في الفسطاط جماعة من أنصار علي يجتمعون في عين شمس كل جمعة . فأمر

رئيس شرطته ان يتأهب لمداهمتهم ، وخفت ان يهاجموا المكان قبل وصول سعيد وعبدالله ولكنهما وقعا في الفخ ، فانهما ذهبا الى الجمعية وقبضت الشرطة عليهم جميعا ، ولكنني لم أر سعيدا في جملة الاسرى» .

فابتدرته قطام قائلة : «هل قبضوا على كثير من الانصار ؟»

قال : «قبضوا على نحو عشرين وعبدالله معهم» .

قالت : «وسعيد ؟»

قال : «لم أره ، وأظنه تأخر عن الاجتماع فلم يشهده فنجا بنفسه» .

قالت : «وماذا فعلوا بالاسرى ؟»

قال : «ساقوهم الى النيل وأماتوهم غرقا في الليلة التي قبضوا عليهم فيها» .

فأشرق وجه قطام ، ثم انقبض بغتة ولبابة تنظر اليها كأنها تلتذ بالتأمل في ملامحها . فلما رأتها انقبضت همست بها وقالت : «ما بالك ، ما الذي كدرك ؟»

قالت : «ان سعيدا ما زال حيا فأخاف ان يعرقل مساعينا» .

قالت لبابة : «لا خوف منه لانه كما تعلمين سلس القياد تنطلي عليه الحيلة بسهولة . وأما عبد الله رفيقه فقد رأيت فيه دهاء ومكرا فالحمد لله على نجاتنا منه» .

قالت : «صدقت ولكن سر المؤامرة عند سعيد فأخاف ان يجيء ويطلع عليا عليها فيحتاط لنفسه فيذهب سعينا هباء منثورا» .

فأطرقت لبابة برهة ثم التفتت الى ريحان وقالت : «هل عرفت الرجل المتآمر على قتل علي ؟»

قال : «علمت انه من بني مراد واسمه عبد الرحمن بن ملجم» .

فبغتت لبابة وصاحت : «ابن ملجم ..؟ لقد هان الامر» .

قالت قطام : «وهل تعرفينه ؟»

قالت : «أعرفه جيدا ، وهو جريء لا يصلح لمثل هذا العمل احـد سواه ، فاذا كان هو الرجل فقد نلنا المرام فانه مغرم بالحسان ويتفانى في سبيل مرضاتهن» . ثم ادنت فمها من أذن قطام وقالت : «لا شك انه اذا رآك وقع في هواك» . ثم التفتت قطام الى ريحان وقالت : «هل رأيته قبل مجيئك ؟»

قال : «لا ولكنني سمعت انه قدم الكوفة يوم وصولي الـى الفسطاط . وقد كنت أظنه زاركم لان حزبنا في الفسطاط يعلمون كرهنا لعلي ، وسعينا في اخراج الامر من يده» .

فقالت : «بالله سر الى عشيرتي وابحث عن الرجل وائتني به ، وحاذر ان يدرك انك قادم من قبلي» .

وخرج ريحان فتبعته لبابة الى حديقة البيت فوقفت به في ظل نخلة وهمست في أذنه قائلة : «اذا لقيت الرجل فقل له ان خالتك لبابة هنا وهي تريد ان تراك لامر ذي شأن ، واستعجله واذكر له اني مقيمة بمنزل سيدتك قطام ، واحتل في حديثك لتفهمه ما عليه سيدتك من الحسـن والجمال واني قد أمهد له للزواج بها . وأنت فطن لبق تحسن تصريف الامور» . فهرول ريحان ذاهبا .

- ١١ -

لبابة وابن ملجم

عادت لبابة الى قطام مسرورة مبتسمة تقول : «لا ريب اننا فزنـا بمرامنا ، وقلبي يحدثني بأن عليا سيقتل ويشفي غليلنا منه على اهـون

سبيل » .

اما قطام فظلت صامتة مقطبة الحاجبين كأنها تفكر في امر ذي بال. فسألتها لبابة : «ما بالك يا قطام ما الذي حدث فأوجب هذا الاهتمام؟»

قالت : «اني خائفة يا خالة» .

قالت : «وما الذي يخيفك ؟»

قالت : «اني خائفة من سعيد فقد قال لنا ريحان انهم لم يقبضوا عليه في الفسطاط ، ولا يبعد انه عرف اسم ابن ملجم والميعـــاد المضروب لتنفيذ المؤامرة ، فيأتي بالخبر الى علي ، وتذهب مساعينا وجهدنا عبثا» .

فقالت لبابة : «وما الرأي يا بنية ؟»

فقالت : «لا بد لنا من تدبير الامر بالحكمة وتدارك الامر قبـــل وقوعه » .

قالت : «فما الرأي ؟»

قالت : «ارى ان نسعى في منعه من الذهاب الى علي . فقد يتراءى له ان يسير اليه حال وصوله الى الكوفة» .

قالت : «هذا سهل فاننا نبعث ريحان لينتظـــره في مكان خارج الكوفة لا بد له من المرور فيه ، فاما ان يؤخره عن دخول الكوفة واما ان يدعوه الينا بحجة اشتياقك الشديد اليه ! ولا أشك انه اذا سمـــع بشوقك نسي كل شيء وطار اليك . ومتى جاءنا استبقيناه اما طائعا او مكرها . ما قولك ؟»

قالت : «ارى رأيك ، ولكننا الان في الخامس عشر من رمضان ولم يبق الا يوم واحد على الموعد المضروب ، فلا بد من المبادرة بارسال من يوقفه خارج الكوفة او يستقدمه الينا ، وريحان خرج في مهمة الـــى اهلي وقد يبطىء» .

قالت لبابة : «دعي هذا الي . ها أنذا ذاهبة في اثر ريحان فأبعثه الى

خارج الكوفة ، وأبحث عن ابن ملجم بنفسي وذلك سهل علي لاني أعرفه » . قالت ذلك وتبرقعت وتناولت عكازها وخرجت تمدو عدو الشباب .

وخلت قطام الى نفسها وتأملت ما هي فيه من الصعاب وراجعت في مخيلتها ما دبرته من الحيل في سبيل قتل الامام علي ، فرأت انها احسنت بارسال ريحان ، فانه اذا نجح في تأخير سعيد ، ونجحت لبابة في استقدام ابن ملجم ، وفازت هي باغرائه وتشجيعه ، نالت بغيتها وانتقمت لابيها وأخيها . ولما تصورت وقوع ذلك ارتاحت نفسها ، وهون عليها حبها للانتقام وما جبلت عليه من المكر ، تأنيب الضمير على جريمتها . ثم اعملت ذهنها فوجدت انه ينقصها احتياط واحد لا بد من تداركه . وذلك ان سعيدا قد لا يلتقي بريحان لاختلاف في الطريق او ربما التقى به ولم يصغ الى قوله وقصد فورا الى الامام علي فأطلعه على سر المؤامرة . فلما تصورت ذلك خفق قلبها واضطربت ونهضت وجعلت تمشي في غرفتها ذهابا وايابا وتخرج منها الى الغرفة الاخرى وهي تترقب عودة لبابة ليتداولا في الامر معا وندمت على ارسالها قبل ان تفطن لهذا الامر .

وزاد قلقها فخرجت الى حديقة النخيل وكانت الشمس قد تكبدت السماء وانحسرت الظلال واتفق وقوع شهر رمضان في تلك السنة (٤٠ هـ) في ابان الشتاء لانه يبدأ في العاشر من يناير وكان اليوم صحوا يحسن الخروج فيه الى الخلاء في ساعة الظهر للاستدفاء بأشعة الشمس. فمشت بين النخيل مبتعدة عن السور الذي يلي الطريق الى ما يلي البحيرة وهي لا تكترث لما حولها من صرير او تغريد او نقيق فقد انصرفت الى ادراك غرضها .



قضت في الحديقة ساعة وحدها حتى ملت الشمس وحرارتها وهمت بأن تدخل المنزل ، وفيما هي عائدة سمعت اناسا يتكلمون عن بعد ، فوقفت على أرومة نخلة كانوا قد قطعوها للوقود منـذ عامين والتفتت فرأت شبحين لم تلبث ان عرفت انهما لبابة وعبد الرحمـن بن ملجم . فانصرفت الى اتقان الحيلة فدخلت البيت على عجل وكانت قد رأت لبابة تكلم عبد الرحمن وتشير اليها باصبعها . وعمدت الى النقاب فأرسلته على رأسها وجلست على وسادة تعودت الجلوس عليها اذا استقبلت الزائرين من الغرباء . ولبثت صامتة تنتظر دخول لبابة ، وما لبثت ان سمعت صوت ضحكتها قبل سماع خفق نعالها . وبعد قليل دخلت لبابة وحدهـا فاستقبلتها قطام استقبال المشتاق ودعتها الى الجلوس .

فقالت : «لا أجلس قبل ان ادعو رفيقا لي صحبته لزيارتك» .

فقالت : «اهلا بك وبرفاقك اجمعين . فليدخل» .

فصاحت لبابة للحال : «ادخل يا عبد الرحمن» .

وما أتمت كلامها حتى وقف في الباب رجل طويل القامة نحيف البدن، خفيف اللحية أشمطها ، براق العينين يكاد الشرر يتطاير منهما ، وعليه العباءة والقفطان والعمامة وآثار السفر لا تزال بادية على نواتىء وجهه ، وبخاصة انفه فقد كان شديد الاحمرار . فخلع عبد الرحمن نعله خارج الباب وحيى ودخل . فردت قطام التحية وهي تهم بالوقوف وأشارت اليه ان يجلس ، فجلس الاربعاء مستعرضا سيفه على فخذيه ، فبدأته قطام بالكلام قائلة : «الى من ينتسب ضيفنا ؟»

قال : «الى بني مراد» .

قالت : «والنعم والبركة» .

فقالت لبابة : «انه عبد الرحمن بن ملجم ، من القراء المشهورين ، قرأ على معاذ بن جبل . ولعلك سمعت به» .

قالت : «انت تعلمين حالي يا خالة ، بل انت أدرى مني بما هو شغلي الشاغل من الاحزان والمصائب ، فلم يبق لي عقل أذكر به شيئا غير مقتل اخي وأبي . والسعي في الانتقام من اهل العدوان» . قالت ذلك وأجهشت بالبكاء .

وكان عبد الرحمن ينظر اليها من طرف خفي ، فافتتن بها أيما افتتان، وكان قد سمع بجمالها فود ان يحوزها . ولما لقيته لبابة لم تذكر له شيئا مما عرفوه عن عزمه ، ولكنها قالت له : «علمت بمجيئك الكوفة، وأعلم انك تحب الحسان ، وعندي واحدة منهن ليس اجمل منها في العراق» . فجاء ولما رآها تحقق ما سمعه فشغف بها ، ومن عجيب امر هذا الرجل انه مع عظم ما ندب نفسه له من قتل امير المؤمنين وقرب اليوم الموقوت لم يشغله ذلك عن مغازلة الحسان . فلما سمع كلام قطام ورأى بكاءها قال : «وما الذي يحزن مولاتي ؟ ألا استطيع تفريج كربتها ؟ »

فقالت لبابة : «لا يخفى عليك ما اصابها على اثر وقعة النهروان ، فقد قتل فيها ابوها وأخوها رحمهما الله ، وهي لا تفتأ تذكر تلك المصيبة وذلك اليوم وتبكي ذينك الفقيدين ، ولكنني أريد ان أشغلها عن هذه الاحزان بكفء لها» .

ففهم عبد الرحمن تلميحها فقال : «اني والله اكون اسعد الناس حظا اذا تم لي ذلك الذي أتمناه» .

فتجاهلت قطام وقالت : «وما الذي تتمناه يا سيدي ؟»

قال : «لقد جئتك خاطبا وأنت في احزانك عساي ان استطيع تفريجها ، فاطلبي مني ما تشائين مما تقر به عيناك» .

فتنهدت قطام ثم قالت : «اني لأعجب من تسرعك في الطلب ونحن لم نلتق قبل الان» .

فقطعت لبابة كلامها قائلة : «نعم انكما لم تلتقيا قبل الان ، ولكن لبابة تعرفكما جيدا ، واذا اذنت مولاتي بكلمة فأقول انكما انما خلقتما لتعيشا معا» .

فسكتت قطام فقال ابن ملجم : «ومع ذلك فاطلبي ما تشائين يكن لـك » .

فظلت قطام ساكتة برهة تتظاهر بالحياء والتردد اتماما للحيلة . ثم التفتت الى لبابة كأنها تقول لها : «اني أستحيي ان اقول» . فقالت لبابة: «انا اقول . اجعل مهرها ثلاثة آلاف دينار وعبدا وقينة» .

ولم تتم لبابة قولها حتى صاحت قطام : «لا . لا يرضيني ذلك ولا مطمع لي في المال كما تعلمين» .

فقال عبد الرحمن : «اطلبي ما تريدين» .

فتظاهرت بالتمنع وصبرت هنيهة كأنها تستخف بما اقترحه عليها من الطلب ثم قالت : «ان مهري هو قتل علي بن ابي طالب قاتل ابي وأخي».

فابتسم عبد الرحمن ، ونظر اليها ويده على قبضة سيفه وقال : «ان ذلك وما قالته هذه الخالة سيكونان لك . ثلاثة آلاف دينار وقتل ابن ابي طالب والعبد والقينة . فان مثلك لا يعز في سبيل نيلها مهر . واعلمي اني انما جئت الكوفة لهذه الغاية . انظري الى هذا السيف (جرده فلمع نصله لمعانا شديدا) اني اشتريته بألف وسممته بألف لاقتل عليا بـــن ابي طالب» .

فابتسمت وقالت : «ولكنني ارجو ان يكون ذلك عاجلا لئلا تفوت الفرصة » .

فقال : «ان موعدنا قريب لم يبق منه الا يوم وليلة سأقتله في صباح يوم ١٧ من هذا الشهر اي بعد غد ، فاطمئني» .

قالت : «وكيف عينت اليوم والساعة ، ألا يستحسن ان يكون ذلك

غـدا ؟ »

قال : «ان لذلك سببا سأذكره لك فيما بعد ، فانني مقيد بهذا الموعد في انفاذ مهمتي» .

فسكتت قطام وهي تتجاهل ما علمته من امر المؤامرة .

وكانت لبابة عالمة بغياب ريحان ، ولا بد من زاد يتناوله الضيف ، فدعت عبدها في اثناء قدومها فجاء وأعد لهم طعاما تناولوه .

وما صدقت قطام ان خلت بلبابة لحظة حتى اشارت اليها انها تحب الانفراد بها لامر ذي بال ، فاحتالت هذه على عبد الرحمن حتى استأذن في الخروج الى السوق في حاجة له ، وخلت قطام بلبابة .

***

وكانت لبابة قد ادركت ريحان في الطريق قبـل عثوره علـى عبد الرحمن ، فأمرته ان يسرع ليلقى سعيدا خارج الكوفة وزودتـه بنصائحها لتضمن نجاح مهمته . فسار اولا الى ساحة كبيرة في وسط الكوفة تجتمع فيها القوافل من كل حدب وصوب . ولا بد للقادم الى الكوفة من المرور بها او النزول فيها .

وسمع عن بعد هدير الجمال وصهيل الخيل فلما وصل رأى الساحة غاصة بالدواب وبينها الناس في هرج بين راكب وراجـل ، ورأى الاحمال ملقاة هنا وهناك ، فجعل يتفرس في الوجوه لعله يرى سعيدا او احدا من خدمه ، فلم ير احدا . وذهب الى بيت سعيد يسأل عنه فقيل له انه لم يأت بعد فخرج الى الطريق خارج الكوفة وهو ينظر الى الافق لعله يرى هجانا او فارسا . فمشى ساعتين ولم ير احدا حتى وصل الى شجرة كبيرة استظل بها المسافرون للراحة قبل دخولهم المدينة ولا بد لمن كان قادما من الشام او مصر من المرور بها . فجلس هناك وعيناه تحدقان

في الافق وذهنه يعمل لفتق حيلة تنطلي على سعيد فيستبقيه او يسير به الى بيت قطام . فغربت الشمس ولم يأت احد ، وكان القمر بدرا فلم تكد تغرب الشمس حتى طلع البدر وانعكست الظلال من الشرق نحو الغرب . فاتكأ على حجر وعيناه ترقبان .

وقضى أوائل الليل على هذه الحال ، وكلما رأى شبحا ظنه سعيدا . فاشتد به البرد وهو يصبر ويتجلد . وحدثته نفسه ان يرجع فخاف ان يجيء سعيد في غيابه فيذهب سعيه هباء منثورا ، فالتف بثوبه حتى اذا انتصف الليل غلبه النعاس وهو يتجلد ولكنه لم يقو على سلطان النوم فأغمضت عيناه ، ولكنه لم ينم طويلا حتى استيقظ بغتة أسفا على رقاده خشية ان يكون سعيد قد مر ولم يره . فوقف يفكر في الامر ، حتى دنا الصباح فلم يأت احد ، فخيل اليه ان سعيدا مر في اثناء نومه . فعاد الى الكوفة بأسرع من لمح البصر . يبحث في ساحتها وسار الى بيت سعيد فتحقق انه لم يأت بعد فرجع الى الشجرة وقضى معظم النهار تحتها او حولها كأنه على جمر الغضا . وهو مع ذلك صابر لا يتذمـــــر ولا يتضجر حتى غابت الشمس وطلع القمر . فقال في نفسه : «لم يبق الا هذه الليلة فاذا لم يصل الرجل لم يبق ثمة حاجة الى بقائي اذ يكون قد نفذ السهم وقتل علي» . وتمنى ألا يأتي سعيد فيتخلص هو من الاحتيال عليه لاخذه الى قطام ، وقد قرب أجل الموعد المضروب .

ولما دنا العشاء رأى جملين قادمين عن بعد وعليهما راكبان فاختلج قلبه واصطكت ركبتاه وزاده البرد ارتعاشا . فلما اقتربا وقف وتقدم نحوهما فاذا هما سعيد وبلال عبد خولة ، وكانا ملثمين فعرف سعيدا من قيافته وأما بلال فلم يعرفه .

وكان سعيد قد قضى مسافة الطريق في قلق على الامام . فما كاد يطل على الكوفة حتى قرر ان يسير توا الى منزل علي . فلما وصل الى

الشجرة ترجل وترجل عبده ليستريحا قليلا ثم يستأنفـــان المسير .
فاستقبله ريحان وسلم عليه ، فلما رآه سعيد استأنس به ورد السلام وقال له : «ما الذي جاء بك يا ريحان ؟»

قال : «ان سيدتي مضطربة البال لطول غيابك» . وأشار اليه ان يدنو منه ليبث اليه ما اؤتمن عليه من السر . فدنا منه على انفراد وشغل بلال بأمر الجملين .

فقال ريحان : «ان سيدتي قطام تقرئك السلام وتذكر لك انك اطلت الغيبة عليها انت وسيدي عبدالله» .

فتنهد سعيد وقال : «لا تذكر عبدالله فقد تركناه في مصر» . قال ذلك وهو لا يريد ان يطارح العبد الحديث في مثل هذه الشؤون انفة وترفعا : فسكت ريحان وهو يعلم ان عبد الله أغرق في جملة من أغرقهم عمرو بن العاص في النيل ، ثم قال : «وماذا اقول الان لسيدتي أقادم انت للمبيت عندنا الليلة ، فانها قد أعدت لك كل شيء» .

فلبث سعيد برهة تتنازعه عوامل الشوق الى قطام وبواعث العجلة الى علي . فرأى ان ميعاد القتل قد دنا فاذا بات الليلة في منزل قطام فانه قد يتمتع برؤيتها ويشنف سماعه بحلو حديثها ولكنه يصبح في الغد وقد قتل علي ؛ لان المجرم لا يتأخر عن فعلته الى ما بعد صباح السابع عشر من الشهر . ثم بدا له ان يزورها للتو زيارة قصيرة ثم ينطلق من بعدها الى علي . والتفت الى بلال فرآه مهتما باعداد العشاء فناداه باسمه فأقبل . فلما سمع ريحان اسم بلال اختلج قلبه في صدره ، وتفرس فيه فعرف انه عبد خولة . وكان قد لقيه في الفسطاط وباح له بمهمته ولم يكن يخطر له يومئذ انه سيأتي مع سعيد . فارتبك في امره وحاول اخفاء نفسه لئلا يراه بلال فيعرفه . اما بلال فلما دعاه سعيد أسرع الى ما بين يديه فقال سعيد : «ألا ترى ان نسير توا الى الكوفة ؟» قال بلال : «الامر لمولاي

ولكنني أعددت لك الطعام . ألا ترى ان تتناول منه شيئا ونستريح هنيهة ثم نذهب الى حيث نشاء» .

قال : «ولكن بعض اهلي بعثوا يدعونني الى العشاء» .

والتفت بلال الى ناحية وقوف ريحان فرآه قد تقهقر الى جذع الشجرة يستتر بظلها فلم يره ، وكان سعيد في اثناء الطريق قد استأنس ببلال وأطلعه على خبر المؤامرة . فاغتنم بلال فرصة انفراده به وقال : «ألا ترى يا مولاي ان تتم مهمتنا التي جئنا لها من الفسطاط قبل كل شيء فاني اخاف ان يكون ذهابنا الى اهلك سببا في التأخير ، وهم ربما لا يعلمون الغرض الذي يدعونا الى الاسراع ، وربما حدث لك بعد العشاء ما يعيقك . اما اذا انفذنا مهمتنا وأطلعنا الامام علي ما خبأه له اهل البغي فاننا نمضي بعدئذ حيث تشاء . هذا ما اراه والامر لك . على اني قد أعددت لك الطعام الان فاذا شئت أكلت ثم فعلت ما يتراءى لك» .

فارتاح سعيد لهذا الرأي ، ولكنه اراد ان يخبر بلالا باطلاع ريحان على سر الامر فقال له : «ولا اخفي عليك ان هذا الهمام (وأشار الى ريحان) من جملة الساعين فيما نحن فيه» .

فقال بلال : «اذن فهو يعذرنا اذا رأى اننا نؤثر ان نذهب اولا الى منزل الامام . هلم الان الى طعامك وأنا أهيىء الجملين معه ثم نذهب جميعا بعد انتهائك من الطعام» .

***

سار بلال الى حيث جلس ريحان وراء الشجرة . وكان هذا يحاول ان يختبيء ، وحدثته نفسه بأن يرجع الى الكوفة لئلا يراه بلال فينكشف امره . ولكنه ما لبث ان رأى بلالا قد دنا منه وكلمه فأجابه بصوت

منخفض وهو يتشاغل باصلاح نعليه وشملته لا يرفـــــع نظره اليه • فاستغرب بلال ذلك فتقدم اليه • قال : «تعال يا اخي نقعد ريثـــــا يتناول مولاي طعامه ثم نسير معا» •

فسكت ريحان ولم يجب ، وتظاهر بأنه اضاع عصاه وأخذ في البحث عنها وبلال يتبعه ويعجب لما يبدو منه • فلما بعد ريحان عن ظل الشجرة بانت سحنته فتذكر بلال انه يعرفه ، ثم فطن الى انه هو الذي أسر اليه خبر مهمته في الفسطاط • فأدرك ان في الامر خديعة ، ولاسيما لما رآه يحاول اخفاء وجهه • فتقدم اليه وأمسكه بيده وقال : «تعال يـــــا صاحبي نقعد هنا الى ان ينهض مولانا فنسير معا» • فجذب ريحان يده من يده مغضبا ، فتبعه بلال وهو يقول : «يظهر انك لم تعرفني يا صاح ألا تذكر اننا التقينا في الفسطاط» •

فصاح به ريحان : «وأي فسطاط ؟• اني لا اعـــرف الفسطاط ولا اعرفك ، وليتني لم اعرفك فقد اضعت عصاي بسببك» •

فسمع سعيد صياحه وكان قد جلس الى الطعام ، فنظر اليهما مـــن بعيد ، فرآهما يتحاوران فوقف ونادى عبد قطام قائلا : «لا تغضب يـــا ريحان ان بلالا على دعوتنا» •

فسكت ريحان ، واضطر ان يجيء لئلا يثير الشبهة ؛ ولكنه بقي مصرا على انه لم يذهب الى مصر •

فلما دنا من سعيد قال له : «ما بالك تخاصم بلالا ؟»

قال : «اني لا اخاصمه ، ولكنني اضعت عصاي . وفيما انا ابحث عنها جاءني بحديث لا اعرف له اصلا» •

قال سعيد : «وما ذلك يا بلال ؟ وما الذي قلته له ؟»

قال : «لم اقل له شيئا ، ولكنني تذكرت اني رأيته في الفسطاط منذ بضعة عشر يوما ، فأنكر وتنصل» •

فقال سعيد : «يحق له ان ينكر عليك ذالك لانه لم يبرح الكوفة منذ اشهر » .

فأعاد بلال النظر الى ريحان وتفرس في وجهه وقال : «بل انا على يقين مما اقول ، وقد لقيته هناك غير مرة وقد يعذر علي انكاره ، لان وجوده هناك عاد بشر العواقب على سيدي ورفيقه» .

فبغت سعيد وكانت اللقمة في فمه فلم يستطع ازدرادها ، وكاد يغص بريقه ووقف للحال وقال : «ماذا تقول يا بلال ؟ أظنك تخلط في القول. ان ريحان عبد قطام بنت شحنة . وقد تركته هنا يوم سفري وأنا واثق بأنه لم يبرح الكوفة ، فلعلك رأيت في الفسطاط عبدا اخر يشبهه» .

فلما سمع ريحان اعتذار سعيد عنه اطمأن وقال بهدوء : «يلوح لي انه أخطأ ، لان البشر يتشابهون ، ولكنه سامحه الله جاءني مغضبا وأنا أبحث عن عصاي فأغاظني فأسمعته كلاما مؤلما وها أنذا الان اطلب منه غفران ما فرط مني» . والتفت الى بلال وابتسم حتى يجيز عليه حيلته .

اما بلال فكان في اثناء ذلك يتفرس في ريحان فلا يزداد الا اعتقادا بانه هو الرجل الذي قابله في الفسطاط وحدث ان نادته سيدته خولة وهو يكلمه فذهب اليها وقص عليها خبره كما مر ، فلما آنس منه ذلك اللين ظل يتفرس فيه وهو صامت . فلما أتم ريحان كلامه قال له بلال : «ربما كنت مخطئا في ظني ولكني اسألك سؤالا أرجو ان تجيبني عليه» .

قال : «قل ما بدا لك» .

قال : «ألا تذكر انك رأيت وجهي ؟»

فتفرس فيه ريحان وهو يظنه يقول ذلك بسذاجة . ثم قال : «لا يا اخي . لا أذكر اني رأيتك قبل الان» .

فقال : «يا للعجب ولكنني واثق بأني لقيتك وكلمتك ، فرأيت هـــذا الوجه وسمعت هذا الصوت . فالظاهر انك زرت الفسطاط قبل اليوم» .

قال : «نعم اني صرت اليها منذ بضعة أعوام» .

فضحك بلال وقال : «ولكنك قلت الان انك لا تعرفها» .

فارتبك ريحان وعمد الى المغالطة فقال : «دعنا من هذه الاوهام ولا تشغلنا بما لا طائل تحته» .

وكان سعيد في اثناء ذلك يسمع كلامهما مصدقا ما يسمع .

اما بلال فخاف ان يؤدي سكوته الى ذهاب سعيد مع ريحان . فقال لريحان : «اذا كان الحال كما تقول فعليك ان تساعدنا في انفاذ المهمة التي جئنا من اجلها . دعنا نذهب الى منزل الامام الان» .

قال : «اني أشد رغبة منك في هذا ؛ ولكن الليل طويل ، ويحسن ان يذهب مولاي معي الى سيدتي قطام لتراه ثم يذهب بعد ذلك حيث يشاء» .

قال : «فليذهب هو معك وأذهب انا الى منزل الامام اقوم مقامه».

فضاق ريحان به ذرعا وظهرت البغتة على وجهه فلم ير له مخرجا من المأزق غير التظاهر بالغضب فقال : «ولماذا هذا اللف والدوران ؟ هل بلغ بك الامر الى اساءة الظن بنا ونحن أولى منك بهذا الامر ؟»

فتحقق بلال حينئذ ان ظنه في محله فقال : «نعم اني اسيء الظن وبسيدتك ايضا» .

فخاف ريحان ان يفضي الامر الى افتضاح حاله فتظاهر بالغضب وقال لسعيد : «اني لأعجب من قحة هذا الاحمق ومن سكوت مولاي عليه ؛ وها أنذا اترككما فافعلا ما تشاءان» .

قال ذلك وأخذ يعدو نحو الكوفة ، وظل سعيد وبلال صامتين كأن على رأسيهما الطير .



مضى ريحان وهما ينظران اليه لا يفوهان بكلمة . فلما توارى قال سعيد : «ما الذي اراه يا بلال ؟ اني احسب نفسي في حلم ؟ ما الذي تقوله عن هذا العبد ، أواثق انت انك رأيته في الفسطاط ؟»

قال : «نعم يا مولاي ، وقد زادني ايمانا بذلـــك تناقض اقواله ، وغضبه بعد ما اقترحته عليك» .

قال سعيد : «ما الذي يدعوه الى انكار ذهابه الى الفسطاط ؟»

قال : «يدعوه الى هذا ما ارتكبه من الخيانة هناك . تبا له من نذل، يا ليتني قضيت عليه ، قبل فراره . انه وشى بكما الى عمرو بن العاص» .

فبغت سعيد وبدأت الغشاوة تنحسر عن عينيه ، وتذكر ما قصته عليه خولة من حديث عبدها مع عبد اخر وشى بهما الى ابن العاص ، وانه استغرب يومئذ ان يصل خبر قدومهما الى الفسطاط وهما انما قدما اليها سرا لا يعلم بهما احد غير قطام ولبابة وهذا العبد . فوضح له ان ريحان لا يأتي الفسطاط الا بايعاز من سيدته ، وتذكر ما كان يراه في ابن عمه عبدالله من الشك في قول قطام ، فندم على استسلامه لها وعض على سبابته . وظل واقفا لا يبدي حراكا ، وبلال واقف بين يديه صامتا . ثم التفت الى بلال وقال : «ألا بارك الله في خولة ، انها والله ملاك بعثه الله من السماء لكشف تلك الخديعة . ولكن واأسفاه ، فقد نفذت حيلة قطام في عبدالله فمات غريقا . على انها لن تنفذ في الامام علي بعد ان افتضح امرها قبل دنو الاجل المضروب والحمد لله» . ثم صمت وتذكر حبه القديم لقطام وما أكنه لها من الاخلاص ، وما بذلته هي من الخداع، فعظم الامر عليه وأمست عواطفه تتراوح بين ما انغرس في قلبه من الحب وبين ما انكشف له من المكر السيء ، فلم يملك نفسه عن البكاء . وخجل ان يذرف الدمع امام بلال ، فأومأ اليه ان يهيىء الجمال ، وأدار وجهه الى الخلاء ومشى وأطلق لنفسه عنان البكاء ، ولاسيما وقد تمثل .

اه ما اصاب ابن عمه عبدالله من البلاء بسببه ، فجعل يندبه ويندب سوء حظه ويقول :

«تبا لك يا قطام • أصحيح انك بعثت عبدك الوشاية بنا الى ابن العاص ليقتلنا ؟ اين عهودك وأين وعودك ؟• اين ما سمعته منك من التوبة عن قتل الامام علي ؟• واأسفاه يا اخي عبدالله ، انك ذهبت ضحية غفلتي ودهاء هذه المرأة • آه يا قطام !•• هل يخلق الله قلوبا تقسو الى هذا الحد ؟ (قتل الانسان ما أكفره) • أتسمحين بقتل محب تفانى في سبيل هواك ؟ وتقتلين بريئا حملته غيرته على السعي في انقاذ امير المؤمنين ؟• وتسعين بعد ذلك الى قتل امير المؤمنين وأنت تنظرين • آه لو كان امامي متسع من الوقت لاسرعت الى الانتقام منك قبل الذهاب الى الامام» •

ثم وقف فجأة وانتبه كأنه أفاق من رقاد ، ونظر الى ما حوله فاذا هو في ليلة مقمرة صفا هواؤها ورق نسيمها ؛ فجعل يعيد في ذهنه ما مر به من الاهوال ، وتذكر حبه قطام فغلب عليه طيب عنصره فقال في نفسه : «لعل قطام بريئة ، وربما كان ريحان صادقا وبلال مخطئا» • فسرى عنه بعض الشيء ، ثم ادرك انه انما يخادع نفسه في التماس العذر لها ، وقد تثبت عليها الجريمة • ثم التفت فرأى بلالا قد أعد الجملين وهم بالقدوم اليه فمسح دموعه وتقدم اليه وهو يقول في نفسه : «لقد نفذت حيلتها في اخي عبد الله ؛ ولكنها لن تنفذ في الامام علي • ها أنذا ذاهب الان الى بيته وسأستعين به على قتلها وقتل العجوز المحتالة وذلك العبد الشرير » •

وركب جماه ، وركب بلال في اثره ، وسارا يقصدان منزل الامام علي •

- ١٢ -

مقتل الامام علي واحراق قاتله

كان منزل الامام علي بجانب المسجد ،وبينهما باب السدة يدخل منه الامام للصلاة • وكان للمنزل دار واسعة فيها المقاعد والمجالس لمن يفد عليه من الولاة وأهل الامصار • وبجانب المنزل ساحة واسعة فيها مرابط للخيل ومواقف للجماعات لا تبرح غاصة بجماهير الناس من دعاة الامام، وكلهم متفانون في نصرته معترفون بامامته لا يرون احدا اولى بها منه • وكان اهل العراق وغيرهم قد اجمعوا تلك السنة على نصرته فبايعه منهم اربعون الفا على الموت • ولعله كان ينتظر اتمام صيام رمضان ليحمل على معاوية بذلك الجند العظيم ، غير آبه بمثل ما مر به من حيلة «صفين» وغيرها بعد ان رأى ما قد أدى اليه ذلك من تأييد سلطان معاوية •

وكان الداخل الى مجلس الامام حينذاك يرى رؤساء القبائل يترددون عليه ولا حديث لهم الا ما كان من اجتماع كلمتهم وما يتوقعونه من النصر ويرجونه من احقاق الحق وكبح جماح الطامحين الى الخلافة من غير اهل البيت •

ذلك كان شأن الكوفة في شهر الصيام المبارك • أما علي فلم يكن يشغله عن فروض الصوم والصلاة شاغل، فاذا دنت الساعة وأذن المؤذنون تهافت الناس في صحن المسجد الى سماع ما عهدوا في كلامه من البلاغة وشدة الغيرة على الاسلام والمسلمون • فاذا صعد المنبر رأيت الناس سكوتا كأن على رؤوسهم الطير اعجابا بما يسمعونه من درر ألفاظه وبديع حكمه وبليغ آياته : وهم يعجبون لما قام في أنفس المعارضين ممن تخلفوا

عن بيعته ، وبخاصة الخوارج الذين اختلقوا لمعاداته اسبابا ما أنزل الله بها من سلطان .

وكان اذا فرغ من صلاة المغرب ذهب الى داره ومعه جماعة من الامراء يتقدمهم اولاده وسائر اهله ، فيجلسون الى الاسمطة للافطار . والقراء يتلون القرآن في جوانب الدار ، والكل يسبحون ويهللون حتى يخيل اليك انهم في يوم الحساب ، وما فيهم من يخاف عقابا لما يعتقدونه من صدق دعوتهم وقيامهم بالحق المبين .

وكان الامام اذا فرغ الناس من الافطار وجلسوا للاحاديث اقلهم كلاما . وربما مكث ساعة او بضع ساعات لا ينبس ببنت شفة كأنه يفكر في امر ذي بال ، وربما كان تفكيره فيما يخشاه من سفك الدماء اذا حمل برجاله على الشام ، ونفوس الناس وديعة عنده يضن بها ان تذهب ضياعا ولا يضن بها اصحابها في سبيل نصرته .

* * *

كان ذلك شأنه في اواسط رمضان ، وعلى الاخص في ليلة السابع عشر منه ، وهي الليلة التي بات فيها ابا ملجم يترقب انبلاج الصبح ليقوم بفعلته للفتك بابن ابي طالب . وفي تلك الليلة أسرع سعيد وعبده الى دار الامام لينبئاه بعزم ذلك الرجل .

وما ظنك بابن ملجم في تلك الليلة .. هل تظنه بات رابط الجأش مطمئن القلب ؟. وهل عرف الكرى جفناه ؟. لا نخاله قضى ليلته الا قلقا مضطربا لهول ما عول عليه من الامر الجسيم . وأي شيء افظع من ان يسفك دما بريئا ، دم رجل جنح الى كرامة الخلافة شرف النسب . وأحرز من العلم ما لم يحرزه احد من المسلمين في ذلك العهد ؟. أليس هو ابن عم الرسول وخليفته وصهره ؟. أليس هو ذلك العالم التقي العادل

المخلص الغيور على الاسلام والمسلمين ؟ لا نخال ابن ملجم قضى ليلته الا على شوك القتاد لم يغمض له جفن وقد طال ليله . وربما حدثتـــه نفسه بالرجوع عن عزمه فيغلب عليه عهده لرفقائه ووعده لخطيبته قطام بنت شجنة ، ولاسيما بعد ان اشركت معه في الجرم ابن عم لها يقال له «وردان» حرضته على الاخذ بناصره . ولقي هو رجلا من «أشجع» يقال له «شبيب» استحثه على ركوب ذلك المركب الخشن معه . فتواعـــد الثلاثة على العمل معا في فجر الغد . فهل تظنه بعد تلك العهود والمواثيق يصغي لنداء ضميره ان كان له ضمير ؟

على انك لو سبرت غور قلبه في تلك الليلة وهو يتقلب على فراشه وسيفه المسموم الى جنبه ، لرأيته يناجي نفسه ويدفع تبكيت ضمــــيره بحجة انه عمد الى ذلك دفعا لفتنة كان سببها تنازع على معاوية وعمرو على السلطة ، والفتنة شر من القتل .

وكأن نفس الامام علي حدثته في هذا الاوان بخطر يتوقعه علـــى حياته وكان مذ اهل رمضان يتعشى ليلة عند الحسن وليلة عند الحسين وليلة عند جعفر ، لا يزيد على ثلاث لقمات ، ثم يقول : «احب ان يأتيني امر الله وأنا خميص» . وأما في تلك الليلة فانهم تعشوا جميعا فـــي منزل الامام وهو جالس لا يأكل الا قليلا وأولاده بين يديه ينظرون اليه ويعجبون لحاله .

وكان حاجبه «قنبر» رجلا كهلا من اهل الحبشة اذا نام الامام بات هو عند بابه ، وكان في تلك الليلة أشد الجميع قلقا لم يتناول الافطار ولا هدأ له بال . آكل الناس وهو جالس القرفصاء عند الباب وعينــــاه شاخصتان الى الفضاء يتوقع قدوم قادم وهو لا يكلم احدا ولا انتبه احد لحاله ، ولو سأله احدهم عن علة قلقه لباح له بما اطلع عليه من الاسرار التي ظن انه كشفها وهم يبحثون عنها عبثا .

وبعد صلاة العشاء ارفض المجلس ، فذهب كل الى منزله وناموا جميعا الا «قنبر» فانه لبث ساهرا وقد اخذ الاضطراب والقلق منه مأخذا عظيما • وما سهر للحراسة وهو يعلم ان الامام لا يريد حرسا يحرسه • ولكنه جلس يفكر في امر أذهب رقاده وألقاه في حيرة •

***

اما سعيد وبلال فانهما دخلا الكوفة وأسرعا الى دار الامام علي وكان القمر بدرا او حوالي البدر ، وقد تكبد السماء فأرسل أشعته على ابنية الكوفة ، وقد انقشعت الغيوم عن السماء على غير المعتاد في ذلك الفصل• فلما دخلا الكوفة رأياها ساكنة هادئة لانقضاء ميقات السهر ، وقد نام الناس وهم يتوقعون أذان السحر لينهضوا للسحور •

سار سعيد وهو يستحث جمله وقلبه يرقص طربا لنجاح مهمته لاطلاعه على حيلة قطام قبل فوات الوقت • فلما دنا من المسجد ترجل وقال لبلال: «خذ الجمل وسر به الى ساحة الكوفة وامكث حتى آتيك» •

فعمل بما أمره به ، ومشى سعيد وركبتاه تصطكان من الاضطراب، حتى أقبل على دار الامام فرأى السكون مخيما عليها ، فوقف يفكر كيف يدخل الدار وأهلها نيام ، فتردد خشية ان يظن به السوء لقدومه في ذلك الوقت ، ولم يكن قد دخل الدار من قبل ولا لقي الامام عليا لقاء اهل الولاء • ولكنه لم ير بدا من الاقدام فمشى مترددا حتى دنا من باب الدار فرأى شبحا جالسا لم يعرفه ، ولكنه سر به لعلمه انه لا يبعد ان يكون من رجال علي فيسهل رسالته ، على انه لم يكد يقبل عليه حتى وقف الشبح بغتة واعترضه سائلا : «من القادم ؟»

فقال سعيد وهو يتلجلج : «اني رسول الى الامام علي ، ومن انت؟»

قال : «انا قنبر حاجب الامام • ومن انت ؟»

قال : «اني سعيد الاموي ، أريد مقابلة الامام علي» .

فصاح قنبر قائلا : «أأنت سعيد ؟ تعال معي» .

فسر سعيد لاجابة طلبه توا ، ومشى في أثر قنبر حتى دخلا بـــاب الدار وتوجها الى حجرة فيها مصباح ، فدخل قنبر اولا وأيقظ رجلين نائمين هنالك ، فلم يكد يدخل الحجرة حتى أطبق عليه الرجلان وقيـــدا يديه ورجليه وهو واقف لا يبدي حراكا من هول المفاجأة ، ولما عاد اليه وعيه قال لقنبر : «ماذا تصنعون بي ، وما هذه الوقاحة ؟ اين الامام علي؟»

فأجابه قائلا : «لقد خاب فألك ايها الوغد اللئيم ، انك لن ترى عليا حتى ترى الموت قبله» .

فكاد سعيد ان يجن ، ولم يدرك الباعث على عملهم فصـــاح بهم : «ما لكم تفعلون بي هكذا وقد جئتكم في رسالة لانقذ الامام عليا من القتل » .

قال قنبر : «اخسأ ولا تكثر الكلام ، انك اموي وما اتيت الا لتغتال الامام ، ولكن دون وصولك اليه خرط القتاد» .

فقال : «وكيف اريد به شرا ، وقد جئت لانقاذه من القتل ؟»

فأمسك قنبر بتلابيبه ويداه ترتعدان اضطرابا وقال له «أتظن حيلتك تنطلي علينا ؟ اما كفى بني أمية ما فعلوه ، حتى جئتم تقتلون الامام في عقر داره ؟»

فبهت سعيد ، وجمد الدم في عروقه وقال : «ما بالكم تسيئون بي الظن وأنتم لم تروا مني خيرا ولا شرا ، ألا تسمعون قولي ثم تـــرون رأيكم ؟ »

فقال قنبر : «وماذا تريدنا ان نسمع وأنت أموي اخذ عليك العهـــد لتقتلن الامام علي مهرا لفتاة خطبتها» .

فذهل سعيد وأراد ان يدفع عن نفسه فرأى قنبر قد اخرج من جيبه

رقا دفعه اليه وجذبه بيده الى المصباح وقال له : «اقرأ أليس هذا خطك؟»

فلما وقع نظر سعيد على الرق رآه العهد الذي كتبه لقطام يـوم خطبها ، فأيقن ان قطام هي التي ارسلت هذا الرق الى دار الامام لتوقع به . ورآها لفرط حيلتها قد محت اسمها عنه ووضعت اسم فتاة اخرى فصمت ولم يجب . فاتخذ قنبر سكوته حجة عليه فصاح : «أجب ، قل. أليس هذا خطك ؟»

فارتبك سعيد في امره ولكنه ظل يؤمل ان ينجو اتكالا على النبأ الذي جاء به عن مكيدة ابن ملجم فأجاب : «هب انه خطي ولكنني جئتكم بخبر المكيدة التيكادها بعض الناس للامام. ألا تمهلوني ريثما اخبركم».

فلم يصبر قنبر على سماع كلامه وصاح قائلا : «وأي مكيدة اعظم من ان تتعهد بقتل الامام . امكث هنا الليلة ، وسنرى في امرك غدا» . قال هذا وأوصد الباب دونه .

فلما خلا سعيد الى نفسه في تلك الحجرة ظن نفسه في حلم ، وجعل يفكر في امره وفي دهاء قطام وكيف اوصلت هذه الورقة الى هذا الرجل لاتمام حيلتها . ولكنه لم يكترث لما عامله به قنبر ، وصمم على مقابلـة الامام في الصباح الباكر واطلاعه على سر الامر .

وأما وصول الصك الى قنبر ، فانما سعت فيه لبابة المحتالة باشارة قطام بعد ان تداولتا في اتمام الحيلة مخافة ان يطلع سعيد على مكيدتها قبل وصوله اليها ، او ان يذهب الى منزل الامام قبل المرور بها . فأخرجت ذلك العهد وغيرت فيه ألفاظا رفعت بها الشبهة عنها ، وكلفت لبابة فأتت منزل قنبر في صباح ذلك اليوم بدعوى انها دلالة تبيع الاقمشة وألقت الى قنبر حديثا لفقته بحيث تلبس الشبهة سعيدا فلا يصغي احد الـى كلامه . وكان أنصار علي قد سمعوا اشاعة اعتزام بعض الناس قتـل الامام . فلما رأى قنبر الصك وعلم ان صاحبه أموي ربي في بيت عثمان

وقام بنصرته لم يبق عنده شك في اجرامه ، ولاسيما بعد ان رآه قادما قدوم اللص بعد منتصف الليل . فلما قبض عليه حبسه الى صباح الغد ليرى الامام رأيه فيه بعد ان يعود من صلاة السحر .

اما بلال فانه مكث بالجملين في ساحة الكوفة ينتظر قدوم سعيد. فلما ابطأ عليه قلق ، ولكنه لم يظن سوءا لما يعلمه من سلامة نية سعيد . وفيما هو جالس يفكر في ذلك سمع أذان السحر وكان يعلم ان عليـــا يخرج في تلك الساعة للصلاة فهرول الى المسجد فدخله فرأى فيه قبة مضروبة علم انها قبة بعض النساء ممن يجلسن لسماع الصلاة . فوقف يجيل نظرة لعله يرى سعيدا . فاذا برجال دخلوا وفيهم رجل ملثم وقد التف بعباءة يخفي تحتها سيفا فتفرس فيه عن بعد فرأى على جبهته أثر السجود فعلم انه ابن ملجم ، فارتعدت فرائصه وحدثته نفسه ان يصيح به ولكنه خاف على نفسه ولم يكن يشك في ان عليا قد اطلع على سر المؤامرة فلا يلبث ان يدخل المسجد ويأمر بالقبض عليه ، ثم رأى ابا ملجم وقد توجه ومعه رجل اخر هو شبيب نحو تلك القبة فكلما من فيها ، وكان فيها قطام بنت شحنة ، ثم مشى ابن ملجم حتى اقترب من السدة وبلال يرقبه ويتوقع سماع الامر بالقبض عليه حالما يدخل علي .

وبعد هنيهة ، فتح باب السدة ، ودخل منها الامام علي وهو يمشي الهوينى وعمامته على رأسه تغطي صلعته وكان ذا بطن ولحية كثيرة الشعر ضخم العضل وفي يده درة (سوط) كان يوقظ بها الناس للصلاة كـــل صباح ، فمشى الامام وابن النباح المؤذن بين يديه والحسن ابنه خلفه. فلما دخل أنصت الناس وبلال ينظر اليه موقنا انه سينادي من يقبض على ابن ملجم ،فاذا به قد وقف ونادى : «ايها الناس الصلاة الصلاة» .

والتفت بلال الى ابن ملجم فاذا هو لا يزال واقفا لكن رفيقـــــه (شبيب) تقدم مسرعا وسيفه بيده فضرب به الامام عليا فأصاب عضادة

الباب وسقط السيف من يده فأجفل بلال وهم بأن يسرع الى علي يخبره بأمر ابن ملجم فاذا بابن ملجم قد اقبل على علي بأسرع من لمح البصر والسيف يبرق في يده وضربه على جبهته وهو يقول : «الحكم لله يا علي وليس لك ولاصحابك» .

فصاح علي : «فزت ورب الكعبة» . ثم قال : «لا يفوتنكم الرجل» .

فتكاثف الناس على ابن ملجم فدفعهم بسيفه ففرجوا عنه فهجم عليه المغيرة ابن شعبة وتلقاه بقطيفة فرماها عليه واحتمله وضرب به الارض وقعد على صدره وانتزع السيف منه . وأما شبيب فأفلت في الغلس وخرج من المسجد هاربا .

وانفرط عقد الناس ونظر بلال الى القبة المضروبة فرأى امرأة خرجت من تحتها واذا هي قطام اسرعت وفرت في غمار الناس . فذهل لما رآه ولكنه أمل ألا تكون الضربة قاضية ، ثم تذكر ان سيف ابن ملجم مسموم فيئس من نجاة الامام ، وجعل يتفرس في الناس لعله يرى سعيدا فلم يقف له على أثر فتقدم فيمن تقدم الى السدة حيث كان علي مطروحا فسمعه يقول : «أحضروا الرجل» . فأحضروه اليه .

فقال له علي : «اي عدو الله .. ألم أحسن اليك ؟!»

قال : «بلى» .

فقال : «فما حملك على هذا ؟»

قال : «شحذت سيفي هذا اربعين صباحا ، وسألت الله ان يقتل به شر خلقه» !

فقال علي : «لا اراك الا مقتولا به ، ولا اراك الا شر خلق الله» . ثم التفت الى من حوله وقال : «النفس بالنفس ان هلكت فاقتلوه كما قتلني ، وان بقيت رأيت فيه رأيي . يا بني عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قد قتل امير المؤمنين . ألا لا يقتل الا

قاتلي . انظر يا حسن ان انا مت من ضربني هذه فاضربه بضربة ، ولا تمثلن بالرجل فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (اياكم والمثلة ولو بالكلب العقور) ..»

قال ذلك وابن ملجم موثق ، وكانت أم كلثوم ابنة علي واقفة بجانب ابيها فقالت لابن ملجم : «أي عدو الله لا بأس على ابي والله مخزيك» . فالتفت اليها ابن ملجم وقال : «على من تبكين ؟ والله ان سيفي اشتريته بألف وسممته بألف ولو كانت هذه الضربة بأهل مصر ما بقي منهم احد» .

ثم تقدم جندب بن عبد الله الى علي وقال : «ان فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن» .

قال علي : «ما آمركم ولا أنهاكم ، انتم أبصر» .

ولما عام الناس ان سيف ابن ملجم مسموم ايقنوا دنو أجل الامام ، وخافوا الفتنة فيمن يخلفه ، ولكنهم بعد ان سأله جندب بن عبد الله ما سأله عمن يخلفه فأجابه بأنه لا يأمرهم ولا ينهاهم ، لم يسعهم الا تأجيل النظر في الامر ، ثم نقلوه الى داره ماشيا وهو يتوكأ على ولديه الحسن والحسين والدم يغشى جبينه وكأن السم لم يفعل فعله بعد .

اما ابن ملجم فكان لثامه قد وقع عن وجهه وبانت سحنته ، وكان اسمر أبلج في جبهته أثر السجود ، فساقوه الى السجن ولو لم يوص امير المؤمنين بألا يقتلوه الا اذا مات هو من الضربة لقطعوه اربا اربا . ولكنهم اضطروا امتثالا لامر الامام الى ان يسوقوه الى السجن ريثما تظهر عاقبة الجرح .

اما بلال فسار في اثر الجمع الى منزل الامام علي ، وقد راعه ما رآه من هول تلك الساعة ، ومما زاد في اسفه وضاعف حزنه ما اصابه من الفشل بحبوط مسعاه ومسعى سيدته ، لانه انما كان يود نجاة الامام من تلك المؤامرة اكراما لمولاته خولة ، ولاسيما بعد ان صحب سعيدا وسمع

منه في اثناء الطريق ما حدثه به جده ابو رحاب عن فضائل الامام علي التي يندر اجتماعها في رجل .

على انه كان مع ذلك في شاغل عما كان فيه الناس من الاضطراب والاهتمام والانهماك بأمر الامام وجرحه بالتفكير في سعيد وحاله ، وقد عجب لفشله في مهمته مع علمه انه انما أسرع بعد طول مشقة السفر وسعى في منتصف الليل لينبىء القوم بالخطر الداهم ، فمشى وهو يتفرس في الناس واحدا واحدا لعله يرى سعيدا بينهم فلم يقف له على اثر . على انه ما لبث ان رأى الجمع دخلوا المنزل وأدخلوا الامام محمولا الى حجرته ، وتفرق الباقون في صحن الدار جماعات ، وحديثهم يدور حول الحادث ، وما عسى ان يصيب الاسلام بعده مما لم يكن في الحسبان ، وما فيهم الا من يقول : «ليتني أشفي غليلي بضرب عنق ذلك الباغي» .

وفيما هو ينظر في وجوه الناس لعله يرى سعيدا ، اذا بقنبر حاجب الامام علي قد خرج من الغرفة والدمع ملء عينيه وهو يقول : «اقتلوني ايها المسلمون ، اقتلوني اني جنيت على امير المؤمنين» .

فنهض الناس والتفوا عليه وهم لا يفقهون حديثه ، فاذا به قد اخترق الجمع ومشى الى الحجرة التي كان سعيد مسجونا فيها وفتحها وأخرج سعيدا منها وهو ما زال في اغلاله .

ولم يكن سعيد قد درى بما اصاب الامام عليا . فلما اخرجه قنبر على تلك الصورة ورأى الجمع متكاثفا ظنهم يريدون به سوءا . فقال : «أروني الامام عليا فأطلعه على دسيسة دبرها له اهل البغي ولا تظنوا بي سوءا» .

فعلا صوت قنبر بالبكاء وقال : «لقد نفذ السهم يا سعيد ، انهم فتكوا بأمير المؤمنين» .

فصاح سعيد : «ومن فتك به ؟»

قال : «ابن ملجم ، ضربه ضربة قاتلة قتله الله» .

فصاح سعيد : «ويلاه ، واحسرتاه ، كيف يقتله وقد قطعت البراري والقفار سعيا في تلافي المصاب ؟. ألم اقل لك ذلك يا قنبر ؟»

قال : «انك لم تفصح المقال ، وقد نفذ السهم وجرح الامام جرحا لا أظنه ينجو منه . ولو اصغيت اليك لنجا امير المؤمنين ، لقد وقع القضاء ولا مرد لقضاء الله» .

ولم يتم قنبر كلامه حتى بكى سعيد وبكى الناس ، وعلا الصياح وهم مبهوتون ينظرون الى قنبر يتوقعون منه تفصيلا لما أجمل .

اما هو فاشتغل بحل قيود سعيد وهو يقول : «قاتل الله تلك العجوز المحتالة ، انها اغرتني بك وقد نجحت حيلتها» .

فهم سعيد بأن يقص حديثه على اثر ما رأى من رغبة القوم في ذلك فاذا ببعض الناس يقول : «ان الامام في عافية وهو يحدث ابنيه الحسن والحسين» .

فتحول الجمع الى غرفته كالسيل . وانتهز بلال تلك الفرصة فدنا من سعيد كأنه يستفهمه سبب فشله في مهمته . فقص عليه الخبر باختصار، ووعده باتمام الحديث في فرصة اخرى . وسار مع الجمع الى غرفة الامام فلم يستطع الدخول اليها لتزاحم الاقدام . فأطل من نافذة فرأى عليـا متوسدا فراشه وهو معصوب الرأس بمنديل يغطي الجرح وكانوا قد غسلوا الدم عن وجهه ولكن آثاره بقيت ظاهرة على لحيته .

فتذكر سعيدا جده ابا رحاب وما أوصاه به فأجهش بالبكاء . على انه ما لبث ان سمع عليا يتكلم فوجه اليه انتباهه فرآه يخاطب ولديـــه الحسن والحسين وهما جاثيان عند رأسه وقد اشتد بهما الحزن ، ولكنهما يتجلدان تجلد الرجال ، وهما ينصتان وأعينهما شاخصة في وجه الامام

الجريح ، والناس سكوت وكلهم آذان يسمعون ما يتلوه الامام من الآيات البينات وهي اخر خطبة القاها ، فاذا هو يقول :

«أوصيكما بتقوى الله ، ولا تبغيا الدنيا وان بغتكما ، ولا تبكيا على شيء زوى عنكما ، وقولا الحق ، وارحما اليتيم ، وأعينا الضائع واصنعا للاخرى ، وكونا للظالم خصيما وللمظلوم ناصرا ، واعملا بما في كتاب الله ، ولا تأخذكما في الله لومة لائم» .

ثم نظر الى محمد بن الحنفية فقال : «هل حفظت ما أوصيت به أخويك ؟»

قال : «نعم» .

قال : «فاني اوصيك بمثله ، وأوصيك بتوقير أخويك لعظيم حقهما عليك ، ولا تقطع امرا دونهما» ، ثم قال لهما : «أوصيكما به فانه اخوكما وابن ابيكما ، وقد علمتما ان أباكما يحبه» ، وقال للحسن : «أوصيك اي بني بتقوى الله واقامة الصلاة لوقتها وايتاء الزكاة عند محلها ، وحسن الوضوء فانه لا صلاة الا بطهور ، وأوصيك بغفر الذنب ، وكظم الغيظ ، وصلة الرحم ، والحلم عن الجاهل ، والتفقه في الدين ، والتثبت في الامر ، والتعهد للقرآن ، وحسن الجوار ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واجتناب الفواحش» .

* * *

وما أتم وصيته حتى أجهد وتعب من الكلام وما كان العهد به ان يتعب من الوعظ والخطب ساعات متوالية . ثم أمر بتلك الوصية فكتبت ودفعت الى الحسن ، ولم ينطق الامام بعد ذلك الا بقوله : «لا اله الا الله» . حتى مات فعلا الضجيج وزاد العويل والبكاء . ثم غسله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر وكفن بثلاثة أثواب ودفن .

ولما رأى سعيد وقوع المصاب تذكر قطام وخبثها وقال في نفسه : «والله لم يقتله الا هي ولولاها لم يقتل امير المؤمنين» .

وفيما هو يفكر في ذلك ويبكي جاء قنبر فقبض على يده وجسره فسار في اثره وهو لا يدري ما يريده منه . وسار بلال في اثرهما حتى دخلوا سجن ابن ملجم وكان مغلولا هناك . فلما دخلوا عليه هم سعيد بالكلام فقال قنبر : «تمهل لنرى ما يقول هذا اللعين» . فلما رآهم ابن ملجم قادمين عليه ظل جالسا ولم يعبأ بهم ، ولكنه خاطب قنبر قائلا : «أظنك جئت تدعوني الى النطع ، لان صاحبكم مات» .

قال : «الى ذلك جئت ، ولكنني اسألك عن هذا الرجل هل تعرفه ؟» (وأشار الى سعيد) فقال : «كلا» .

وكان قنبر قد اراد ان يتحقق براءة سعيد ، وقد شك في اشتراكه مع ابن ملجم في المؤامرة . فقال له : «ألم يكن لهذا الاموي يد معك في القتل ؟» .

فتبسم ابن ملجم وقال : «انه أضعف من ان يقدم على ذلك . اني لا اعرفه» .

---

١ ـ هذا ما رواه ابن الاثير من امر مقتل الامام ، وذكر صاحب تاريخ الخميس انه توفي صبيحة يوم ١٧ رمضان مثل صبيحة بدر . وقيل ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة من سنة اربعين (عن ابي عمر وابن عبد البر) . وفي الصفوة قال العلماء بالسير : ضربه عبد الرحمن بن ملجم بالكوفة يوم الجمعة لثلاث عشرة بقين من رمضان ، وقيل ليلة احدى وعشرين منه سنة اربعين ، فبقي الجمعة والسبت ومات ليلة الاحد ، وقيل يوم الاحد . وغسله ابناه وعبد الله بن جعفر ، وصلى عليه الحسن ، ودفن في السحر. وقالوا غير ذلك مما ليس هنا مكان تحقيقه . وذكروا انه دفن في مسجد الكوفة وقيل حمل الى المدينة ودفن عند فاطمة ، وقيل غير ذلك .

فقال بلال : «هل تعرف قطام بنت شحنة ؟»
قال : «اعرفها وهي خطيبتي ودم ابن ابي طالب مهرها» .
فصاح فيه قنبر : «اخسأ يا لئيم انك ملاق حتفك قريبا ، قم الى الموت» .
اما سعيد فلما سمع قوله ان قطام خطيبته اشتد حنقه وغيظه من تلك المرأة ، وقال في نفسه : «اني والله سآخذ بالثأر منها بيدي» .
وكان الحسن هو الذي أمر باحضار ابن ملجم ليقتله عملا بوصية ابيه ، فلما حضر بين يديه ، نظر الى ما حوله فرأى الناس ينظرون اليه بأعين تلتهب حنقا وكل يود ان يقتله بيده ، فلم يعبأ بما رأى ، ولم يصبر حتى يكلمه احد منهم فنظر الى الحسن وقال : «هل لك في خصلة ، والله قد أعطيت الله عهدا ألا أعاهد عهدا الا وفيت به ، واني عاهدت الله عند الحطيم ان اقتل عليا ومعاوية او اموت دونهما ، فان شئت خليت بيني وبينه . فلك عهد الله على ان اقتله ثم بقيت ان آتيك حتى اضع يدي في يدك» .
فقال له الحسن : «لا والله حتى تعاين النار» .
وكان الناس قد جاءوا بالنفط والبواري والنار وقالوا : «نحرقه» .
فقال عبد الله بن جعفر والحسين بن علي ومحمد بن الحنفية : «دعونا نشف ما في انفسنا منه» ، فقطع عبدالله بن جعفر يديه ورجليه ، فلم يجزع ولم يتكلم ثم كحل عينيه بمسمار محمي فلم يجزع ، وجعل يقول : «انك لتكحل عيني عمك بمكحول محمص» . وجعل يقرأ : «اقرأ باسم ربك الذي خلق» . حتى اتى على اخر السورة وان عينيه لتسيلان على خديه ، ثم امر به فعولج على لسانه لقطعه فجزع فقيل له : «قطعنا يديك ورجليك وسلنا عينيك يا عدو الله فلم تجزع فلما صرنا الى لسانك جزعت» .
قال : «ما ذاك من جزع الا اني اكره ان اكون في الدنيا فواقا لا أذكر

الله» . فقطعوا لسانه ثم جعلوه في قوصرة فأحرقوه بالنار .

ولما اشتم سعيد رائحة القتر المتصاعد من بقايا ابن ملجم شفـــي بعض غيظه . ولكن قوله : «ان قطام خطيبتي وان قتل علي مهر لها» . بقي يرن في أذنيه . وازداد تعجبا من دهاء تلك المرأة واستغرب ان يكون في النساء واحدة في مثل ذلك الدهاء . وتذكر ما حدث له معها مـــن الوعود وما ارتكبته في سبيل الانتقام لابيها وأخيها من الجرائم ، وكم قتل بسببها من الرجال وعبدالله ابن عمه في جملتهم . فاتقد غيظا وظل برهة غارقا في هواجسه لا ينتبه لما يدور حوله من الاحاديث ولا يفقه شيئا من انهماك الناس في مبايعة الحسن . ولم ينتبه حتى ناداه بــلال فلباه فقال : «هلم بنا يا مولاي من هنا ان لي كلاما اقوله لك» .

قال : «هيا بنا» ومشيا ولم ينتبه لهما احد لاشتغال الناس بالمبايعة.

وعادا توا الى ساحة الكوفة حيث تركا الجملين . وسارا من هناك الى منزل سعيد . وكانا في اثناء الطريق يلتقيان بأهل الكوفة مسرعين زرافات ووحدانا الى منزل الامام علي على اثر ما سمعوه عن مقتله . وهما لا يكلمان احدا .

ولم يكن سعيد قد دخل منزله منذ ذهابه الى الفسطاط فلم يجد فيه احدا لان الخدم ساروا في جملة السائرين الى منزل الامام . وكـــان التعب قد اخذ منه مأخذا عظيما لهول ما قاساه بعد سفره الطويل . فدخل الدار من باب خاص به وترك بلالا يهتم بالجملين . وبدل ثيابه وهـــو يفكر فيما رآه من الاهوال وما يتوقعه بعد موت الامام علي من تغير المآل.

ثم توسد وسادة يلتمس الراحة وهو يفكر فيما يتوقع سماعه من بلال ولكن التعب تغلب عليه وغلب عليه النعاس فنام . ودخل بلال عليه فرآه نائما فتوسد مقعدا في غرفة اخرى ، وأخذ يتهيأ لمكاشفة سعيد بما يجول في خاطره من الشؤون حتى نام .

ظل سعيد وبلال نائمين حتى الغروب فأفاق سعيد على صوت الخدم وهم يفتحون الباب بعد عودتهم ، وقد بغتوا لما رأوا سيدهم هناك على غير انتظار .

اما هو فعذرهم لغيابهم ودعا بلالا فوقف بين يديه فدعاه للجلوس فاستأذن في اغلاق الباب دونهما . فأمر خادما فأضاء له مصباحا وضعه على مسرجة وخرج . فأغلق بلال باب الغرفة وجلس الى سعيد والاهتمام باد على وجهه .

فقال سعيد : «قل يا بلال ما بدا لك» .

قال : «أيأذن لي سيدي في ان اسأله ما الذي دعا الى فشـــل مهمته ؟ »

فتنهد سعيد وقال : «ان السبب قديم يا بلال لم اكن لأقصه عليك لو لم آنس منك ما آنسته من الغيرة والمروءة» .

قال بلال : «ولم يكن من شأني ان اسألك عنه لو لم ألحظ من خلال الاحداث ما يشف عن بعض السر ، ولعلي اذا اطلعت على حقيقة الحال ان آتيك بخبر جديد» .

قال : «لا اخفي عليك ان السبب في فشلي امرأة أظنك سمعت اسمها في هذا الصباح من فم ابن ملجم» .

قال : «أظنها قطام بنت شحنة» .

قال : «نعم ، قبحها الله من داهية محتالة . فانها كانت سببا في قتل ابن عمي وقتل الامام وابن ملجم . ولا يخفى عليك ان قتل الامام لا يقتصر شره على قتل النفس ولكننا نخاف منه الفتنة . ولا ريب في انها ارادت ايضا ان تقتلني بوسيلة دبرتها» . وقص عليه حديثه مع قطـــام مختصرا من اول معرفته بها الى تلك الساعة .

فلما فرغ سعيد من كلامه عض بلال على انامله وتحرق ثم تنهـــد

وسكت .

فقال سعيد : «ما بالك يا بلال ، وما الذي يدعوك الى التنهد ؟»

قال : «يدعوني اليه ندمي على ما فاتني من القبض على هذه المرأة في صباح هذا اليوم لاني رأيتها في قبتها بالمسجد وقد مر بها ابن ملجم ورفيقه فكلماها قبل اقدامهما على تلك الفعلة الشنعاء ، ولكنني كنت أظن عليا والهفي عليه قد علم منك بما ينويه ابن ملجم فلا يترك له فرصـــة لارتكاب ذلك المنكر . وقد رأيت بنت شحنة خارجة من المسجد بعد ان تحققت نيل بغيتها بقتل الامام ، فيا ليتني قبضت عليها . ولكن ما قدر كان . وقد قتل الامام وقتل قاتله والامر في ذلك لله . على انني اذا عشت فسأنتقم لك وللاسلام من هذه الفاجرة . ومن غريب الاتفاق ان ابن ملجم هذا كان قد خطب سيدتي خولة من ابيها ولكنها لم تكن تحبه ولم ترض به» .

ولم يكن بلال عارفا باطلاع سعيد على هذا الخبر من خولة فلم يشأ سعيد ان يعترف له به فظل صامتا ليسمع بقية الحديث .

فقال بلال : «ولا شك ان سيدتي خولة ستفرح اذا سمعت بمقتل هذا الغادر لنجاتها من شركه» .

قال سعيد : «وما الذي يحملها على قبوله اذا لم تكن ترغب فيه ؟»

قال : «ان أباها هو الذي اطمعه بها ووعده بزفافها اليه ، اما هـــي فانها كانت قد عزمت على رفضه مهما تكن العاقبة» .

تذكر سعيد حديث خولة ، وتمثلت له صورتها ملكا كريما وما هي عليه من الحمية والانفة والمروءة ، وما شعر به من الميل اليها يوم لقيها في الفسطاط ايام كان لا يزال مخدوعا بمواعيد قطام ومشغولا بأمر الامام علي ، فلم يترك لقلبه يومئذ مجالا للحب ، فلما سمع ذكرها الان تجددت ذكراها وأحب ان يسمع حديثها عنها فقال : «هل انت واثق من انها كانت

مصممة على رفضه ولو اغضبت أباها ؟»

قال : «نعم اني واثق بما اقول وقد لحظت شيئا اخر ..» . وسكت وهو يبتسم .

قال : «وما هو ؟» . قال : «ألم تلحظه انت ؟»

قال : «كلا وما هو ؟. قل» . قال : «لحظت انك وقعت من نفسها موقعا عظيما ، ولحظت ايضا انك لم تجهل ذلك» .

قال : «كيف عرفت اني لم اكن اجهله ؟»

قال : «عرفته مما رأيت من خروجها اليك غير مرة ليلا ، التماسا لنجاتك وهي تستجهلني ولا تنتبه الي . ولكنك كنت في شاغل يومئذ بلهفتك على انقاذ الامام علي من كيد الحاقدين» .

فعجب سعيد لما ظهر له من اطلاع بلال على سره ، وتذكر انه شعر بشيء منه يوم كان في الفسطاط وان اشتغاله بأمر الامام وخوفه عليه مع تعلقه بقطام وعهودها حال بينه وبين تمكين حبل المودة مع خولة . فلما سمع ما سمعه من بلال ساعتئذ احب ان يستطلع جلية الخبر فقال له : «افصح عما في نفسك اني لم افهم مرادك» .

فقال بلال : «ان مرادي واضح مما ذكرته لك ، وها أنذا افشي لك سرا هو ان مولاتي خولة حين امرتني بأن اسير في ركابك ، اوصتني بأن أنتظر حتى نكشف دسيسة ابن ملجم وننقذ الامام عليا ثم اطلعك على رغبتها في عودك الى الفسطاط لانها تكون قد نجت من خطبة ابن ملجم وتكون انت قد فرغت من مهمتك ، ولا ادري ما تنويه هي في رجوعك؟»

ففهم سعيد ما وراء ذلك فقال له : «اما رجوعي الى الفسطاط فلا يخلو من مجازفة لما في ذلك من الخطر علي لاني انما جئت منها فرارا من القتل . فاذا عدت فانما أعرض نفسي لما هو شر من القتل ، وابن العاص لا يعفو عني ، ناهيك بكرهي لبلد فقدت فيه ابن عمي» . وسكت هنيهة

وتنهد ثم قال : «وهل انت واثق من ميلها الي . فاني والحق يقال رأيت في خولة من الحمية وعزة النفس مع التفاني في نصرة الامام ما جعل لها في نفسي مقاما رفيعا . ولا اكتمك ما خالج قلبي يومئذ من الميل اليها ولكنني كنت عالق القلب بقطام أخزاها الله فانها خدعتني» .

فابتدره بلال قائلا : «لا تذكر هذه الخائنة يا مولاي ، اني والله أكره ان أسمع ذكرها ، لاني اشعر بقصوري وجهلي اللذين سببا نجاتها . وهي والحق يقال اصل هذا الشر العظيم .. ففي سبيل انتقامها لابيها وأخيها ارتكبت اعظم اثم حدث في الاسلام فقتلت ابن عم الرسول (صلعـــم) ولكنني سوف أذيقها حتفها وأسفك دمها ولو بذات في هذا حياتي» . قال ذلك وهو يحرق اسنانه حنقا وأسفا .

فقال سعيد : «وما ظنك بها الان .. أباقية هي في الكوفة ؟»

قال : «لا أظنها تبقى بعد ما ارتكبته فيها . وقد افتضح امرها وعلم الخاص والعام انها شريكة في القتل» .

قال : «وأين تراها تذهب ؟»

قال : «لا ادري ، وسأبحث في ذلك صباح الغد ، اما الان فلنعد الى ما كنا فيه فانك اذا لم ترجع معي الى الفسطاط احسبني مقصرا فيما عهد الي فيه . وخولة يا مولاي يندر مثلها بين البنات جمالا وتعقلا وانفة . ولولا ابوها وتشيعه لمعاوية لاتت بما لم يأته اعاظم الرجال . ولكنه كثير التشيع لابن ابي سفيان وكثيرا ما كانا يختلفان امامي ويختصمان على أمور استدل منها على ذلك» .

* * *

وأحس سعيد بعاطفته تتجدد ، وشاقه حديث خولة وتاقت نفســـه

اليها ، ولكنه استثقل الذهاب الى الفسطاط مخافة الوقوع في قبضة عمرو بن العاص . ثم تذكر ان المتآمرين كانوا قد اجمعوا على قتله وقتل معاوية في مثل ذلك اليوم ، فقال : «ألم اخبرك ان اثنين اخرين تآمرا على قتل ابن العاص ومعاوية ايضا» .

قال : «بلى اخبرتني ولكنني لا اخاف على ابن العاص الوقوع في الشرك» .

قال : «وما الذي ينجيه منه وهو لا يدري ما يمكرون ، فاذا فتكوا به سهل علي الدخول الى الفسطاط ويكون ذلك اسهل ايضا اذا قتل معاوية في الشام» .

قال بلال : «ان البحث عن ذلك يحتاج الى وقت ، ولا بد لنا من التربص حتى تأتينا الاخبار او ان نذهب نحن للبحث عنه» .

قال سعيد : «لا صبر لي على الانتظار ، ولا أظنك تصبر عليه . فأرى ان تسير انت على عجل الى الفسطاط تستطلع جلية الخبر ، وتعود باليقين . واذا جعلت طريقك على الشام جئت بالخبرين معا» .

قال : «امرك يا سيدي . وأنت ماذا تفعل ؟»

قال : «ابقى هنا للبحث عن تلك الخائنة قطام ، فاني اتوق للانتقام منها . فاذا لم أوفق الى ذلك عشت منغص العيش طول عمري . انها قتلت ابن عمي وأمير المؤمنين وكادت تقتلني !»

قال : «بالله دع امرها لي ، فاني اريد ان اشفي غليلي منها ومن عبدها الزنيم ريحان لا اراحه الله ، ولكنني ارى سفري الى الفسطاط ادعى الى العجلة» .

فأعجب سعيد بحماسة بلال ، وزاد ميلا اليه وشوقا الى خولة . وأخذ يعيد الى ذهنه ما آنسه فيها من الخلال الحميدة والغيرة عليه ، وكيف كان

التفاؤه بها سببا في نجاته من القتل ليلة ذلك الاجتماع . فضلا عما رآه فيها من الغيرة على امير المؤمنين . ولكنه لم يكد يذكر عاقبة ذلك السعي وحبوط ما دبره حتى اشتعل غيظا ، ولكنه لم ير حيلة فيما مضى فقال : «لقد قضي الامر يا بلال ولم تبق لنا حيلة فيما مضى ، فاذهب انت الى الفسطاط وعرج في طريقك على الشام ثم عد الي بالخبر اليقين عن عمرو ومعاوية . وأما انا فاني باق هنا ابحث عن قطام وعجوزها وعبدها ، فاذا عدت فوافني الى هذا المنزل» .

قال : «وخولة ؟ ماذا اقول لها ؟»

قال : «اذكر لها ان شوقي اليها لا يوصف ، وان ما عندي أضعاف ما عندها ، ولها مني عهد الله ان لن ينالها سواي» .

قال : «اما رضاها فأنا الضمين لك به» . وسكت بلال وقد ابرقت أسرته سرورا بما سمعه . ثم قطب وجهه بغتة وقال : «ولكن هب ان ابن العاص ما زال حيا وأبوها كما تعلم شديد التشيع له فلا أظنه يرضى بك زوجا لها ، فما الحيلة ؟»

قال : «هذا راجع الى اختيارها ، ومتى عدت الي بالخبر تتدبر الامر في حينه ، اما الان فلا نضيع الوقت . امض الى الفسطاط على عجل وعد الي بالخبر اليقين وعلى الله الاتكال» .

فأخذ بلال يستعد للرحيل ، وسعيد صامت يفكر فيما هو فيه . وأصبح الحصول على خولة شغله الشاغل ، ولكن فشله في انقاذ الامام أثار فيه حب الانتقام من قطام . فصمم على الفتك بها اما بيده واما بمساعدة الحسن بعد تبوئه عرش الخلافة .

- ١٣ -

نجاة عمرو بن العاص

فلنترك سعيدا وبلالا على حالهما ، ولنعد الى خولة في الفسطاط . فقد تركناها عائدة في ذلك الليل الى منزلها على طريــق عين شمس . وكان ابوها قد حسبها فيه . فلما اخرجها سعيد منه وسارا معا الى الدير ثم خرجت هي وحدها لم تر خيرا من ان تتظاهر بالبكاء والخوف فهرعت الى منزل ابيها باكية وكان هو لا يزال غائبا يتداول مع عمرو بن العاص في شأن الذين قبض عليهم في ذلك اليوم . فلما فرغ من امرهم وحرض ابن العاص على اغراقهم سار الى محبس ابنته فرأى الباب مفتوحا وليس هناك احد . فاستغرب الامر وعاد توا الى منزله فرأى خولة جالسة في غرفتها تبكي . فتجاهل سبب بكائها وقال : «ما بالك يا خولة ؟»

قالت : «كيف تتركني وحدي في ذلك البيت ألم تخف علي من ابناء السبيل ؟ »

قال : «ألم تري اني اقفلت الباب وأوصدته خوفا عليك من ذلك ؟»

قالت : «كيف تفعل بي هذا ؟ أعاصية انا امرك ؟» . واستغرقت في البكاء .

فتحركت فيه عاطفة الأبوة ، وظنها تقول ذلك عن سذاجة فقال لها : «وكيف خرجت ؟»

قالت : «لما رأيت نفسي حبيسة هناك خفت على حياتي فجعلت أناديك وأستغيث بك ، ثم سمعت قرقعة وضجيجا ووقع حوافر كثـــيرة فازداد خوفي فصحت واستجرت، فقيض الله لي رجلا فتح الباب بالعنف فخرجت وهرولت الى البيت وأنا أرتعد من شدة الاضطراب» .

فطيب خاطرها ولامها على خوفها ، ولكنه سر لظنه ان حيلته قد انطلت عليها ، وما زال يهون عليها حتى تظاهرت بالرضاء فتركها وخرج وهو يظنها عازمة على الرقاد . ثم سمعت لغط الناس في المدينة فانتبهت الى ان الجند لا يلبثون ان يفتحوا بيت الغفاري ، فاذا رأوا سعيدا هناك قبضوا عليه فخرجت لانقاذه كما تقدم . وقبل خروجها أوصت عبدها بأن يوصد الباب ، واذا سأل ابوها عنها يقول له انها نامت وأقفلت الباب عليها لشدة ما اعتراها من الخوف في ذلك المساء . فبات ابوها تلك الليلة وهو يحسبها نائمة ، اما هي فبعد انقاذها سعيدا عادت الى غرفتها مضطربة فلم تستطع رقادا ، وجعلت تفكر في وسيلة تنقذ بها عبدالله ، ولم تمكث قليلا حتى سمعت لغطا في دار ابيها ، وفهمت من خلال اللغط ان ابن العاص عول على اغراق اسراه في النيل ، وسمعت أباها يضحك سرور لهذا القرار ، فأسفت اسفا شديدا ، ولبثت برهة تفكر فيما تفعل، حتى حدثتها نفسها لفرط انفعالها ، بأن تخرج في اثر الخارجين لعلها تستطيع انقاذ عبدالله . فغافلت أباها وكان قد ذهب الى فراشه وخرجت وأوصدت الباب وراءها ، وبلال نائم امام عتبته ، وسارت في اتجاه ضفة النيل حيث ظنت انهم ساقوا الاسرى وهي عزلاء دفعتها حماستها الى الخروج هكذا . فالتقت هناك بسعيد ودار ما دار بينها وبينه ووعدته بارسال عبدها ليصحبه الى الكوفة كما تقدم . ثم عادت وحدها .

فلما اشرفت على المنزل رأته هادئا وأهله نيام ، فانسلت الى الدار فرأت عبدها بلالا نائما فأيقظته فهب من رقاده مذعورا وكانت تعلم شدة تعلقه بها وتفانيه في مرضاتها ، فدعته الى غرفتها فتبعها فلما خلت به قالت : «أتدري لماذا دعوتك ؟»

قال : «كلا يا مولاتي ولكنني رهين اشارتك» .

قالت : «أتطيعني يا بلال ؟»

قال : «كيف لا وأنا عبدك وطوع امرك ؟»

قالت : «أريد ان أعهد اليك في امر خطير فهل تقوم به ولو أدى الى المـوت ؟ »

قال : «ان الموت هين في سبيل مرضاتك . مري يا سيدتي بمـــا تشائين فانني في خدمتك» .

قالت : «أسمعت بما حدث اليوم في عين شمس وما فعل ابن العاص بالمجتمعين هناك ؟»

قال : «نعم وقد ارتكب اميرنا فيه امرا جسيما وقتل كثيرين» .

قالت : «أما سرك ما فعله ابن العاص بأولئك العاويين ؟»

قال : «اذا كان سرك فانه يسرني» .

قالت : «وما ظنك بي ؟»

قال : «لا أظنك راضية عن هذا العمل ، لعلمي انك على غير دعوة الامويين . وان يكن سيدي ابوك متفانيا في سبيل التشيع لهم» .

قالت : «وكيف عرفت ذلك ؟»

قال : «انت تحسبينني ساذجا وقد قضيت في خدمتك أعواما طوالا واطلعت على مكنونات قلبك وأنت لا تعلمين . وأما الان فقد دفعتني الى التصريح بأني اعلم غرضك ولم يفتني شيء مما تقاسينه في سبيل الدفاع عن الامام علي ولاسيما امس ، وأنت لا تعلمين شيئا الا اني أحرس هذا الباب الموصد وأكتم خروجك منه عن ابيك» .

فاستغربت خولة قوله ولكنها سرت به وقالت : «وما قولك فيمـــا حدث امس ؟»

قال : «أتحسبينني غافلا عما قاسيته في سبيل انقاذ ذلك الشـــاب الغريب الليلة ، وقد كان في جملة من خيف عليهم الوقوع في شرك ابن العاص فأنقذته بهمتك ؟»

فتحققت انه كان يراقب حركاتها وسكناتها . فتهلـــل قلبها سرورا فقالت : «وأما الحال على ما ارى فأخبرك ان ذلك الشاب مسافر الان الى الكوفة ، وأريد منك ان تذهب اليه بالجملين الى سفح المقطم ، فـــاذا التقيت به هناك فسر في ركابه الى الكوفة واحذر ان يدري بك احد او ان تذكر ذلك لاحد» .

ولم تتم كلامها حتى خرج مسرعا يهم باعداد الجملين ، فاسترجعته وقالت : «قف يا بلال بورك فيك واسمع كلمة اخرى اقولها لك» .

فعاد وقال : «لبيك يا مولاتي قولي ما تشائين» .

قالت : «انك ذاهب مع هذا الشاب الى الكوفة لانقاذ الامام علي من القتل ، وستعلم تفصيل ذلك منه . وأما الان فيكفيني ان أوصيك بــه خيرا ، واذا انتهيتما من تلك المهمة فارجع به الينا ، فاني أكره ابن ملجم الذي يريده ابي خطيبا لي . هل فهمت ؟»

فضحك بلال وهز رأسه ولسان حاله يقول : «فهمت» .

فقالت : «سر في حراسة الله ، وكنت أود ان أزيدك بيانا ، ولكــن الوقت ضيق فاذهب وعد سالما باذن الله ، واحذر ان تبوح لاحد بمـــا سمعته او رأيته» .

فخرج وهو يلتفت اليها كأنه عاتب على ما ظهر من ضعف ثقتها بأمانته، ولكنه كان فرحا بما كلفته به ، فأعد الجملين وخرج الى سفح المقطـــم وصحب سعيدا كما تقدم .

* * *

ولما خرج بلال عادت خولة الى غرفتها ، وغلقت الباب واستلقت على فراشها وقد تعبت مما قاسته في ذلك اليوم من المشاق ، وكان قد هم بها النعاس لولا ما شغل ذهنها من عظائم الامور ، وما تخلل ذلك من شعورها

بالميل الى سعيد ، ولولا الحناء واهتمامها بانقاذ الامام لصرخت به . وذلك لما آنست فيه من الرغبة في انقاذ الامام علي ، مع ما في قلبها من النفور الشديد من ابن ملجم حتى كرهت أباها من اجله ومن اجل تشيعه للامويين .

قضت بقية ليلها لم يغمض لها جفن ، وهي تفكر في سعيد . وقلبها يخفق ميلا اليه وخوفا من فشله في مهمته . فجعلت تقدر الوقت اللازم لسفره الى الكوفة فرأت انه اذا اسرع لا يفوته الوصول اليها قبل الاجل المضروب للقتل . وكان يعترض مجرى افكارها خوفها مما قد يطرأ عليه في الطريق فيعيق وصوله فترتعد فرائصها فرقا على حياة الامام . وفي قتله ضربتان كبيرتان : الاولى موته ، والاخرى عودة ابن ملجم اليها . ولكنها كانت تتعزى بأن ابن ملجم اذا ظفر بقتل الامام لا ينجو من القتل . ثم تحول ذهنها الى ابيها وخروج عبدها بالجملين . وأعدت أعذارا تنتحلها في سبب خروجه فلم تجد خيرا من ان تدعي فراره الى حيث لا تعلم .

وكان ابوها قد أفاق في اثناء الليل وهي غائبة فجاء غرفتها ليراها فوجد الباب موصدا فسأل العبد عن ذلك فقال : «ان سيدتي استولى عليها الخوف على غير المعتاد فأوصدت الباب وأوصتني بأن انام خارجا» .

فقال ابوها في نفسه : «مسكينة خولة ان رعبها من ذلك الحبس لا يزال مؤثرا فيها» . وعاد الى فراشه وهو مصدق ما قاله العبد .

وفي الصباح جاء الغرفة فرأى الباب لا يزال موصدا ولكن بلالا ليس امامه فقرعه فنهضت خولة وفتحته وهي تتظاهر بالذبول لطول استغراقها في النوم . فأمسكها بيده الواحدة ووضع الاخرى على كتفها وهو يقول : «لعلك لا تزالين خائفة يا بنية ؟»

قالت : «كلا يا سيدي اني تحت جناحك من أمن وطمأنينة» .

فقال : «بورك فيك تعالي تتناول الطعام» • ثم نادى بلالا فلم يجبه احد فقال : «اين بلال ؟»

فقالت : «لا ادري لعله ذهب الى السوق» •

فانتظر هنيهة فلم يجـــيء ، فأرسل خادما في اثره فلم يقف له على خبر ثم علم بضياع الجملين ولما انقضى معظم النهار ولم يعد بلال ولا الجملان أشكل عليه امره ، فقالت خولة : «يظهر انه اخذ الجملين وفر» • فبعث اناسا في اثره الى ضواحي المدينة فلم يأته احد منهم بخبره ، فصدق انه فر •

* * *

اما خولة فلما تحققت انطلاء الحيلة على ابيها عادت الى هواجسها وتذكرت المهمة التي ذهب فيها سعيد ، وأخذت تفكر في امره وهي خائفة ان يتأخر في الطريق عن الوقت المضروب لقتل الامام فيذهب سعيها هباء منثورا ، ولكنها كانت مع ذلك فرحة لنجاتها من ابن ملجم ، لعلمها انه ان فاز بقتل الامام علي فلا ينجو من سيوف أشياعه وهم كثار في الكوفة • ولكنها شغلت من ناحية اخرى بسعيد بعد ان انتهت من تدبير سفره ولم تكن واثقة من وقوعها من نفسه مثل وقوعه من نفسها وتمنت لو يعود عبدها بلال ليطمئن قلبها ، على انه لم يكن قد أزف زمن رجوعه بعـد فصبرت على مضض تترقب أحداث القدر •

وجاء ابوها ذات مساء بعد عودته من حانوته وعلى وجهه سيمـــاء البشر وقرأت فيه خبرا جديدا ، فأحبت ان تعرف كنهه ، فلما جلسا الى الطعام احتالت على استطلاع حديثه فذكرت له امر العلويين والقبض عليهم وتفننت في استرضائه ، فابتسم وانقاد الى الكلام مع ما هو فيه من الالتهاء بالطعام ، وكأنها ادركت ما في ضميره فتوقفت عن طعامها تنتظر

حديثه ، فالتفت اليها وقال وهو يبتسم : «لقد عودتني يا خولة ان أحاذر في الكلام معك فيما اخشى افشاءه» .

فاستغربت وقالت : «اني لأعجب يا ابتاه من سوء ظنك بي ، فأنا فتاة متحجبة في هذا البيت لا اعرف من اهل الدنيا احدا سواك . فكيف تقول انك تحاذر ان تذكر امامي ما تخاف افشاءه . أي سر بحت به الي فأفشيته ؟» . قالت ذلك وهمت بأن تتباكى .

وعاد هو فابتسم وقال : «لم اقل انك تبوحين بالسر ولكن ...» . وسكت .

فقالت : «ولكن ماذا يا أبتاه ؟ انك تظلمني بظنونك ، ويسوءني ألا يكون لي نصيب من الثقة حتى ولا من ابي الذي لا أعرف احدا سواه» .

قال : «لا اخفي عليك يا ابنتي انني كنت ولا ازال أعتقد انك ميالة الى الاعداء ... و ...» .

فابتدرته وقالت : «وأي اعداء تعني ؟. اعوذ بالله من هذه التهم ! كيف تقول ذلك ؟!» . وتنحت عن المائدة وأعرضت عن الطعام .

فقال : «اني ألحظ ميلك الى العلويين ، وأنت تعلمين ان عليا حاربنا وقتل جماعة منا في النهروان وغيرها . ولا ألومك على ميلك اليه ، لانني كنت انا ايضا مثلك في جملة المتشيعين له ، ولكني اصبحت بعد وقعة صفين ناقما عليه لما ارتكبه في مسألة الحكمين بحيث اخرج الخلافة من يده وجعل لمعاوية يدا فيها» .

فأدركت انها اذا أقرت بحقيقة ميلها القت نفسها في تهلكة ، فلم تر خيرا من الانكار فقالت : «وما أدراك اني باقية على الرأي القديم ، فانك ان كنت انت انحرفت عنه فمن اكون انا حتى أخالفك فيه» .

قال : «لو لم تكوني على هذا لما تمنعت عن زواج ابن ملجم وانت تعلمين ان هذا الرجل قد عاهد نفسه على القيام بعمل لم يقدم عليه احد

من المسلمين في هذا العصر . فقد صمم على قتل علي» .

فأجفلت عند سماعها ذلك التعريض وحدثتها نفسها بأن تبوح بحقيقة ميلها ولكنها خافت ضياع الفرصة وهي انما افتتحت الحديث لتستطلع ما في نفس ابيها ، فأنكرت التهمة كل الانكار وقالت : «ان ما تنسبه الي من امر ابن ملجم ظلم يا مولاي ، فاني لم ارفض الرجل وهو خطيبي متى عاد من رحلته هذه . وكيف تقول الي لم اقبله وأنا لم أفه بكلمة في هذا الشأن ؟»

فضحك ابوها وهو يتشاغل بتقطيع فخذ من الضأن بين يديه ، وقال: «نعم انك لم تفوهي بكلمة ، ولكنني ادركت من مجسل حالك انك غير راضية به» . وكان قد أتم تقطيع اللحم فقدم لها قطعة فأبت ان تتناولها وأعرضت دلالا وحنقا .

فقال لها : «خذي كلي يا خولة ولا يسؤك كلامي» .

قالت : «انما ساءني لاني اراني مظلومة وأظنك عاملتني معاملة العدو فحبستني في ذلك البيت المظلم بناء على هذه الظنون» .

قال : «لقد اذكرتني حديث تلك الليلة وما كان فيها من الاهوال ، وهو الامر الذي جئت لأقص خبره عليك . ولكنني لا اقول كلمة قبل ان تصدقيني الخبر : هل انت على ولاء ابيك تأتمرين بأمره . ام ماذا ؟»

فتغاضبت وقالت : «اني اراك تحرجني وتلجئني الى الانحراف عن دعوتك بما تثيره علي من الظنون وأنا لا ابغي من هذه الحياة غير مرضاتك » .

فمد يده وهو لا يزال قابضا على قطعة اللحم وقال : «خذي اذن هذه اللقمة واصغي لما اقوله لك» .

فتناولتها من يده وقالت : «قل» . ووضعت اللقمة في فمها وهي لا تمضغها لانشغال ذهنها بما ترجو سماعه فقال : «اعلمي يا خولة ان اميرنا

حفظه الله علم بقدوم رجلين اتيا من الكوفة للاجتماع ببعض كبـــار العلويين الذين كانوا يجتمعون سرا في خرائب عين شمس ، فبعث جندا من شرطته فقبض عليهم في مجتمعهم تحت الارض . ألم تسمعي بهذا ؟»

قالت : «عرفت بعض خبره بعد حدوثه» .

قال : «فاعلمي اننا وجدنا بين المقبوض عليهم في تلك الليلة واحدا من ذينك الاثنين اسمه عبدالله . وأما الثاني فقد نجا . ولا ندري من هو ، ولعله لم يشهد الاجتماع . اما الاول فساقوه مع من سيق تلك الليلة الى دار الامارة وقد يكون وقع اليك ان الامير رأى ان يقتل اولئـــك المتآمرين ، وكنت انا ممن اشار عليه بذلك مخافة الفتنة اذا ظلوا أحياء. فأمر عمرو باغراقهم في النيل وعبدالله معهم ، وقد عدت انا من حضرة الامير وهم يتهيأون لارسالهم الى النيل وعلمت في اليوم التالي انهـم اغرقوهم » .

فلم تر خولة في حديثه شيئا لم تكن تعرفه ، ولكنها رأت ان الحديث لم يتم فصبرت وتظاهرت بخلو الذهن من هذا الموضوع الغريب .

اما هو فقال : «وقد كنت أعتقد انه اغرقهم جميعا حتى كان اليوم وأنا في منزل الامير فرأيت في بعض جوانبه غرفة مقفلة كنت كلما جئته اراها مغلقة فلم أهتم بشأنها ، فلما كان عصر اليوم دخلت على الامير وأنا عائد من عملي ، فذكرت له امر ابن ملجم ومهمته ولفقنا نتحدث فيمـــا عسى ان يكون من امره في الكوفة ، فلما وصلنا الى ذلك رأيته يبتسم وتوسمت في وجهه خبرا فرغبت اليه ان يطلعني على ما حدث ، وأنت تعلمين ما لي من الدالة عليه . فتردد اول الامر ، فألححت عليه فقال لي: «أتعلم من هو المقيم بهذه الغرفة ؟»

قلت : « لا يا مولاي ، لا أعلم ، وليس من شأني السؤال عما فـــي منزل الامير» .

فضحك عمرو حتى رقصت لحيته وقال : «اني حبست فيها رجـــلا سينقذ حياتي من القتل» •

فعجبت لقوله واستغربت ما يشير اليه ، ولبثت أنتظر الافصاح فقال لي : «اعلم يا صاحبي اني حبست في هذه الغرفة عبد الله الاموي الذي كان قدومه سببا في قتل العلويين منذ ايام» •

فلما سمعت خولة ذكر عبدالله علمت انه رفيق سعيد ، وخفق قلبها فرحا بنجاته ، ولكنها استغربت سبب تلك النجاة ، على انها ظلت متجاهلة تتوقع سماع تتمة الحديث ، وأبوها يتشاغل عن اتمامه بالمضغ والبلع ، وكان اكولا •

فلما خلا فمه من الطعام عاد الى الحديث فقال : «فاستغربت كلامه وسألته عما عساه ان ينجيه من الموت ؟ فذكر لي ان صاحبك ابن ملجم خطيبك هو احد المتآمرين على قتله ايضا مع علي في يوم واحد ، وانه سمع ذلك من عبدالله هذا فلم يصدق قوله لغرابته وأساء به الظن لعلمه ان ابن ملجم من رجال دعوتنا ، ولكنه لم يسعه الا ان يستبقيه ويحبسه فـــي منزله ريثما يأتي الاجل المضروب لقتل علي وقتلـــه وهو يوم ١٧ رمضان ، فاذا تحقق صدق قوله أفرج عنه والا ضرب عنقه • فلما سمعت ما قاله الامير استغربته كل الاستغراب وخفت ان يكون قد اساء الظن بي ، فأقسمت له الايمان المغلظة اني لم اكن عالما بغير عزم ابن ملجم ، وسألته هل عرف اسم الرجل الاخر الذي تعهد بقتله فذكر لي ان الاموي الاسير لا يعرف الاسم» •

قالت خولة : «وماذا تنوي ان تصنع ؟» • قال : «الحق يا ابنتي انني لم أدر كيف اؤكد للامير صدقي واخلاصي مخافة ان يبقى على سوء ظنه بي ، فبالغت في اظهار الغضب من ابن ملجم ، وقلت له : (اني لو عرفت خداع الرجل ما رضيت به صهرا ، وأنا منذ الان مانعه من خولة) • ولما

قلت له ذلك التفت الي وقال : (لا يكفيني هذا الوعد وأنا اعرف خولة وأعرف مقامها ، وطالما كنت اريدها لاحد اولادي ، وأما الان فاني اطلب اليك اذا صدق هذا الاموي في قوله ان تكون ابنتك خولة عروسا له ، لان الرجل اموي وكان على دعوتنا حتى اغراه بعض الناس بالتشيع لعلي) .. »

فلما وصل الى هذا الحد علمت خولة ان عبدالله لا يزال حيا ، واطمأن قلبها وأدركت انه لم يذكر اسم المتآمر الثالث على قتل معاوية مخافة ان يرسل عمرو بخبره الى الشام فينجو معاوية منه .

ولكنها لما سمعت ذكر خطبتها له اطرقت حياء وسكتت وقلبها يختلج فرحا بنجاتها من ابن ملجم ، ثم تذكرت حبها سعيدا وما بعثت به اليه مع عبدها بلال ، فاحتارت في امرها على انها لم يسعها الا كتمان كل ذلك والتظاهر بالاستغراب فقالت وهي تهز رأسها استغرابا : «أصحيح انهم تآمروا على قتل عمرو ايضا انها لمصادفة غريبة ؟»

قال : «حقا انها مصادفة نادرة ، ولكن ما قولك في اقتراح عمرو ؟» فسكتت ولم تجب .

فقال : «ما معنى سكوتك وأنت تعلمين اننا لا نستطيع رد ذلك الاقتراح ؟ »

قالت : «دع هذا الان ، فانه ليس بالامر المهم ، وما خولة الا جارية حقيرة لا تستحق هذا الاهتمام ، ولنصبر الى الاجل المسمى لنرى ما يكون » .

فقال : «اننا صابرون ، وأرجو ان يكون خطيبك الجديد اهلا لك وليس مثل ابن ملجم الخائن ، على اني ادركت من خلال حديث عمرو ان عبدالله رجل كريم ، وهو اموي ربي في منزل الخليفة عثمان ، ولكنهم اغروه بالتشيع لعلي ، ثم عاد الى ما كان عليه . وأذكر اني رأيته ليلة

قبضوا عليه فاذا هو شاب في مقتبل العمر وأظنك سترتاحين اليه» .
فظلت خولة ساكتة ، فحسب والدها سكوتها قبولا فسكت ، وكانا قد فرغا من الطعام فنهض ونهضت خولة فغسلت يديها وذهبت الى غرفتها وهي تفكر فيما سمعته من ابيها وتحسب نفسها في حلم .

* * *

فلما خلت بنفسها تذكرت سعيدا وحبها له فتتقاذفتها الهموم ، وهي تخاف ان يحملها عمرو على الاقتران بعبدالله قبل ان تعلم مصير سعيد ومهمته في الكوفة ، وقد أعجبت بدهاء عبد الله لانه باح بخبر المؤامرة على قتل عمرو وكتم امر المؤامرة على معاوية ، ولكنها خافت ألا تتم نبوءته فلا يأتي القاتل في الاجل المعين فيقتله عمرو . وكانت اذا تصورت صدق نبوءته ونجاته من القتل يخفق قلبها لاضطرارها عند ذلك الى قبوله زوجا لها وهي تحب سعيدا ، فهاجت أشجانها وارتبكت في امرها ، وجعلت تبحث عن سبيل تنجو به من هذا التردد فلم تر خيرا من الصبر والنزول على حكم القدر .

اما عبد الله فكان قد جنح الى هذه الحيلة خوفا على حياته ، وكان يخشى ان يتأخر المتعهد بقتل عمرو عن المجيء لسبب من الاسباب فيذهب سعيه عبثا .

وظل عمرو اياما لا يخرج للصلاة ، فلما كان فجر ١٧ رمضان شكا الما في بطنه فلم يخرج ، واتفق خروج خارجة بن ابي حبيبة صاحب شرطته للصلاة وهو لا يعلم بخبر المؤامرة ، ولم يأمره عمرو بالخروج ولو علم بخروجه لمنعه ، على انه لم يكن يحسب ان القاتل يأتي لقتله في الفجر وهو يصلي ، بل كان يحسب انه سيراقب خروجه في اثناء النهار في بعض شؤونه . ولكن منية خارجة عاجلته فخرج فجر ذلك اليوم الى

الجامع ليصلي بالناس ، ولم يكد يبدأ بها حتى هم به رجل من الوقوف وهو يحسبه ابن العاص فضربه بالسيف فقتله فقبضوا عليه وساقوه الى عمرو • فلما رآه عمرو بغت وصاح به : «ويلك قد قتلت صاحب شرطتي قتلت خارجة بن ابي حبيبة» • فأجابه الرجل بقلب لا يهاب الموت : «والله اني كنت احسبه انت» •

فقال له عمرو : «اردتني وأراد الله خارجة • من انت يا غادر ؟»

قال : «عمرو بن بكر» • قال : «وممن انت ؟» • قال : «من تميم» •

فقال : «اقتلوه» • فقتلوه ، وقد حزنوا لمقتل خارجة ولكن ما قدر كـان •

اما خولة فانها باتت ليلة ١٧ رمضان على مثل الجمر وهي تتوقع ان تسمع خبرا جديدا في اليوم التالي ولم تكن تتوقع ان يفعل الغادر فعلته في الفجر فأصبحت وقد ضجت الفسطاط بخبر خارجة وجاءها ابوهـــا فأخبرها به ولسان حاله يقول : «لقد صحت اقوال عبد الله فتأهبـــي للاقتران به» •

تحققت وقوع المحظور ولم تعد تدري ماذا تفعل وندمت لانها لـــم تغادر بيت ابيها سرا قبل ذلك اليوم على انها لم تكن من الجهة الاخرى موقنة من ان سعيد يبادلها ودا بود ، فانها لما لقيته في الفسطاط لم تتحقق ميله اليها • فوقعت في حيرة ولكنها كانت مع هذا في قلق على الامام علي لا تدري هل نجا كما نجا عمرو ام ذهب فريسة ابن ملجم وتمنت لو ان عبدها يعود في ذلك اليوم بالخبر اليقين •

* * *

تركنا سعيد وبلالا في الكوفة وقد اخذ الاخير يتأهب للسفر الـــى الفسطاط ، وأخذ سعيد يفكر فيما يفعل بعده وكان هو الذي أمــــره

بالذهاب الى الفسطاط ليعود اليه بالنبأ اليقين عن عمرو • ثم رأى انه قد يطول به الانتظار ولا صبر له عليه • فقال لبلال : «كنت قد امرتك بالذهاب الى الفسطاط . ولكني ارى أجل عودتك بعيدا فلهذا رأيت ان أذهب الى دمشق لا تنظرك بها . على ان توافيني الى مسجدها بعد عشرين يوما . وسواء أتمكنت من الفتك بقطام ام لا . فانني سأعرف هناك مصير معاوية » •

وسافر بلال ، وصبر سعيد الى الغد ثم خرج قاصدا بيت قطام فرآه مقفرا من اهله . فوقف عند باب الحديقة يتأمل نخلاتها وطرقاتها ويفكر فيما مر به هناك من الاحداث وما انطلى عليه من مكر قطام غير مرة . وتذكر اخر مرة زارها في ذلك المنزل ومعه ابن عمه عبدالله فازداد ميلا الى الانتقام منها • وفكر في المكان الذي عساها ان تكون قد ذهبت اليه، فخطر له ان تكون قد سارت الى اهلها في جوار الكوفة ، فمضى للبحث عنها هناك . ولكنه لم يقف لها على اثر . فمل البحث وخاف ان ينقضي الاجل الذي ضربه لبلال كيما يوافيه هذا في دمشق ، ولاح له ان قطام قد تكون سافرت الى دمشق لتلتجىء الى معاوية بعد ان نجحت في قتل الامام على منافسه ، فحزم امره وقصد الى دمشق على ناقة تسابق الرياح •

اما قطام فكانت قد علمت من ريحان بقدومه في الليلة التي وصل فيها الى الكوفة ، اذ عاد اليها ريحان وأخبرها بما دار بينه وبين بلال عبد خولة ، وحكى لها ما فضحه هذا من سره وكيف كان سببا في انكشاف امره لدى سعيد فلم يعد يصدقه ولم يرض المجيء معه الى بيتها ، فحنقت على بلال وعلى سيدته خولة ، وشعرت مع كرهها لسعيد بالغيرة تأكل قلبها من اجل علاقته بخولة ، ولاسيما ان هذه كانت عونا على عرقلة مساعيها لقتل الامام علي ، فأضمرت لها السوء ولكنها شغلت عنها تلك الليلة بما

كانت فيه من انتظار الفتك بعلي . وكان ابن ملجم بائتا عندها . فلما كان الفجر خرجت هي وعجوزها وعبدها ، وضربت قبتها في المسجد كما تقدم . وفي ذلك من الجرأة ما فيه ؛ ولم تكن تخشى كشف حيلتها لما دبرته من ارسالها لبابة المحتالة بالصك بعد تغييره الى قنبر حاجب الامام.

- ١٤ -

نجاة معاوية

قتل الامام علي ، ورأت قطام انه قد قبض على ابن ملجم كما توقعت فسارعت الى الفرار بعبدها وعجوزها الى مكان خارج الكوفة ، وقد شفت حزازة صدرها بقتل الامام . ولكنها بقيت ناقمة على سعيد وزادت نقمتها بعدما علمته من امر خولة ، فعزمت على الذهاب الى الفسطاط ، لتشي بها الى عمرو بن العاص لاعتقادها انه لا بد مقدر لها ما انبأته به عن سر اجتماع العلويين . ولم يخامرها شك في نجاح وشايتها بخولة، لانها من أنصار علي ، فيقتلها اذا كان هو قد سلم . اما اذا كان قد قتل، فانها لن تعجز عن تدبير حيلة اخرى . واستشارت لبابة فيما عن لهـــا فاستحسنت رأيها ، وحسنت لها المسير الى الفسطــاط . واستشارت ريحان فقال لها : «اني في ركابك ، أينما توجهت» . فأثنت على غيرته، وأصبحت في اليوم التالي قاصدة الفسطاط على ان تمر بدمشق وتستطلع حال معاوية وما كان من امره بعد ١٧ رمضان . فاذا كان قد قتل ، فتحمل الخبر الى عمرو ، وتحرضه على طلب الخلافة لنفسه .

فلما وصلت الى دمشق سمعت ان رجـــلا اسمه البرك بن عبدالله التميمي الصريسي ، قعد لمعاوية في فجر ١٧ رمضان في مسجد دمشق • فلما خرج معاوية للصلاة شد عليه بالسيف فوقع السيف في اليته • فلما اخذوه اليه قال له : «ان عندي خبرا اسرك به ، فهل ينفعني ان أنبئك به؟»

فقال له معاوية : «نعم» •

قال : «ان اخا لي قتل عليا هذه الليلة» •

فقال : «لعله لم يقدر على ذلك» •

قال : «ان عليا ليس معه احد يحرسه • فلا بد ان يكون قد قتله» •

فأمر به معاوية فقتل ، ومضى هو يطبب جرحه •

فلما علمت قطام بنجاة معاوية لم يبق لديها الا الشخوص الـــــى الفسطاط للايقاع بخولة •

* * *

اما عبدالله فلبث في سجنه بمصر وقلبه واجف لما يخشى من حبوط المؤامرة • وقد خطر له ان يحتاط لذلك ، فلما باح لعمرو بالسر اشترط عليه ألا يطلع احدا عليه لانه اذا شاع وبلغ خبره المتآمر فقد يعـــدل خطته ، فيقدم الميعاد او يؤخره ، واقتنع عمرو بهذا ، فكتم امر المؤامرة عن كل الناس حتى صاحب شرطته • اما ابو خولة فقد كان من اكثر الناس تقربا من عمرو ، وأعظمهم غيرة عليه ، وكان عمرو يثق فيه ، على انه لولا رغبته في معاتبته على خيانة صهره ابن ملجم لما كشف له الامر •

فلما كان ليل ١٧ رمضان اخذ القلق من عبدالله مأخذا عظيما لعلمه انه اصبح بين الحياة والموت • فلما كان الصباح وهو في سجنه يطل من كوة ليرى او يسمع ما يجري وصل الى أذنيه لغط لم يفهم منه شيئـــا صريحا ، فانتظر حتى جاءه الحارس بالطعام على عادته ، فعلم منه مـــا

حدث ، فاطمأن • وبعد العشاء جاء احد رجال عمرو الى السجن فحل قيوده ودعاه الى مجلس الامير ، فمشى في اثره وهو يرى نفسه قد خرج بذلك من عداد الاموات • فقاده الرجل الى قاعة جلس فيها عمرو بن العاص على وسادة ، وفي يده درة (سوط) يلاعبها بين اصابعه ، وليس في القاعة احد سواه • فلما اشرف عبدالله على القاعة نزع حذاءه ودخل توا الى مجلس الامير وهم بتقبيل يده ، فأمسكه ابن العاص بيمينه وأجلسه الى جانبه وهو يقول بصوت منخفض : «لقد كانت نجاتنا على يدك فحق لك علينا التكريم ، ولكن وقع صاحب شرطتنا في الشرك الذي كان منصوبا لنا ، ولو علمنا الساعة او المكان المعينين لتلك الفعلة الشنعاء لاستطعنا تداركها ، او لاطلعت خارجة على سر الامر فربما كان نجا بنفسه ، ولكني لا أظنه كان يستطيع ذلك وهو لا يعلم الزمان والمكان المعينين » •

فقال عبدالله : «ان حياتي كانت رهنا ببقاء الامر سرا ، ولو انه شاع لغير الغادر خطته تأخيرا او تقديما ، وكنت انا المقتول الان بدلا من خارجة ، لانك كنت تسيء الظن بي فتقتلني» •

ولم يتم كلامه حتى دخل خادم يقول : «ان ابا خولة بالباب» • فقال عمرو : «ادخلوه» •

فدخل ابو خولة ولم يكن من مصاف الامراء ولا من القواد الانداد حتى تكون له تلك المنزلة عند عمرو ، ولكنه نال الحظوة عنده عندما أطلعه على عزم ابن ملجم على قتل علي ، وظل يتردد على دار عمرو ويبذل وسعه في خدمته حتى عده عمرو من اصحابه •

فلما دخل ابو خولة القاعة حيى ، وقبل ان يجلس قال له عمرو : «اغلق الباب ، ومر الخدم ألا يأذنوا لاحد» • ففعل ودخل • فدعاه عمرو الى جانبه وعرف اليه عبدالله ، فأعجب ابو خولة به لانه كان شابا جايلا

مع نباهة وذكاء • وسر لما دبره عمرو من مصاهرته له • وأما عبدالله فكان خالي الذهن من كل هذا •

فلما جلس الثلاثة التفت عمرو الى عبدالله وقال له : «لقد عرفتك بصاحبنا ابي خولة ، وأزيدك علما انه من أعز اصدقائي ، وقد كتمت امر المؤامرة عن كل احد سواه ، ولكنني اشترطت عليه شرطا أظنه يعود عليك بالمنفعة ، وقد فعلته مكافأة لك على خدمتك لي» •

فوقف عبدالله مناديا وقال : «أيأذن لي مولاي في كلمة ؟»

قال : «قل» • قال : «لا تحسب ايها الامير ان لي فضلا بما بحت لك به ، فاني والحق يقال انما فعلته استبقاء لحياتي ، فلا تظنني اخدعك او اخدع نفسي» •

فأعجب عمرو بصراحة عبدالله وقال له : «لم تزدني بما قلت الا رغبة في مكافأتك ، ان ابن العاص لا يجهل قدر الرجال وليس من السذاجة بحيث لا يدرك انك لو لم تقع في يده وتشعر بالخطر على حياتك وبألا نجاة لك بغير افشاء ذلك السر ، ما اقدمت عليه • ولكني مع كل ذلك أقدر جايلك ، وأريد مكافأتك • وقد رأيت من صدق قولك ما أكد لي انك لو كنت من أنصارنا لكان لنا بك نعم النصير ، وأنت اموي على ما علمت فليس تشيعك للعلويين معقولا» • قال ذلك وفي صوته غنة استفهام كأنه يستفهم عن سبب تشيعه فسكت عبدالله • فقال عمرو : «ولكنك لم تسألني عن المكافأة التي اعددتها لك» •

قال : «قلت اني لا أستحق مكافأة» •

قال عمرو : «أمتزوج انت ؟»

قال : «كلا يا مولاي» •

قال : «اذن فاعلم ان في الفسطاط فتاة يتحدث بجمالها وتعقلها اهل هذه المدينة ، وهي ابنة صاحبي هذا (وأشار الى ابي خولة) • ولا اخفي

عليك انها كانت مخطوبة لعبد الرحمن بن ملجم ، وهو احد المتآمرين على قتلي وقتل علي بن ابي طالب ، ولا ندري ما كان من امره اليوم فانه الموعد المضروب» .

ولما قال عمرو ذلك تذكر عبدالله ما كان قادما من اجله مع سعيد وكيف فشلت مهمتهما فانقبضت نفسه ولكنه تجلد وصبر الى اخر الحديث .

فأتم عمرو كلامه قائلا : «ان خولة هذه كانت مخطوبة لابن ملجم ، على ان يتزوجها بعد عودته من الكوفة ، ولا ريب ان ذلك الخائن كان عالما بتواطؤ عمرو بن بكر على قتلي فكتم ذلك . وسار ولم يطلعني على شيء منه ، ولهذا عددته شريكا في قتلي ، فحرمته من خولة ، ولي دالة على ابيها لانها بمنزلة ابنتي ، وقد خطبتها لك منه . ومتى رأيتها تحققت ان قد أزوجناك زهرة الفسطاط وخير بناتها» . ثم التفت عمرو الى ابي خولة وقال : «ولا تظننا فرطنا في خولة ، فان هذا الشاب من سلالة الامراء ، ويكفي انه اموي وبينه وبين الخليفة معاوية نسب قريب . اما الخائن ابن ملجم فان عاد الينا فلا ابقاني الله ان ابقيته حيا . ولكنني لا أظنه الا مقتولا في دار ابن ابي طالب فاز في مهمته ام لم يفز» . قال ذلك والغضب باد على وجهه . ففرح عبد الله بما ناله من الحظوة في عيني عمرو ، وارتاح لما سمعه عن خولة ، ولكنه بقي قلقا على ابن عمه سعيد ، وما كان من امره بعد ان فارقه في مسجد الفسطاط يوم اجتماع عين شمس . وحدثته نفسه ان يسأل عمرا عنه مخافة ان يكون وقع في أيدي رجاله ، ولكنه لبث ساكتا يتردد ، وقد نسي اقتراح عمرو . فظنه عمرو غير راض فقال : «ما بالك لم تجب ؟ لعلك لم ترض بخولة ، والله اني ارضاها لاعز ابنائي» .

فابتدره عبدالله قائلا : «عفوك يا مولانا ، كيف لا ارضى بما رضيته

انت لي ؟ وما سكوتي الا لاني حسبت اقتراح الامير امرا نافذا لا خيرة لي فيه ، على اني ارجو ان تسألها هي رأيها في الزواج بغريب مثلي» •

فقال ابو خولة : «ان خولة جارية مولانا الامير ، وما يرضاه لها لا مندوحة لها عنه ، وأنا وهي طوع ارادته» •

واستولى السكون عليهم لحظة ، ثم التفت عمرو الى عبدالله فقال: «كنت أظنكما اثنين جئتما معا الى الفسطاط ، ولكنني لم أر سواك» •

فاضطرب عبدالله ، ونظر الى عمرو وقال : «هذا هو الامر الـــذي شغل بالي في اثناء حديث مولاي • ان رفيقي هو ابن عمي ، وقد جئنا معا الى هذه المدينة ولكني يست عين شمس وحدي وتركته في المسجد على ان أستطلع المكان وأعود اليه ، فقبضوا علي ولم اعد اعرف شيئا عنه الى الان • فهل عثر الشرطة به فقتلوه ؟»

قال عمرو : «لم اسمع عنه شيئا ، ولا اخبرني احد بخبره ، فقد يكون نجا بنفسه لما سمع بما وقع لكم في ذلك الاجتماع» •

فهدأ روع عبدالله • ولكنه ظل مشتاقا لاستطلاع حال سعيد وتمنى ان يسير ثوا الى الكوفة فيستطلع كل شيء ويتحقق ما وقع للامام علي، ولكنه خجل من ابداء رأيه هذا لعمرو ، ورأى ان يتظاهر بالرغبة فـــي السفر للبحث عن ابن عمه فقال : «لقد اوضحت لمولاي ما انا فيه مـــن القلق على ابن عمي هذا ، فهل يأذن لي الامير بالذهاب الى الكوفـــة لاستطلع حاله ثم اعود ، وأكون في خدمتك الى الممات فقد أوليتنـــي جميلا لا انساه ؟»

قال عمرو : «يكون ذلك بعد عقد قرانك بخولة ، حتى اذا صرت من اصهارنا ، كان لك ان تسير الى حيث شئت» •

وكان عمرو لدهائه وحسن سياسته قد ادرك ان رجلا حرا صادقا مثل عبدالله لا يفرط فيه • لانه اذا اخلص الخدمة كان نفعه عظيما • فلم ير

لكي يفيده خيرا من ان يبادئه بالجميل ، وأن يزوجه ابنة صاحبه وهـو يحسب خولة على دعوته فتحبب اليه الرجوع الى حزب الامويين • ولم يكن يعلم آنئذ هل نجح ابن ملجم في مهمته ام لا • فلما اقترح على عبدالله عقد قرانه قبل السفر ، قبل عبدالله وأطاع ، فضرب عمرو أجلا لذلك وقال : «تقيم عندنا في اثناء ذلك ضيفا كريما ، فاذا آن الزمـن عقدنا لك على خولة ثم تنصرف للبحث عن ابن عمك» •

فوقف عبدالله بين يدي عمرو يهم بتقبيل يده وقال : «لقد غمرني فضلك ولست بمستطيع ان أفي يدك علي حقها» • واستأذن في الخروج فأذن له •

وخرج ابو خولة ايضا وهو يكاد يطير فرحا لما رأى من خلق عمرو• وسره الخطيب الجديد لابنته ، فسار توا الى المنزل وكانت خولة جالسة هناك على مثل جمر الغضا تتقاذفها الهواجس بعد ان تحققت نجاة عمرو وعلمت بما فرضه من زواجها بعبدالله • بينما هي تؤثر البقاء على حب سعيد وهو اول من وقع في نفسها مع عدم نفورها من عبدالله ، فلما كان المساء وأبطأ ابوها في العودة الى البيت قلقت ولبثت تنتظره بفارغ الصبر لعلمها انه لا بد من مروره بعمرو على اثر ما كان من نجاته في ذلـك اليوم • وحسبت لابطائه الف حساب • وأخوف ما خافته من ذلك الإبطاء ان يكون سببه البحث في امرها وأمر عبد الله وهي لا تريد ذلك •

* * *

فلما انقضى العشاء ومضى بعده ساعتان سمعت قرع الباب فأسرعت دقات قلبها وعلت وجهها صفرة الوجل ، وظلت مستلقية على الوسادة في حجرتها • وما لبث باب الدار ان فتح • فاتجه ابوها توا الى غرفتها فقرع الباب فنهضت لتفتح له وركبتاها تصطكان من الاضطراب • فدخـل

والمصباح في يده فوضعه على مسرجة وجلس اليها وعلى محياه امارات البشر والسرور ، وهو يحسب ان قد جاءها ببشرى عظيمة . فرآهـــا مضطربة الحواس قلقة الخاطر رغم تجلدها ، فقال لها : «ما بالك يا بنية ما الذي أزعجك ؟»

قالت : «لم يزعجني شيء ، ولكنني قلقت لغيابك وأنا وحدي في هذا البيت لا ارى فيه احدا غير الخدم» .

قال وهو يبتسم : «لقد دنا الوقت فلن تكوني وحدك بعد الان» .

فتجاهلت مراده وقالت : «يظهر انك علمت بما أقاسيه من الوحدة فعزمت على ألا تتركني وحدي ؟»

فضحك لسذاجتها وقال لها : «ليس هذا قصدي يا خولة ، ولكنني أذكرك باقتراح الامير الذي اطلعتك عليه منذ بضعة ايام ، فانه قد تم اليوم بعد ان صدق قول عبدالله الاموي ، فجمعني عمرو به الليلة في داره ، فرأيته شابا جميلا عليه مهابة الامراء ، تتجلى الشجاعة والانفة في وجهه . ويكفي ان الامير سحر به وبالغ في اطرائه امامي . فهذا هو خطيبك ومتى عقد قرانكما لا تكونين وحدك» .

ولم يتم كلامه حتى صبغ وجهها حمرة الخجل وظلت صامتة ، ثـــم اخذ العرق ينسكب عن جبينها كاللؤلؤ المنثور وهي مطرقة لا تفـــوه بكلمة .

ولم يكن الخجل وحده سبب اضطرابها كما ظن ابوها ، ولكنهـــا اصبحت كريشة في مهب الريح حائرة بين ان تطبع عواطفها وبين ان تطيع أباها وأميرها . ولو انها لم تبعث الى سعيد مع بلال بخبر حبها لـــه لكانت المعضلة أيسر ، وقد علمت انها اذا رفضت عبدالله رفضا باتـــا تغضب عمرا وأباها . وهي مع ذلك لا تدري مصير سعيد ولا ما آلت اليه مهمته بعد خروجه من الفسطاط مع بلال ، ولم تر فرجا الا بالاصطبار

فصبرت حتى يعيد ابوها السؤال فتستمهله •

اما هو فلما آنس فيها ذلك الاضطراب حمله محمل الخجل ، وهو امر عادي في الفتيات في مثل هذه الحال • فوضع يده على شعرها المسدول على كتفها وقال لها : «لا تخجلي يا بنية ، ان أباك هو الذي يخاطبك ، وقد تم الامر على يد الامير وهو شرف كبير لنا لو تعلمين» •

فأجابت وهي مطرقة وقالت : «وهل ضرب لذلك اجلا ؟»

قال : «لقد ضرب اجلا لذلك اسبوعا» •

قالت : «فليكن ثلاثة اسابيع» •

قال : «وما الداعي الى هذا التأجيل فاني اخشى ان يغضب عمرو فأطيعيني وعلي تبعة ذلك • فان عبدالله فتى قلما يجود الزمان بمثله ، واني بمصاهرته لفخور فلا محل للاعتراض » • قال ذلك وفي كلامه شيء من الخشونة على عادته معها اذا أصر على امر • فخافت سوء العقبى اذا جادلته فسكتت وأظهرت الارتياح • فلما رآها هكذا قال لها : «بورك فيك يا بنية ، بعد اسبوع تتم معدات الزواج» •

فظلت مطرقة وقد عولت على اتخاذ وسيلة اخرى للتأجيل •

- ١٥ -

الزفاف الكاذب

اما عبدالله فأخذ في البحث عن بيت يقيم به ، وبينما هو في ذلك جاءه بعض رجال عمرو وأخبروه بأن الامير قد امرهم بأن يعدوا لـــــه

منزلا في داره ضيفا عليه . فازداد عبدالله اعترافا بجميل عمرو ، وفرح لانه غريب لا يدري اين يذهب . وتبع الرجل الذي كلمه الى غرفة فيها فراش وغطاء وبعض الآنية ، وسأله الرجل : «هل تحتاج الى طعام ؟» . فاعتذر وسار توا الى فراشه .

ولما خلا بنفسه جعل يفكر في نجاته وصورة ابن عمه سعيد عالقة بذهنه لا تبرح ذهنه . على انه اطمأن على حياته ، وأحب ان يتم ما اتى الفسطاط لاجله ويعلم ما حدث للامام علي .

وكانت ذكرى خولة تعترض تصوراته واشتاق رؤيتها والتحدث اليها، وقضى ليله هكذا .

ولما اصبح سار الى المسجد فصلى وهو يتوقع ان يرى ابا خولة لعله يدعوه الى منزله فيتيسر له رؤية خولة ولو خلسة . وكان ابو خولة قد مر بالجامع في ذلك الصباح عمدا ، فلقيه فسلم عليه ودعاه الى العشاء فقال له : «اني في ضيافة الامير ولا يليق بي قبول الدعوة الا بعد استئذانه» .

فقال : «انا أستأذنه عنك» .

قال : «حسنا» . وافترقا . فمشى عبدالله في طرق الفسطاط وأسواقها ، فمر ببيت خولة وهو لا يعرفه . وكانت خولة قد اصبحت في ذلك اليوم مضطربة قلقة ، فخرجت تمشي في الدار فوقع نظرها على عبدالله وهو مار ، ولم تكن رأته من قبل ، ولكنها استنتجت من لباسه وقيافته وشبهه سعيدا انه هو عبدالله خطيبها ، فاختلج قلبها في صدرها ونفرت لاول وهلة ، ولكنها ارادت ان تتبين حاله فتفرست فيه وهو ماش فرأته معتدل القوام رشيق الحركة فارتاحت لرؤيته وسرت به لمشابهته سعيدا ولكنها ما لبثت ان نفرت منه لما تذكرت انه سيحرمها من حبيبها وما زالت تتبعه بنظرها حتى توارى ولم ينتبه .

وعادت خولة الى غرفتها منقبضة النفس ، وقضت نهارها لم تـذق طعاما . ولما كان الغروب آن موعد مجيء ابيها ، وكان الخدم قد أعدوا المائدة له ولضيفه وخولة لا تدري . وما عتم ان دخل الدار ، وسعل على عادته كأنه ينبه اهل المنزل الى مجيئه . فتظاهرت خولة بارتياحها الى قدومه ولكنها تمارضت وما لبثت ان رأت معه شابا عرفت انه عبدالله فخفق قلبها وسادها الاضطراب ، وتوارت في حجرتها .

* * *

وأما ابوها فذهب بضيفه الى قاعة الضيوف ، وأجلسه هناك ، وجاء الى خولة فرآها مستلقية على الفراش ، وقد امتقع لونها فتحفزت النهوض وهي تتظاهر بالضعف . فقال : «ما بالك يا خولة ؟»

قالت : «لا شيء ، غير اني اشعر بانحطاط في قواي لا ادري سببه» .

فدنا منها وهمس في أذنها قائلا : «شددي عزمك فقد جاءنا ضيف عزيـز » .

فأجابت متجاهلة : «مالي وللضيوف ؟ اني لا استطيع النهوض لمقابلة الضيوف » .

قال : «ان الضيف اصبح من انسبائنا ولا بأس من رؤيته نزولا على امر الامير عمرو بن العاص» .

فقالت : «ولكنني منحطة القوى . دعني الان وسأراه في فرصـة اخرى وأنا في عافية ان شاء الله» .

قال : «لقد كنت أظنك اكثر رغبة مني في رؤيته بعد ان ابلغتك امر خطبتك اه ، أيليق بنا الان ان نظهر له الجفاء» .

فتحيرت خولة ولم تدر بماذا تجيبه وهي تخشى غضبه لما تعلمه من سوء خلقه وحمقه ، فظلت صامتة .

فأمسك بيدها وأنهضها ، فوقفت مرغمة وسارت معه مطرقة ، فلما وصلا الى باب الغرفة وقف وقال لها : «ضعي خمارك على رأسك وتشجعي واستقبلي الرجل بما يليق بأمثالك ، لئلا يبلغ عمرا عنا ما يدل على عصيان امره فيغضب» .

فرأت خولة من الحكمة ان تتجلد وتصبر اشفاقا من غضب ابيها ، فخفت الى خمارها فوضعته على رأسها وأصلحت هندامها وخرجت في اثر ابيها حتى دخلا على عبد الله .

وكان عبد الله قد استبطأ مجيئها فحمله على محمل الخفر والدلال ، وازداد شوقا الى رؤيتها ولو إلماما . فلما اشرفت على الغرفة وتبين جمالها واعتدال قوامها انشرح قلبه وحمد الله على توفيقه بعد نجاته من الموت. فدخلت وحيت بما يجدر بمثلها في مثل هذا المقام ، وجلست على وسادة بجانب ابيها . وكان عبدالله يسارقها اللحظ فلا يزداد الا اعجابا بها ، ولم تمض تلك الليلة حتى عاق بها ووقعت من نفسه موقعا ساميا لما آنسه من جمالها وذكائها وتعقلها في اثناء الحديث مما يندر مثله في أمثالها من ربات الخدور . فخرج مأخوذا بخولة .

* * *

قضى عبدالله بقية الاسبوع في مثل ذلك ، وهو يتردد على بيت خولة ويزداد تعلقا بها . ولما أزف يوم الزفاف دعاه عمرو اليه وقال : «أريد ان اعقد لك عليها في داري ، وتقيما عندنا حتى يتراءى لكما غير ذلك» .فعل عمرو ذلك التماسا لما عزم عليه من كسب عبدالله الى حزبه ، فشكر له عبدالله ، ولما حل الميعاد زفت خولة الى عبدالله ، وعقد قرانه بها على العادة المتبعة ، وعبدالله مفعم سرورا بهذا النصيب ، ولولا ما يجول في خاطره من القلق لغياب سعيد والخوف على الامام لكان اسعد خلق الله

لانه رأى في خولة ما طالما تاقت اليه نفسه في النساء من التعقل والرزانة مع الجمال والذكاء .

فلما انفض حفل العرس دخل العروسان الى مخدعهما .

فلما خلا عبد الله بخولة تقدم لنزع الغطاء عن وجهها فأمسك النقاب ورفعه فأعادته الى ما كان عليه ، فظنها تداعبه فضحك وقال لها : «يلوح لي انك لا تحبين عبدالله ؟»

قالت وهي مطرقة : «يعلم الله اني لا اكرهه» .

فمد يده الى النقاب ثانية وحاول رفعه فمنعته . فتحير في امره ، وأمسك يدها وقال بلهجة الجد ونغمة المحب العاتب : «ما بال خولة تمنعنا مما أحله الله ودعانا اليه القلب ؟»

وكانت خولة واقفة بجانب الفراش فابتعدت عنه وأسندت ظهرها الى الحائط تبالغ في غطاء النقاب مطرقة ولم تحر جوابا .

فاستغرب عبدالله سكوتها وتمنعها وظن في الامر خديعة ، فأظهر الجد وهو لا يزال قابضا على يدها حتى وقف بجانبها وقال لها : «ما الذي اراه يا خولة ؟ ما الذي تحدثك به نفسك ؟ ان كنت انما تفعلين ذلك خفرا فهو غلو لا محل له وقد عقد قراننا بحضور امير مصر ونخبة الاعيان والامراء . وان كنت قد أكرهت على القبول وأنت تحبين غيري فقولي» .

فلما قال ذلك رفعت رأسها اليه ، وجذبت يدها من يده بلطف وقالت: «نعم اني احب غيرك : ولكنني قلت لك اني لا اكرهك بل احبك محبة الاخ لا محبة الزوج» .

فبغت عبدالله وعلته الدهشة ، وكاد الغضب يغلب عليه لو لم يتجلد ليعرف جلية الامر . فنظر اليها غاضبا وقال : «لقد رأيت منك العجب ، وأعجب منه احتقارك اياي مما لم اكن أتوقعه بعد عقد القران ، هلا كشفت عن السبب ؟»

فأمسكت النقاب وأزاحته عن وجهها وقالت : «اني لا ارى الحجاب واجبا بيني وبينك ، ولا انا خائفة من اطلاعك على ما في ضميري . ولكنني اسألك سؤالا اذا اجبتني عنه بحت لك بسري» .

فقال : «اسألي فاني مجيبك» .

قالت : «كيف رضيت عقد قرانك وابن عمك غائب ؟»

فقال : «وأي ابن عم تعنين ؟»

قالت : «أعني ابن عمك سعيدا الذي جئت معه الى الفسطاط ، ألا يهمك ان تعرف ما آلت اليه حاله ؟»

فاستغرب ذلك منها ، ولم يكن يعلم اطلاعها على شيء من ذلك فقال: «من اين لك ان تعرفي ابن عمي وما جئت من اجله الى الفسطاط ؟»

فتنهدت وقالت : «عرفته بقدر من الله ، واني أعجب من نسيانك تلك المهمة التي جئتما من اجلها . هل تظن الامام عليا نجا من القتل ؟»

فازداد عبدالله استغرابا ، ونسي ما كان يعد به نفسه من قربها وهاجت به أشجانه ، وتذكر ابن عمه فقال : «لقد اذهلتني يا خولة بما سمعته منك ، فافصحي عما في ضميرك وأخبريني كيف عرفت ابن عمي وما العلاقة بينه وبين تمنعك الليلة ؟»

قالت : «أتعدني بالكتمان وحفظ الذمام ؟»

قال : «نعم أعدك وعدا صادقا ، فافصحي فليس لي صبر على هذه الرموز » .

فتنهدت وعلت وجهها حمرة الخجل ، وهمت بالكلام فارتج عليها ، وعبدالله يتأمل ملامحها ويراقب ما يبدو منها صامتا ، فلما لم يسمع منها شيئا . قال لها : «بالله لا تطيلي السكوت فقد نفد صبري ، قولي ما بدا لك وفرجي كربتي» .

قالت : «اقول ولا اخشى لوما اني احببت سعيدا قبل ان اراك ، وهو

احبني على ما اظن ، وحبنا قائم على اشتراكنا في الذود عن الامام علي ما استطعنا . وقد ذهب سعيد ضحى الليلة التي أغرق فيها عمرو اصحـاب عين شمس ، وهو يظنك في جملة الغرقى . ولا اظنه اذا عرف بقاءك حيا الا طائرا اليك من الفرح» . وقصت عليه حديثها مع سعيد من اولـه الى اخره .

ولم تكد خولة تتم حديثها حتى استولت الدهشة على عبدالله ، وخيل اليه انه في حلم . ولما تحقق ان خولة تحب سعيدا وثابتة على حبه ، أحس لساعته انه لم يبق له حق فيها . وازدادت رفعة في عينيه فقال لها: «اعلمي يا خولة اني أعدك اختا لي من هذه الساعة ، واني سأبذل جهدي في جمعك بسعيد فانه بمنزلة اخي . وقد أوصيت بكفالته وصية مقدسة، وقد احسنت انت بما بسطته من حقيقة حالك ، وعلى هذا سأسافر غدا الى الكوفة ، لابحث عنه وأستطلع ما جرى للامام علي» .

فابتدرته خولة قائلة : «لا تعجل يا عبدالله في ذهابك ، لاننا لا نلبث بعد قليل ان نسمع الخبر من عبدي بلال الذي رافق سعيدا الى الكوفة، فقد اوصيته بالعودة حالا وأظنه يصل الينا بعد ايام . وأما الان فاكتم ما دار بيننا واجعل كأنك زوجي ريثما نرى ما يكون» .

فالتفت عبدالله اليها وقد ازداد اعجابا بحميتها وثبات جأشها ، وقال: «اني أهنىء اخي سعيدا بمثلك ، وأرجو ان يكون قد نجا من مكايد الغادرين» . وقد اراد بذلك قطام ، فانه ما زال يسيء الظن بها وقد ادرك انها هي التي وشت بهما الى عمرو بن العاص .

فقالت : «اني أتوقع رجوع بلال لاسمع منه ما آلت اليه حال الامام علي ومعاوية . هل نجا احد منهما . اما عمرو فقد نجا والفضل في ذلك راجع اليك» .

فقال : «ولكنني انما بحث بذلك لعمرو فرارا من الهلاك ، ولم أذكر

له المؤامرة على قتل معاوية لئلا يبعث اليه بمن يحذره فينجو» .

قالت : «اني لم أملك قط . فهذه مشيئة الله . فالآن لا بد من الصبر فامض الى فراشك وأنا أفترش هذا البساط» .

قال : «لا والله انك لا تبيتين الا على الفراش وأنا أولى بهـــذا البساط » .

وباتا تلك الليلة ، وقد سرت خولة بنجاتها مما كانت تخشاه . وأما عبدالله فانه بات معجبا بخولة كل الاعجاب وقد اسف لحرمانه منها بعد ان عرف فيها هذه الخصال . ولكنه فرح لانها ستكون من نصيب سعيد.

وأصبحا في اليوم التالي والناس لا يعلمون الا انهما زوج وزوجة ، وظلا مقيمين في دار الامير حتى قدرت خولة دنو الوقت الـذي كانت تتوقع رجوع بلال فيه ، فاستأذنت في المضي الى بيت ابيها مخافة ان يأتي بلال في اثناء غيابها فيطرده ابوها او يتهدده فلا يراها هناك فيعود من حيث اتى .

فوافقها عبدالله على ذلك ، واستأذنا عمرا في الذهاب الى بيت ابيها فأذن لهما فاستقبلهما ابوها بالترحاب .

* * *

ولم يمض يومان على مكثهما في بيت خولة حتى قدم بلال ، وكان وصوله الى الفسطاط في اثناء النهار ، وأبو خولة في حانوته ، وكان بلال قد دخل الفسطاط متنكرا فمر بحانوت سيده ونظر اليه خلسة فلما وجده هناك هرول الى البيت ودخل توا الى غرفة سيدته بلا استئذان ، فوجد عندها شابا لا يعرفه ، ورآها بجانبه كأنها جالسة الى شقيق او قرين . فبغت لذلك ولكنه أخذ بما آنسه من ترحابهـــا به فقالت له : «اغلق الباب وادخل» . ففعل ودنا منها وهو ينظر الى عبدالله شزرا .

فأدركت خولة ما يجول في خاطره فقالت له : «لا تسيء الظن ، ان هذا اخي بعهد الله فاقصص علينا خبرك ، وقل لنا بادىء ذي بدء كيف فارقت الامام عليا ؟»

فسكت ولم يجب ، فألحت عليه وقد ذهلت ، فأجابها بصوت مختنق: «ان عليا ذهب ضحية الغدر» .

فدقت خولة يدا بيد وصاحت : «والهفي عليك يا ابا الحسن» . وقال عبدالله مثل ذلك . ثم قالت : «وماذا جرى لابن ملجم ؟» . قال : «انه قتل شر قتلة وأحرق بالنار لعنه الله» .

فقال عبدالله : «وكيف فارقت سعيدا ؟»

قال : «فارقته بخير وعافية وقد سار للبحث عن تلك الخائنة اللعينة » .

قال عبدالله : «أوتعني قطام ؟»

قال : «نعم ، وما أدراك ، اني أعنيها ؟ وكيف عرفتها ؟»

قالت خولة : «ألم تعلم من هذا ؟» . قال : «كلا» .

قال : «ألم يذكر سعيد امامك انه فقد ابن عمه هنا ؟»

قال : «بلى» . قالت : «هذا هو عبدالله ابن عمه» .

فبهت بلال وغلب عليه البكاء من الفرح وصاح : «انت حي يا مولاي؟ من لي بمن يحمل هذه البشرى لابن عمك ؟. والله اني حاملها اليه الساعة بعد ان أسر الى سيدتي كلاما اؤتمنت عليه» .

فالتفتت اليه وقالت : «قل يا بلال ، ليس على عبد الله سر ، فهو اخي كما قلت لك . قل كيف فارقت سعيدا ؟»

قال : «فارقته يا مولاتي وهو مشتاق لرؤيتك ، ولم يأت معي مخافة ان يكون عمرو قد نجا من المكيدة فلا يأمن على حياته . وقد علمت وأنا مار في الفسطاط الساعة انه نجا وقتل غيره خطأ ، ولا ادري كيف حال

سيدي معك فلا آمن عليكما منه» .

قالت : «اعلم يا بلال ان ابن العاص نقم على ابن ملجم ورضي عني، وهو يحبني حبه لاولاده . وهو لا يعرف سعيدا ولا ابي رآه ، فـاذا جاء لم يكن عليه بأس وشأنه في الفسطاط شأن كل غريب يدخلها . فاقصص علينا خبر ابن ملجم والامام علي وكيف قتله» .

ثم امرته بالجلوس فجلس متأدبا وقص عليهما الخبر . فلما بلغ الى حديث قطام وما أرادته من قتل سعيد هاجت في نفسها الغيرة والانتقام وقالت : «قبح الله هذه المرأة ، اني اعرفها وأسمع بدهائها فكيف انطلت حيلتها على سعيد ؟»

فابتدرها عبد الله قائلا : «اني والله توسمت فيها الشر عندما رأيتها» وقص عليها ما كان من امره معها ، فانكشفت لهما الحقيقة وشكرا الله على نجاة سعيد ، ولكنهما حزنا على مقتل الامام علي ، ثم استدركت في حديثها فقالت : «وهل سمعت شيئا عن معاوية ؟»

قال : «لقد مررت بدمشق في طريقي فعلمت انه نجا ايضا . وقص عليها خبره كما سمعه فعجبت لاحكام القضاء كيف تسامح بقتل علي وتبقي على معاوية وعمرو ، ثم قال عبدالله : «وأين سعيد الان ؟»

قال : «هو في انتظاري بدمشق ، فاذا امرت مولاتي عدت اليه حالا وجئت به على عجل ، وأرجو ان يكون قد ظفر بتلك الخائنة وانتقم منها، واذا لم يظفر هو بها فلست انا بتاركها حتى أنتقم منها لما ارتكبته مـن الاجـرام » .

قالت خولة : «بورك فيك يا بلال ، فاذهب الان وأت بسعيد على عجـل » .

فقال : «وهل آتي به الى بيتك هنا ؟»

فاستصوبت خولة سؤاله ، لان مجيئه الى بيت ابيها يعقد الامور ،

فنظرت الى عبدالله كأنها تستفتيه في الامر فأشار اليها بأنه يريد البحث معها في ذلك سرا •

فالتفتت الى بلال وقالت : «اخرج الان قبل ان يأتي ابي وهو ناقم عليك ، لاعتقاده انك فررت بالجملين من داره ، وانتظر عبدالله في المسجد الليلة وهو ينبئك بما تفعل» •

- ١٦ -

العزم على الكوفة

خرج بلال وبقي عبدالله وخولة على انفراد فقالت خولة : «وما العمل يا عبدالله ؟ اخاف اذا جاء سعيد وأردنا الطلاق ان ينفتح علينا باب للاخذ والرد ونحن نود كتمان الامر فما الرأي ؟»

قال : «ارى ان نلتمس من عمرو الاذن بالخروج من الفسطاط والذهاب الى الكوفة ، فقد كنت طلبت منه ذلك فأخرني الى ما بعد عقد القران • فهم لا يعرفون الان الا انك امرأتي ، والرجل يذهب بامرأته حيث شاء • فاذا سرنا الى الكوفة وأوصينا بلالا بأن يوافينا بسعيد الى هناك عقدنا قرانكما هناك ، ولا رقيب علينا ولا واش • واذا طاب لنا ان نعود الى الفسطاط عدنا بعد ذلك والا فاننا نقيم بالكوفة الى ما شاء الله» •

فصمتت خولة برهة تفكر في الامر ، فرأت عبدالله مصيبا فقالت : «نعم الرأي رأيك ، ولكنني اعتدت الحياة في الفسطاط وألفت الاقامة

بواديها ولي فيه الاهل والاصدقاء ، فاذا أتيح لي البقاء فيها كـــــان أولى وأبقى» .

قال : «لا انكر ذلك ، وهو ميسور لك فيما ، وأما الان فلا ارى خيرا من الذهاب الى الكوفة» .

قالت : «اخشى ألا يأذن ابي في ذهابنا الى الكوفة فهو يريدني ابدا بقربه ، وليس له سواي فلا اخاله يرضى بغير اقامتنا هنا» .

قال : «نحتال ونتملقه حتى يأذن لنا ولو بعد حين ، ونوصي بلالا بأن يخبر سعيدا ان يبقى بانتظارنا حتى نأتيه» .

قالت : «افعل ما بدا لك وعلى الله التوفيق» .

قال : «فلنعد الان الى دار الامير ، فان خروجنا من عنده اسهل ، لانه هو الذي وعدني باخلاء سبيلي للبحث عن ابن عمي سعيد ، فأذكره بوعده ولا أظنه يمنعنا من السفر» .

قالت : «نبيت الليلة هنا ونصبح الى دار الامير» .

قال : «حسنا» . فلما كان العصر خرج الى المسجد ، فوجد بلالا في انتظاره فأوصاه بأن يذهب بسعيد الى الكوفة ويبقى بها حتى يأتيا اليه، فسر بلال وابتسم وقال : «هذا ما كنت ارجوه يا مولاي ، لاني أقدر على الانتقام من قطام اللعينة اذا كنت بالكوفة» .

فضحك عبدالله وقال : «وأوصيك اذا انت ظفرت بها بألا تعفو عن عجوزها لبابة فانها شر منها» .

* * *

ولما رأى عبدالله نفسه بباب المسجد ، والصلاة قائمة والناس يدخلون أفواجا ، دخل مع الداخلين . فرأى ابن العاص على المنبر يعظ الناس وهم صامتون ، فوقف حتى انتهى عمرو من خطبته وانفضت الصلاة ، فهـم

بالخروج • ولم يكد يبارح صحن المسجد حتى اعترضه بعض الشرطة قائلا : «تمهل يا مولاي ان الامير يستوقفك لامر يريد ان يخاطبك في شأنه » •

فقال : «وأين الامير ؟»

قال : «كان في المسجد ، وقد ذهب الان الى داره من باب في المحراب » •

قال : «وهل يريد مقابلتي الان ؟» • قال : «نعم» •

فاضطرب عبدالله وخاف ان يكون قد وشى به احد ممن اطلعوا على مهمته في الفسطاط ، ومشى حتى أقبل على مجلس عمرو ، وكان اذا وصل الى المجلس دخل بلا استئذان • فلما هم بالدخول اعترضه الحاجب قائلا : «تمهل حتى نستأذن لك» • فوقف عبدالله ودخل الحاجب ثم عاد فقال : «ان الامير يريد الخلوة بك هذه الليلة ، فاذا اتيت في العشاء تعال وحدك» •

فاستغرب عبدالله ذلك الشرط ، وأشكل عليه المراد منه ، فاستزاد الحاجب ايضاحا وسأله : «هل المراد ان آتي وحدي من غير خولة ؟»

قال : «اظن هذا هو مراده ، فانه قال : (ليأت وحده لكلام سألقيه اليه على انفراد) • »

فعظم الامر على عبدالله وحسب لذلك الف حساب • ولم تكن الشمس قد مالت الى الغروب فعاد الى البيت والهواجس تتقاذفه وظهرت عليه علامات القلق، فلما أقبل على خولة ورأت على وجهه آيات الاضطراب ابتدرته قائلة : «ما بالك يا عبدالله ؟ ماذا اصابك ؟ اني ارى في وجهك قلقا ، قل رعاك الله ما أوجب ذلك ؟»

قال : «ليس هناك ما يوجب القلق» • واعتذر وأبهم •

فلم تقنع ، ولكنها سكتت على ان تستطلع السر بلباقة بعد قليل •

فقالت : «وهل رأيت بلالا ؟»
قال : «نعم وقد اوصيته بما يقوله لسعيد» .
قالت : «وهل سافر ؟»
قال : «أظنه يستريح الليلة خارج الفسطاط ويرحل في الغد مبكرا» .
وفيما هما يتحادثان جاء ابوها والغضب باد عليه وكانت خولة تعرف حاله تو النظر اليه . فلما رأته هكذا ازداد اضطرابها وجعلت تفكر في غضب الاثنين . فخطر لها انهما تخاصما ولكنها لم تجد سببا لذلك . ولم تجسر على سؤال والدها ، ولم ترد ان تلح على عبدالله فتركت ذاك الى الاختلاء به .
وبعد قليل حضر الطعام فجلسوا اليه وليس فيهم من يتكلـــم الا تفضلا .
فلما انتهى عبدالله من طعامه نهض وقال لخولة ولابيها : «اني ذاهب في حاجة تقتضي غيابي ساعة» . وكأن قوله جاء طبق ما يرجوه ابو خولة، فلم يسأله عن سبب ذهابه ولم يطلب منه التعجيل بالعودة .
فازدادت خولة حيرة وظلت ساكتة ، ولم يخطر لها ان لذهاب عبدالله علاقة بما بدا لها في وجهه من الانقباض . ولكنها رافقته الى باب الدار وتوسلت اليه ألا يطيل الغياب . فأجابها بأنه لا يدري متى يعود ، ولم يشأ ان يبوح لها بسبب ذهابه ولا ترك لها فرصة للاستفهام ، فودعهـــا وخرج وهو يسرع في مشيته ، وأفكاره تائهة فيما عسى ان يكون غرض عمرو من دعوته اليه في مثل هذا الوقت .
ولما وصل الى دار عمرو خفق قلبه مخافة ان يسمع من الحاجب خبرا جديدا يزيد بلباله فلم يزد الحاجب على قوله : «ان الامير في انتظارك في غرفته» .
فمشى عبدالله يقدم رجلا ويؤخر اخرى ، حتى وصل الى الباب فاذا

هو مغلق فقرعه ووقف ينتظر فتحه فسمع خطوات تسرع نحو البـــاب يتخللها همس لم يفهم منه شيئا • وبعد هنيهة فتح الباب فاذا بعمـــرو نفسه يفتحه بيده ، فبغت لما رآه امام عينيه وعلى وجهه دلائل الغضب• فحياه عبدالله فلم يزد عمرو على قوله : «وعليكم السلام» • وسار الى صدر الغرفة فتبعه عبدالله وهو ينظر الى جوانب المكان لعله يرى احدا• فلم يجد • فالتبس عليه الامر لما سمعه من الهمس وهو واقف خارجا• ولكنه رأى في جدار من جدران الغرفة بابا عليه ستار والباب يستطرق الى غرفة اخرى فظن ان احدى نسائه كانت عنده فلما علم بقدومه صرفها من الباب الاخر واستقبله • وظل يفكر في ذلك وهو ماش في اثر عمرو• فلما جلس هذا على مقعده وقف عبدالله بين يديه ينتظر امره بالجلوس، فأشار اليه فجلس على وسادة بالقرب منه وهو ينتظر ما يقوله وقـــد نفد صبره •

سكت عمرو لحظة وهو يعبث بدرة (سوط) كأنه يتشاغل بها عن قلق يخامر ذهنه ، ففتح عبدالله الحديث قائلا : «كيف حال مولاي الامير ، وما الذي يأمر به عبده فقد لبيت دعوته وأنا راج ان يكلفني امرا اقوم بقضائه جزاء لبعض ما له من اليد علي ؟»

فالتفت اليه عمرو وهو يمشط لحيته وقال : «انما دعوتك لاسألك سؤالا واحدا ، وأرجو ان تصدقني الجواب بما احسبني اجزلته لك من الجميل وأبقيت عليك بعد ان رأيت الموت رأي العين» •

فوقف عبدالله احتراما وقال : «يعلم الله اني لا انسى جميلا أوليتني اياه ، باغضائك عن جريمة اقترفتها ، ثم بانعامك علي بحياتي وهي خير هبة ، فكيف لا أصدقك القول ؟» • قال ذلك وقلبه يخفق خوفا من سماع ما قد يكون سبب نقمته عليه •

فأقعده عمرو وقال : «بلغني اليوم من مطلع على احوالك انك انما

جئت الفسطاط مع رفيقك سعيد للفتك بي فهل هذا صحيح ؟»

فنهض عبدالله ثانية وقال ولهجة الصدق بادية على وجهه : «كلا يا مولاي ، ان ما بلغته كذب وافتراء» .

قال : «وما الذي جاء بكما اذن ؟»

قال : «اما وقد سألتني ، فاسمح لي بأن اقول الحق وأرجو منك ان تصدقني » .

قال : «قل الصدق ولا تبال ، فلا بأس عليك الا اذا رأيت في كلامك عوجا فلا تلم الا نفسك» .

قال : «أقسم برأس الامير اني لا اقول غير الحق ، ولكن حديثي طويل فهل ابسطه كله ؟»

قال : «اجبني اولا عن سؤالي موجزا ، فاذا رأيت ما يدعو الى التفصيل طلبته . سألتك عما دعاكما الى المجيء الى الفسطاط والاجتماع بتلك الزمرة المعادية ؟»

قال : «انما جئت للبحث عن الغادر الطامع في قتل الامام علي» .

قال : «ولماذا ؟» . قال : «لكي أبذل جهدي في زجره وانقاذ الامام من الموت » .

قال : «كيف تفعل ذلك وأنت اموي على ما أعلم ؟»

قال : «لقد الجأتني يا مولاي الى بعض التفصيل . ألم تعرف جدي ابا رحاب ؟»

قال : «بلى أعرفه وقد سمعت بوفاته قريبا» .

قال : «نعم انه مات وقد كان الى يوم مماته يكره عليا ويدعو الى قتله ، ولكنه في يوم مماته استحلفني واستحلف ابن عمي سعيدا ألا نبغي شرا بعلي ، بل اذا رأينا سبيلا الى الدفاع عنه ان نفعل ، فلما سمعنا بالمؤامرة علمنا ان المتآمر من اهل مصر ، ولكنا لم نعلم من هو فجئنا

للبحث عنه وردعه بالتي هي احسن • ولم نر سبيلا لمعرفته الا عن طريق اصحاب عين شمس لانهم على دعوة علي» •

فقال : «ألم تكن عالما ايضا بتآمر رفيق ابن ملجم على قتلي ؟»

فقال : «بلى ولولا ذلك لم استطع اطلاعك عليه» •

قال : «وكيف لم تطلعني عليه حال قدومك ؟ ألا تعلم انك تعد شريكا مع القاتل ؟» • قال ذلك ولحيته ترقص غضبا ولسان حاله يقول : «لقد لزمتك الحجة وتبينت خياناتك» •

فقال : «نعم أعلم ذلك ، ولكن حلمك قد وسعني من قبل فعفوت عما مضى وغمرتني بانعامك ، فاذا رأيت ان تعود الى مطالبتي به كان لك الامر • ولكنني لا اخال مولاي الامير اذا عفا عن مذنب يعدل عن عفوه» •

فلما سمع عمرو كلامه أفحم وسكت •

وشعر عبدالله عند ذلك بقوة البشت فيه ، وثارت الحمية في رأسه فهم بأن يستأنف الكلام فابتدره قائلا : «لقد علمت انك عرفت خولة قبل ان اخطبها لك ، وانها كانت عالمة بخبر المؤامرة فكيف لما ذكرتها لك ليلة الخطبة تجاهلتها ؟»

فارتبك عبدالله ولم يدر كيف يجيب ، ولكنه ما لبث ان استرد رباطة جأشه ، فاعتزم التزام الصدق على طول الخط فقال : «حاش يا مولاي ان أخدعك ، فاني ورأسك وكل غال عندي ، لم اكن اعرف هذه الفتاة قبل ان تذكرها لي» •

قال : «وما تقول في اطلاعها على خبر المؤامرة ؟»

فتحير عبدالله في الجواب ، ولكنه تخلص فقال : «ليس لي ان أجيب عنها ، فهي جاريتك ورهن اشارتك ، فادعها للمثول بين يديك واسألها ، ولا أشك في انها تقول الصدق • ولكنني أرغب الى مولاي ان يخبرني عمن وشى بنا اليه لعلنا نكذبه بين يديك» •

قال : «سأجمعكم جميعا وأسمع حجتكم جهارا ، فاذا سمعت اقوالكم جازيت كلا بما يستحقه . اذهب الى فراشك عندنا ، وعد الينا غدا» . قال ذلك ونادى «يا غلام» . فدخل حاجبه فقال له : «خذ عبدالله الى غرفة يبيت فيها الليلة وأتني به غدا متى دعوتـــــه» . فقال الحاجب : «سمعا وطاعة» .

وخرج عبدالله والحاجب يسير امامه ،حتى دخل به غرفة في دار الامير التمس فيها النوم . ولكنه لم يغمض له جفن طول ذلك الليل .

وأصبح عبدالله حائرا : لا يدري أيخرج الى الامير ام ينتظر حتى يدعوه اليه . ولبث جالسا حتى الضحى واذا بالحاجب قد جاء يدعوه الى مجلس خاص عقده الامير في غير مكان مجلسه العادي ، فمشى وهـــو يفكر فيما عسى ان يكون امر تلك الجلسة ، ومن هو الواشي ، وهل تستطيع خولة الدفاع عن نفسها بما يضمن نجاتها .

ولاحت منه التفاتة الى ساحة الدار ، فرأى عبدا تذكر انه رآه فيما مضى ، ولم يلبث ان عرف انه ريحان عبد قطام فاختلج قلبه وقال فـــي نفسه : «انها والله وشاية هذه الخائنة ، وأظنها ارسلته الى عمرو» .

وما زال ماشيا يفكر في ذلك وقد زلزل زلزالا عظيما ، حتى رأى الحاجب دخل من باب ، فدخل هو في اثره ، فاذا هو في قاعة تصدرها الامير عمرو بن العاص ، كأنه جالس للقضاء وعليه جبة بيضاء ، وعلى رأسه عمامة كبيرة ، وقد قعد الاربعاء على وسادة من الدمقس ، وفي يده الدرة والسبحة معا . فتقدم عبدالله نحوه وحياه دون ان يلتفت الـــى سواه . فأمره عمرو بالجلوس ، في فتور لم يعهده فيه في مقابلاتـــه الاولى . فجلس عبدالله في بعض جوانب الغرفة ، وأرسل نظره فرأى الى جانبه ابا خولة ، وعن يسار عمر ثلاث نسوة قد ارسلن النقاب علـــى رؤوسهن فلم يظهر منهن غير العيون من ثقوب فيه . فعرف منهن خولة

ولم يكن يجرؤ على التفرس في الاخرين حياء • فجلس وهو يسترق اللحظ ويفكر ، فخطر له ان احداهما قطام ، جاءت هذه المرة لانفــاذ حيلتها بنفسها • ثم مالبث ان عرف الاخرى فاذا هي لبابــة العجوز ، فتحقق انهما وشتا به وبسعيد • وكانت قطام قد خلعت الحداد على ابيها وأخيها بعد قتل الامام علي ، فارتدت كساء من الحرير الاحمر الفاقع المزركش بالقصب ، من صنع فارس ، لا يستطيع لبسه الا الاغنياء • وكان نقابها مزركش الاهداب يدل على بذخ وترف • وتصور عبدالله جمالها وفصاحتها وحيلتها فعلم انها غلبت عمرا على رأيه ، فأخذ يتأهب للدفاع •

ومضت برهة والكل صامتون ، وعمرو ينظر الى الارض والدرة في يده كأنه ينكت البساط بها ، ويده الاخرى على لحيته يداعب شعرات منها بين انامله ، والاهتمام باد في وجهه • ثم رفع بصره ونظر الى الباب ونادى غلامه ، فدخل فقال له : «لا تأذن لاحد» • قال : «سمعا وطاعة» • وخـــرج •

ثم التفت عمرو الى ابي خولة وقال : «أهذا جزاء احساني اليك يــا ابا خولة ؟»

فوقف ابا خولة وقد عرته الدهشة وقال : «ماذا حدث يا مولاي ؟• اني ما زلت مخلصا لك ، خادما لمقاصدك» •

قال : «ربما كنت كذلك ، ولكن خولة هذه (وأشار اليها) تواطىء الناس على قتلي ، وتسعى في انقاذ ابن ابي طالب» •

فلما سمع ابو خولة قوله ، مشى مسرعا حتى أمسك ابنته وقال : «اني لا اعرفها الا جارية من جواري مولاي ، فاذا ارتكبت شيئا من ذلك فاني أذبحها بين يديك» • قال ذلك وجذبها كأنه يريد تقديمها لعمرو •

فقال له عمرو : «عد الى مكانك ، ودعها تتكلم ، فاني لا اريد ان

أعاقبها الا بعد مقاضاة، فاذا صح ما قيل عنها كان القتل أخف قصاص لها» .

فلما سمع عبدالله تلك اللهجة الشديدة ، اختلج قلبه في صدره ، وخاف عاقبة تلك الجلسة ، ولكنه تجلد وصبر .

- ١٧ -

دعوى قطام على خولة

ثم التفت عمرو الى خولة وقال : «ما قولك يا خولة ؟»

فوقفت وقالت بصوت رائق وجأش ثابت : «ماذا اقول يا سيدي ؟ وأنا لا اعرف التهمة التي وشى بها اليك الواشون . فاذا سمعتها ذكرت لك الحقيقة ، ولك الامر بعد ذلك ، فاذا استوجبت القتل فما انا خير ممن قتل من رجال الاسلام في هذه الفتنة !»

فعجب عمرو لتلميحها الى الاحداث التي وقعت اخيرا فقال لها : «مالك ولهذا الكلام يا خولة ؟ قولي ما جوابك عن سؤالي» .

قالت : «اذا كان الامير حرسه الله قد جعل دمي حلالا ان ثبتت التهمة علي فلا أقل من ان أسمع التهمة الموجهة الي» .

قال : «صدقت وسأمد لك في حبل الدفاع حتى تبدي كل ما لديك منه ، ولا أظنك الا مقرة بجناياتك ، لانها ثابتة ثبوت النور في النهار» . قال ذلك ثم امرها بالجلوس ، فجلست .

فقال عمرو وقد وجه حديثه الى قطام : «ما قولك يا قطام في خولة، وما تعرفينه عنها ؟»

وكانت قطام لما ارتاح بالها من امر علي وقتله ، وعلمت مما دار بين خادمها وبين بلال خادم خولة انها تحب سعيدا وهي التي وجهت عبدها معه واستحثته في الوصول الى علي قبل القضاء الاجل المضروب لقتله ، قد حملتها الغيرة ، وهاجها حب الانتقام وطاوعها خلق السوء الذي فطرت عليه ان تأتي الفسطاط لتشي بها وبسعيد ، وهي لا تشـــك انها تثبت الخيانة عليها فتتقرب بذلك من عمرو فتنال حظوة في عينيه ، فتقيم عنده مكرمة او يتزوجها احد ابنائه . وكان عمرو يعرفها من قبل ، فأسرعت الى الفسطاط ومعها عجوزها وعبدها ، فوصلت اليها امس ، وأسرعت الى عمرو وبشرته بمقتل الامام علي ، ووشت اليه بخولة وانها كانت متواطئة مع سعيد على انقاذ الامام علي ، وانهما كانا يعلمان خبر المؤامرة على عمرو وسكتا عنها ، وقد كانا يستطيعان لو أخلصا له ان يطلعاه عليها . فأعارها عمرو أذنا صاغية ، وبعث الى عبد الله كما تقدم . ثم رأى من الحزم ان يجمعهم ويسمع اقوالهم قبل اصداره حكمه .

فلما قالت خولة قولها ، وطلب عمرو من قطام ان تبسط التهمة ، نهضت ومشت خطوتين نحو الامير ، وثوبها المزركش يجر وراءها تيها وبذخا ، ثم وقفت وقالت بلسان مبين : «اما ما يسألني الامير عنه فلا أحتاج في اثباته الى دليل . وتفصيل الامر ان مولاي الامير يعلم اخلاصي له ورغبتي في خدمته ، حتى انني عندما سمعت بمجتمع العلويين فـــي عين شمس بعثت اليه رسولا يخبره خبره . ولو لم اجد من أبعثه في تلك المهمة لجئت بنفسي . ولم أذكر هذا الدليل الصغير الا تدليلا علـــى اخلاصي . اما خولة واطلاعها على خبر المؤامرة فأمر لا شك فيه لاني اعلم علم اليقين ان سعيدا ورفيقه هذا (وأشارت الى عبدالله) لما قدمنا الفسطاط كانا عالمين بخبر تلك المؤامرة ، وقد سمعت ذلك منهما بأذني . وهما انما اتيا للاجتماع بالعلويين . وبعثت يومئذ عبدي بخبر ذلك الى

مولاي الامير ، فلما عاد عبدي اخبرني ان جند الامير قبضوا علـــى العلويين ، وان عبدالله وسعيدا في جملتهم . ولم يكن يعلم ان سعيدا نجا بمساعدة خولة هذه . اما انا فاني عرفت ذلك لما عاد سعيد الـــى الكوفة مسرعا ، لاطلاع علي بن ابي طالب على خبر المؤامرة ، غيرة منه عليه . وقد ترك حياة الامير عمرو بن العاص في خطر . وكان رفيقه في عودته بلالا خادم خولة هذه ، فانه صحبه الى الكوفة ، وهناك التقيـا وعبدي ريحان ، واتضح له من خـــلال الحديث ان بلالا وخولة عالمين بسر الامر . ولما لم ينجح مسعاهما في انقاذ علي ، قنعا بأن يكون مولاي حرسه الله قد أصيب بما أصيب به ذاك . ولكن الله سبحانه وتعالـى انقذه من مخالب الموت وحرسه بعين عنايته ، فترى يا مولاي ممـــا قدمته ان خولة كانت عالمة بخبر المؤامرة ، كما كان يعرفها عبدالله وسعيد، فلو كانت مخلصة لمولانا الامير ما كتمتها عنه» .

فقال عمرو : «وما الذي يثبت لنا ان سعيـــدا وعبدالله كانا عالمين بالمؤامرة على قتلي لما اتيا الفسطاط ؟»

وكانت لبابة العجوز صامتة الى تلك الساعة ، فلما طرح عمرو هذا السؤال ابتدرته هي قائلة : «لا شك انهما كانا عالمين لانهما اخبرانا بهـا ليلة سفرهما الى الفسطاط» .

* * *

كانت قطام تتكلم وخولة مطرقة تفكر بماذا تجيب . اما عبدالله فانه لعن الساعة التي اتت فيها تلك الخائنة ، وخاف على خولة ان تتلعثم او تفحم بالادلة التي قامت على اتهامها .

اما ابو خولة فلم يكد يسمع حديث قطام حتى استشاط غضبا ، وصاح في خولة بأعلى صوته : «الله عليك يا خائنة ، لقد فهمت الان تلاعبك

ونفاقك» . ثم التفت الى قطام وقال : «متى لقي عبدك عبدي مع ذلك الرجل في الكوفة ؟»

قالت : «ليلة ١٧ رمضان» .

فأطرق برهة ثم اقترب من خولة وجذبها بيدها الى وسط القاعة وقال لها : «لقد انكشف لي القناع الان وعلمت سبب سفر بلال ، فقد ارسلته مع حبيبك ليساعده على انقاذ ابي تراب (علي بن ابي طالب) . وقلت لي: (انه فر بالجملين) . والواقع انه اخذهما معه ليركب هو ورفيقه» . ثم التفت الى عمرو وقال : «ان ابنتي يا سيدي تستحق القتل ، فاقتلها او دعني اقتلها بين يديك» .

فوقف عبدالله وقد ثارت فيه الغيرة على خولة ، وهو يظن سكوتها خوفا او ارتباكا ، لانه لم ير ملامحها من وراء النقاب ، فأمسك أباها وقال برزانة وسكينة يخاطب عمرو : «ألتمس من مولاي الامير وقد أمر ان تكون خولة زوجة لي ، ان يوقف أباها عند حده ، فهو الان لا يملك من امرها شيئا . اما اذا اقترفت هي ذنبا يستوجب قصاصا فالامر فيه لمولاي وليس لاحد سواه» .

وكان عمرو قد اقتنع بثبوت الجريمة على خولة ، ولكنه احب ان يسمع دفاعها ، ورأى عبدالله يتكلم بحق وعدل ، فقال لابي خولة : «دع خولة فأنت كما قال عبدالله لا تملك من امرها شيئا» .

فتنحى ابو خولة وهو يلهث ويدمدم ، ولحيته ترتعش على صدره . وتنحى عبدالله ايضا وخولة لا تزال واقفة . اما قطام فقد ازاحت خمارها فبان الابتهاج على وجهها لنجاح مهمتها .

فقال عمرو : «ما بالك يا خولة لا تدافعين عن نفسك ؟. أليس ما قالته قطام عنك صحيحا ؟ هل كنت عالمة بخبر المؤامرة على قتلي ؟»

قالت : «نعم» .

قال : «وهل عاونت سعيدا على انقاذ الامام علي ، فأرسلت معه خادمك وجمليك ؟»

قالت : «نعم كل ذلك صحيح» .

فتعجب عمرو وسائر الحاضرين من صراحة اقرارها ، وقد كانوا يتوقعون انكارها او تلعثمها او سكوتها . فلما رآها تجيب بهذه الصراحة قال لها : «وكيف تظهرين الغيرة على صاحب الكوفة (علي) مع علمك ان أباك لا يريد ذلك ، ثم لا يخطر ببالك ان تخبري أباك بالمؤامرة على قتلي لكي يطلعني عليها ؟. ألا تعلمين ان عملك هذا يعد خيانة تستوجبين عليها القتل ؟. وها اني لا ازال أطيل لك حبل الدفاع لاسمع كل اقوالك. فأخبريني كيف تكونين على غير ما يريده ابوك وأمير البلاد ؟ وكيف تسعين في انقاذ علي بن ابي طالب ولا تسعين في انقاذ امير مصر ؟»

وقبل ان تهم خولة بالجواب اعترضتها قطام قائلة : «ارى مولاي الامير يتعب نفسه بما لا طائل تحته . هل بعد قرارها الصريح شيء ؟. وهل لهذه الخائنة من دواء الا القتل ؟»

* * *

قالت خولة وهي تنظر الى قطام شزرا : «سوف يتضح من هي الخائنة ، وقد كان يجدر بك التأدب في حضرة الامير ، فانه أعلم منك بقواعد الحكم» .

ثم وجهت خولة خطابها الى عمرو وقالت : «ارجو من الامير ان يطلق للساني الحرية لاقول كل ما يجول في خاطري» .

قال : «قولي ما بدا لك» .

قالت : «اما سبب مخالفتي ابي في رأيه وتحزبي للامام علي ، فلأني صادقة مخلصة في فكري وقولي ، وهو المنحرف المتقلب . وما كنت

لأصف ابي بهذا العيب لو لم يضطرني الى ذلك» .

قال عمرو : «وما معنى هذا ؟»

قالت : «يعلم مولاي الامير ان ابي ربي في نعمة الامام علي ، وأنا في حجره ، مع ايماننا بأنه ابن عم الرسول (صلعم) وانه على الحق في اعماله» . فأراد ابوها ان يقطع حديثها ، فاعترضه عمرو وألزمه السكوت فقالت : «فلما كانت وقعة صفين كان ابي في جملة من خالفه من الخوارج في امر التحكيم . فهو الذي انحرف عنه . اما انا فظللت على رأيي ولا ازال عليه الى اليوم» .

فقال عمرو وهو معجب بشجاعتها : «ولكن عليا شارك الجهال في قتل الخليفة عثمان ، فقتلوه ظلما ونحن انما قمنا نطالب بدمه» .

قالت : «اما مقتل الخليفة عثمان فأرجو من مولاي الامير ألا يلجئني الى الخوض في شأنه ، لاني ربما اضطررت الى ما أتجنب ذكره» .

قال : «وما الذي يخيفك بعد ما ابديته من الجرأة» .

قالت : «يخيفني غضب الامير لامر يعلمه» .

قال : «قولي كل ما يبدو لك ولا تخافي» .

قالت : «اما مقتل الخليفة عثمان فلا اظن مولاي عمرا الا من الراضين به» .

فبغت عمرو وقال : «وكيف تقولين ذلك يا خولة ؟»

قالت : «ألم يكن مولاي في جملة المحاصرين لعثمان ؟ ألم تقل له : (لقد ركبت يا عثمان أمورا ركبناها معك ، تب يا عثمان وارجع الى الله). فأسمعك هو كلاما جارحا . ثم لما قال لك : (اني تائب) . قلت له : (رأيناك تتوب ثم تعود) ..»

قال : «وهل يؤخذ من ذلك اني كنت أريد قتله ؟»

قالت : «كلا ولكنه يدل على انك كنت ناقما عليه» .

قال : «انما كنت ناقما عليه ليرجع عن اعماله ويبقى على خلافته» .
قالت : «لو كان هذا قصدك فقط لما فرحت بقتله ؟»
فذهل عمرو من سعة اطلاعها على خفايا الامور فسألها : «ومـــا دليلك على ذلك ؟»
قالت : «دليلي قريب اذا أمنني الامير قلته» .
قال : «قولي» .
قالت : «ألم تكن في فلسطين يوم قتل عثمان ؟ فكنت اذا لقيت احدا حرضته على قتله ؟ ألم تحرض عليا وطلحة والزبير عليه ؟ . ثم لما جاءك رجل اخبرك بمقتل عثمان ، ألم تقل : (انا عبدالله اذا حككت قرحـــة نكأتها) ..؟»
فلما سمع عمرو قولها استغرب جرأتها وغضب لتصريحها بأمور كان يود كتمانها ، ولكنه كان قد أمنها . وكان داهية يحول الكلام كيـــف يشاء فقال لها : «لقد اعجبني دفاعك يا خولة ولكننا لسنا فـــي معرض الدفاع عن علي او عن عثمان ، ولا يهمنا انحرافك او انحراف ابيك ، وانما يهمنا اطلاعك على خبر المؤامرة على قتلي ثم سكوتك الى اخر ساعة وأبوك بين يدي كل يوم فكأنك اشتركت في المؤامرة» . قال ذلك وهو يحسب انه سد عليها ابواب الدفاع . وكان أشد الناس خوفا عليها عبدالله وقد خيل اليه انها لم تعد تستطيع دفاعا بعد اقرارها السابق .
اما هي فهمت بالكلام فاذا بقطام تقول : «اني لأعجب من حلم الامير، وما يرجوه من دفاعها عن ذنب اعترفت به صريحا» .
فلم تعبأ خولة بكلام قطام ولكنها اجابت عمرا قائلة : «اني لا أنكر عليك عظم هذا الذنب بالنظر الى ما كنت ترجوه من قيامي بأمر الخوارج وموافقة ابي على تأييد امركم وتصديق دعواكم ودعوى معاوية من انكم على الحق ، وقد قدمت لمولاي اني فعلت ذلك وأنا على دعوة الامام علي

فذنبي من هذا القبيل لا يعد سيئا بالنظر الى ذنب هذه المرأة (وأشارت الى قطام) التي انما جاءت بهذه الوشاية غيرة عليك وضنا بحياتك فاتهمتني بالخيانة لاني كنت عالمة بخبر المؤامرة ولم اخبرك بها . فما الذي منعها هي عن اخبارك بذلك يوم ارسلت عبدها عبد السوء للوشاية بأصحاب عين شمس . فاذا كانت هذه المرأة صادقة في دعواها ألم تكن هي أولى مني باطلاعك على ذلك الامر ؟ اسألها وانظر في جوابها» .

فانتبه عمرو وكأنه صحا من ذهول فرأى خولة على حق في دعواها فالتفت الى قطام لفتة استفهام فلم يسمع منها جوابا . فقال لها :

«ما تقولين يا قطام ؟ لماذا لم تخبريني بخبر تلك المؤامرة ؟»

فارتبكت وأجابت مترددة وقالت: «لاني لم اكن عالمة بخبرها يومئذ» .

فظهر لعمرو التلاعب في كلامها ، ولكنه اراد تحقق ذلك فقال لها :

«ولكنك قلت الان انك سمعت خبر المؤامرة منهما ، فهل سمعته قبل ارسال عبدك الينا او بعده ؟»

فانخدعت قطام بسؤاله فأجابت على الفور : «لم أسمعه الا بعد سفر عبدي وكنت عازمة على ارسال غيره فلم أتمكن لمشاغل التابتني» .

فتقدم حينئذ عبدالله وهو يكاد يرقص فرحا بخذلان قطام وقال :

«ولكن عبدك يا مليحة لم يسافر من الكوفة الا بعد سفرنا ، لانه انما قدم الفسطاط ليخبر الامير بخروجنا من الكوفة » .

فأشار عمرو اليه فسكت ، وعاد هو الى السؤال فقال : «ان هذه العجوز ذكرت انكما سمعتما الخبر منهما ليلة سفرهما . فما تقولين ؟»

فغلب الحنق على قطام فقالت : «هذه عجوز حمقاء غلب عليهـــــا الخرف فلا يعتد بقولها» .

فغضبت لبابة لعقوق قطام واهانتها اياها على هذه الصورة ، وهـــي تعتقد فضلها عليها فقالت لها : «انا لم أقل ذلك الا بعد قولك ، تبا لك

من خائنة • كيف تقولين ان الخرف غلب علي وأنت انما غلب عليك النفاق ؟ »

فاشتد حنق قطام ولم تعد تعي ما تقول لفشلها وخجلها فقالت : «اخرسي يا مجنونة ولا تتكلمي بين يدي» •

فقالت لبابة : «بل انت المجنونة وأنت الخائنة ، واذا لم تلزمي حدك اطلعت الامير على سرائرك وفضحت امرك» •

فقالت : «وماذا عسى ان تقولي وأنت خادمة لا يعتد احد بأقوالك ؟»

وكانت لبابة قد تحققت وقوع قطام في شر اعمالها ، فأرادت ان تخلص نفسها وتنجو بحياتها ، فلم تر أهون عليها من التخلي عن قطام بفضح اسرارها فقالت على الفور : «ان اسرارك كلها في يدي ، واذا أذن مولاي الامير كشفت له عن كل شيء» •

فسرت خولة وعبدالله بذلك الخصام • اما عمرو فرأى لدهائه وتعقله ان خولة ممن يحرص على صداقتهن ، وانها اذا كانت على دعوته لا يخشى انقلابها • وأما قطام فانها اذا اخلصت له اليوم لا يأمن ان تخونه في الغد •

فقال للعجوز : «قولي يا خالة ماذا تعرفينه ؟»

فأخذت لبابة تسرد حديث قطام مفصلا من اوله الى اخره ، والكل مصغون صامتون ، ففضحت اسرارها ، وعرف عمرو ان ارسالها عبدها اليه لم يكن حبا له ولا نصرة لحزبه ، بل انتقاما من سعيد وعبدالله • وتبين لديه ان هذين انما اندفعا للدفاع عن علي بوصية جدهما ابي رحاب ، واتضح له جليا ان قطام خائنة لا يوثق بقولها ولا يعتمد عليها، وان بقاءها على قيد الحياة شر على العالمين • ولم يكن اعتقاده في لبابة بأحسن من ذلك لانه رأى خيانتهما رأي العين فصمم على التخلص من كلتيهما •

وكانت قطام في اثناء حديث لبابة واقفة وقوف الصنم ، وقد جمد الدم في عروقها واصطكت ركبتاها . وكانت في اول حديث لبابة تهم بتكذيبها وعمرو يسكتها ، ثم سكتت من تلقاء نفسها . فلما فرغت لبابة من حديثها نادى عمرو : «يا غلام». فلما جاء حاجبه أمره ان يسوق قطام وعجوزها الى السجن .

* * *

فلما خرجتا من المكان ساد السكوت هنيهة ، وقد غرق عمرو في التفكير في خولة وشهامتها وصدق مودتها انها اذا كانت على دعونه لا يخشى ضررها بل قد تكون اكبر عون له اذ يندر مثلها بين النساء ، وغلب على اعتقاده انها بعد مقتل الامام علي لم يبق لها سبيل لنصرته ، فلا مانع يمنعها من الاخلاص له هو ، ولاسيما اذا عفا عنها وعن زوجها عبدالله .

وبعد السكوت هنيهة خاطبها قائلا : «والآن ما قولك يا خولة ، ما الذي نصنعه بك ؟»

قالت : «لا أبالي يا مولاي ان تصنع بي ما تصنع بعد ان بسطت لك الحق فقد صدقتك القول ، فاذا امرت بقتلي فاني لا أزيد عدد الموتى ولا أقلل عدد الاحياء ، ولا فائدة من بقائي ولا ضرر من مماتي ، وقد ذكرت لك في اول حديثي انه قد قتل ودرج تحت التراب من لا أقاس بأنملة من انامله . فهل انا افضل من ابي بكر وعمر وعثمان ؟ ام انا خير من ابن عم الرسول (صلعم) ؟ فاذا شئت فاقتلني وأرحني من حياة لا عدل فيها ولا حق . ولكنني اطلب اليك اذا قتلتني ألا تعفو عن تلك الخائنة الغادرة» . قالت ذلك ودمعت عيناها .

فتأثر عمرو من صدق لهجتها وثبات جأشها فقال لها : «واذا عفوت

عنـك ؟ »

قالت : «واذا عفوت فالعفو من شيم الكرام ، وتكون حياتي هبة من عندك » .

فتقدم عبدالله للحال وجثا بين يدي عمرو وقال : «ارجو من مولاي ان يهبني حياة هذا الملاك الطاهر ، كما وهبني حياتي فتكون يدا تضاف الى اياديه السابقة» .

وكان ابو خولة واقفا وقد سحر بما ابدته ابنته من الحمية والشهادة، وخجل لانه لم يكن صادقا في اخلاصه لعلي مثلها . فلما رأى عبدالله يلتمس العفو لابنته تقدم هو ايضا وقبل يدي عمرو وقال : «لقد كنت يا سيدي أشد نقمة منك على خولة ؛ ولكنني اراها والله خيرا مني ، وأراني اصغر منها فألتمس لها العفو ايضا» . قال ذلك ونادى خولة فدنت فقال لها : «قبلي يد الامير واستغفري لذنبك» . ففعلت .

وتصافح ابو خولة وعبدالله ؛ وعادا الى مقعديهما ، وقد تذكر عبدالله ابن عمه سعيدا وعلاقته بخولة ، فقال في نفسه : «انها فرصة لا ينبغـي ضياعها» . ثم خاطب عمرا قائلا : «اما وقد وهبتنا حياتنا جزاء لصدق لهجتنا ، فلا يسعني والحالة هذه الا ان أتم الصدق بكشف سر لا يزال مكتوما » .

فلما قال ذلك علمت خولة انه سيتكلم بشأن سعيد، فخفق قلبها وغلب الحياء عليها ، فانزوت في بعض جوانب الغرفة .

اما عمرو فقال لعبدالله : «قل ما بدا لك» .

قال : «انت تدعوني الان زوج خولة ، وما انا والله الا اخوها» .

فبغت عمرو وأبو خولة ، وقال عمرو: «كيف ذلك وقد عقد قرانكما؟»

قال : «نعم انها زوجتي في الظاهر ، ولكنها لا تزال بكرا وقد آخيتها فهي أختي بعهد الله والرجل لا يتزوج اخته» .

فازداد استغراب عمرو وقال : «وكيف ذلك ؟ افصح يا عبدالله» .

قال : «ان خولة احبت ابن عمي سعيدا قبلي ، ولا بد انكم لحظتم ذلك من حديث قطام ، ولكنني لم أعلم ذلك الا بعد عقد قراننا ، ونظرا الى حبي الشديد لابن عمي ، وقد كفلته لدى جدي ابي رحاب ، فقد امسكت نفسي عن خولة وآخيتها . وأعترف لمولاي الامير ، اننا تواطأنا على الخروج بحيلة من الفسطاط الى الكوفة وسعيد ينتظرنا هناك فأزف له خولة» .

فلما سمع عمرو كلامه ازداد اعجابا بشهامته وصدق مودته ، ونظر الى ابي خولة كأنه يستطلعه رأيه في الامر ، فاذا هو لم يكن أقل اعجابا بتلك الشهامة ولكنه لم يتمالك عن ان ينهض ويضم عبدالله الى صدره وقبل رأسه وقال : «بورك فيك من صديق صادق ، اما وقد صارت خولة اختنا الك فاقض لها ما انت قاض» .

فقال : «اذا أمر مولاي بعثنا الى سعيد في الكوفة مع بلال العبد ، فيقدم الينا» .

فقال عمرو : «على الرحب والسعة» . وأمر غلامه ان يمد عبدالله بما يريده ليتمكن من استقدام سعيد .

فجهز عبدالله رسولا وكتب الى سعيد يستقدمه ويبسط له واقعة الحال ، وأوصى الرسول بأن يجعل طريقه على دمشق ، فسعيد كان فيها فلعله لا يزال هناك .

واستأذن ابو خولة وابنته في الانصراف الى بيته ، فأذن لهما فخرجا وخولة تفكر في قطام ، وكانت قبل هذه الجلسة تريد الانتقام منها ، ولكنها لما رأت ما كان من فشلها انفثأت حمأة انتقامها . على انها تذكرت ان بلالا اقسم ان يقتلها ، ناهيك بحقد سعيد عليها ، فعولت ان تستعطفه لكي يعفو عنها ويكتفي بما اصابها من الفشل والاهانة .

وأما عبدالله فاستبقاه عمرو عنده بقية النهار ، وبات تلك الليلة ضيفا في دار الامير ، وقد ارتاح باله من كل جهة . ولكنه كان يفكر في قطام وما اصابها من البلاء وكيف سيقت الى السجن مهانة وقد انكشف امرها وافتضح سرها ، فخفت نقمته عليها واكتفى بأن تبقى مسجونة حتى يرى ما يكون من امرها بعد قدوم سعيد .

وفي الصباح التالي بعث عمرو اليه ليتناول الطعام معه فذهب ، وفي اثناء تحدثهما في شأن قطام وعجوزها ، ذكر عبدالله ما يجول في خاطره من الشفقة عليها فقال له عمرو : «والله انه حلم لم يسبقك اليه معن . وما ظنك بخولة هل تقول مثل قولك ؟»

قال : «لا اظنها على رأيي» .

- ١٨ -

الجريمة والعقاب

احب عمرو ان يعرف رأي خولة في قطام فلما جاءت سألها عن رأيها فيها ، فقالت مثل قول عبدالله .

فقال لهما عمرو : «اني والله لأعجب من هذا التوارد في خواطركما، وانه دليل صريح على طيب عنصركما ، وقد كنت قاتلها لو اردتما قتلها لانها شريرة تستحق القتل . فأرى اذن ان أسجنها في سجن مظلم لتذوق جزاء ما جنته يداها» .

ثم نادى غلامه فحضر فأمره ان ينقل قطام الى سجن مظلم وأن يأتي

بالعجوز اليه .

فذهب الغلام ثم عاد مضطربا وجلا .

فقال له عمرو : «ما وراءك هل فعلت ما امرت به ؟»

قال : «لا يا مولاي» . قال : «ولماذا ؟»

قال : «لاني وجدت الغرفة مفتوحة ، وليس فيها غير جثة المـــرأة العجوز » .

قال عمرو : «وقطام ؟» . قال : «لم اقف لها على اثر» .

فصاح عمرو : «تبا لتلـــك اللعينة الخائنة ، هيا بنا ننظر في الامر بأنفسنا » .

ونهض لساعته ، وتبعه عبدالله وخولة ، حتى اتوا باب الحجرة التي كانت قطام مسجونة فيها . فاذا بالعجوز صريعة لا حراك بها . فأرسل عمرو الى طبيبه ليرى رأيه في وفاتها فجأة ، ففحصها هذا وقال : «انها ماتت خنقا بعد جهاد وعراك فان في فمها حجرا ملفوفا بمنديل سد القاتل به فاها لئلا تستغيث فيسمعها الحراس فينكشف امره» .

فقال عمرو : «ومتى كان ذلك ؟»

قال : «أظنه وقع في منتصف الليل او نحوه» .

ففحص عمرو باب الحجرة وعاين خلفه ، فتبين له انه خلع من الخارج لانه رأى آثار الاداة التي عولج بها ظاهرة في ظهر الباب فقال : «يظهر ان لقطام شريكا ، لان يدا عالجت الباب وفتحته ، فمن فعل ذلك يا ترى؟»

وكان عبدالله يشارك عمرا في الفحص ، فلما سمعه يشير الى خلع الباب انتبه لساعته وقال : «لقد كشفت الغامض وعرفت القاتل ، انـــه ريحان عبد قطام ، فقد رأيته في دار الامير امس ، ولم أسمع ان الامير أمر بالقبض عليه ، فلعله اندس وخلع الباب وساعد سيدته على قتـــل العجوز انتقاما لها او خوفا من لسانها» .

فقال عمرو : «لقد اصبت ، انه ذلك العبد بعينه ، ثم أمر بالجثة فحملت ودفنت ، وعاد الجميع آسفين لفرار تلك الخائنة من ايديهم .

وأمر عمرو رجاله ان يبحثوا ويأتوه بها .

اما بلال فانه لما بعثه عبدالله لينتظره مع سعيد في الكوفة ، سار الى دمشق ولقي سعيدا فروى له ما قر القرار عليه ، واستنهضه للمسير الى الكوفة ، فاستمهله يومين ريثما يقضي بعض حوائجه . وفي أصيل اليوم الثاني حملا أحمالهما وخرجا على جمليهما ، على ان يبيتا في غوطة دمشق ويستأنفا سفرهما الى الكوفة في الصباح .

وبينما هما امام باب المدينة المؤدي الى الغوطة اذ لقيهما رسول عبدالله القادم للذهاب بهما الى الفسطاط ، وهو يعرف بلالا فأوقفه ودفع الكتاب الى سعيد فقرأه وهو لا يكاد يصدق لعظم فرحه بالقبض على قطام وبرضاء عمرو وشوقه الى خولة .

وأما بلال فأسف للقبض على قطام في غيبته ، مخافة ان يعفي عنها او ان يقتلها احد سواه وهو يريد ان يتولى امرها بيده .

فقال سعيد للرسول : «كنا في طريقنا الى الغوطة لنبيت فيها ونصبح ووجهتنا الكوفة ، فأرى بعد ان حملنا أحمالنا ان نظل في طريقنا الى الغوطة فنبيت هناك ، ونصبح في الغد نلتمس الفسطاط ، فساروا جميعا حتى وصلوا قبيل الغروب الى بحيرة صغيرة حولها اشجار الحور تهب عليها ريح ناعمة فيسمع لاغصانها حفيف يمتزج بتغريد الطيور مما يشرح الصدر ولا ترى مثله الا في تلك الغوطة» .

وبعد المغرب حطوا أحمالهم ، واشتغل بلال ورفيقه باعداد العشاء.

وكان بلال يعرف صاحب البستان ، وقد نزل عليه ليلة قدومه من الفسطاط ، فترك سعيدا والرسول ومشى بين الاشجار في الظلام يلتمس طريقه الى بيت البستاني فما لبث حتى ضل الطريق لتكاثف الاشجار ،

وجعل يتلمس على غير هدي ويزداد بعدا عن رفيقيه حتى اصبح بينه وبينهما ميل وبعض الميل وهو لا يدري ، فوقف ينظر من بين الاشجار لعله يرى نورا او يتبين المنزل . ولبث برهة يعمل فكره ويحاول ان يعرف الجهة التي ترك فيها رفيقيه لكي يعود اليهما .

وفيما هو في ذلك اذا بصوت أجفله وهو هدير جمل ، أعقبه هدير جمل اخر ، فعلم ان القادمين ركب امسى عليهم المساء قبل الوصول الى المدينة . فمكث ينتظر وصولهم ليستأنس بهم ويسألهم عن الطريق . فأسند ظهره الى شجرة وتطاول بعنقه ليتحقق الجهة التي منها الصوت . فسمع لغطا وكلاما فأصاخ بسمعه فاذا بقائل يقول : «دعنا ننزل هنا يا ريحان ، فاذا اصبحنا دخلنا دمشق لاني اخاف ان يشك في امرنا اذا دخلناها في الظلام ، ألا تظننا في امان هنا ؟»

وسمع الجواب : «نعم يا مولاتي» .

فاقشعر جسمه عند سماعه ذلك الصوت اذ عرف فيه صوت قطام تخاطب ريحان وهي خائفة ، وتأكد انها آتية فرارا من سجن الفسطاط .

* * *

وكانت قطام لما ارسلت الى سجنها حقدت على لبابة كما مر . ونظرا الى ما فطرت عليه من اللؤم والقسوة لم يكن اسهل عليها من قتل لبابة. وكان ريحان يومئذ واقفا في دار الامارة ، فلما رأى سيدته ولبابة سائرتين مخفورتين علم انهما في ضيق ، فراقب القوم ببصره حتى عرف الحجرة التي حبسوهما فيها . وأعمل ذهنه لانقاذهما ، وكانوا عند وصولهم الى الفسطاط قد نزلوا في دار الامارة فاحتال في اخراج الجمال والامتعة الى مكان خارج الفسطاط . ولما توسط الليل غافل الناس وجاء الى سجن قطام وأخذ يعالج الباب ، فسمع لغطا فاذا هو خصام احتدم

بينها وبين خادمتها • فاستعجل فتح الباب بالعنف ودخل ، فلما رأته قطام اشارت اليه ان يساعدها في قتل لبابة فصاحت هذه : «تبا لك يا ظالمة يا فاجرة ، اني اتوب الى الله عما ركبت في سبيلك من الذنوب • وأما انت فلا نجاك الله من عواقب آثامك و» • فابتدرها ريحان فسد فاها وخنقها، وخرج بسيدته من باب كان قد أعده باسترضاء بوابه • فلما بعدا عن الفسطاط تحول بها الى مأمن كان قد أعده عند موقف الجمال • فركبا وهي تثني على شهامته • فخيرها في الجهة التي تسير اليها فاختارت دمشق، لان فيها نفرا من اهلها كانوا قد هجروا الكوفة بعد وقعة النهروان وفشل الخوارج وأقاموا بدمشق •

فسارا حتى اتيا الغوطة في تلك الليلة بعد وصول عبدالله ببضع ساعات كما مر •

فلما تأكد بلال انهما قطام وريحان لم يعد يقر له قرار من فرحه • وقال في نفسه : «لقد اجاب الله سؤالي • والله اني سأذيقها الموت بيدي هذه • وجس جلفته فرأى الخنجر فيها • فلبث مستظلا بالشجرة ليرى ما يكون منهما • فاذا هما قد سارا خطوات قليلة حتى اتيا الى قناة لانحدار مائها خرير وبجانب القناة شجرة من الصفصاف يستظل بها المارة في اثناء النهار • فنزلا عن الجملين واستظلا تحت ريحان القبة كالعادة وأوقد النار ثم قال لمولاته : «استريحي يا سيدتي ريثما أعلم البستاني وآتي اليك ببعض الزاد والفاكهة وأنت هنا في مأمن ، فقالت له انصرف ولا تطل الغياب» • فانصرف •

* * *

وكان بلال واقفا ينظر اليه • فلما رآه توارى نظر الى قطام على بصيص النار فاذا هي قاعدة وقد كشفت عن وجهها وعنقها وشمرت عن ساعديها ، ثم رآها نهضت وضفائرها مدلاة على كتفيها وظهرها وفي

اطراف الضفائر دنانير معلقة اذا تصادمت في اثناء المشي سمع لها رنين • ومشت الى حافة القناة ودمالجها وخلاخلها تخش خشيشا • فخاف بلال اذا ابطأ ان تفوته الفرصة ، فوثب عليها وهي تهم بالجلوس على حافة القناة وأمسك بطوقها وجذبها اليه فوقعت على قفاها فجثا على صدرها • فصاحت : «ريحان» • وقبل ان تتم كلامها وضع بلال قبضته في فمها وقال لها : «لم يبق لك في هذه الحياة الا دقائق قليلة ، فاعلمي قبل ان تفارقيها اني بلال خادم خولة وسعيد ، واني منتقـــــم للامام علي» • فأشارت اليه انها تريد الكلام فاستل الخنجر وصوبه الى عنقها وقال لها: «تكلمي بهدوء ، واذا رفعت صوتك اغمدت هذا الخنجر في عنقك» •

قالت : «ارحمني يا بلال واشفق على حياتي» •

قال : «لا يرحمني الله ان رحمتك ، فقد ضافرت ابن ملجم وحرضته على قتل شابين من خيرة الشبان • ولكن حيلتك فيهما لم تنجح • وأخيرا جئت الفسطاط لاغراء اميرها بخولة •• كيف أرحمك يا خائنة ؟»

قالت : «ذلك قد مضى يا بلال وأنا تائبة بين يديك ، فاعف عني ، ولك كل ما املكه» •

قال : «هل يتوب الهر ؟! اما العفو عنك فوالله لو عرفت قصاصا اعظم من القتل لقاصصتك به ، لان القتل قليل على فاجرة خائنة مثلك» •

فهمت ان تجيبه فأدرك انها تماطله ريثما يعود ريحان •

فقال لها : «اعلمي يا قطام اني قاتلك انتقاما للامام علي» • قال ذلك وأغمد خنجره في عنقها وأسرع فاجتز رأسها وترك الجثة ولها شخير رن في أذنيه الى مسافة بعيدة • وكان لما رأى القناة قد تعرف الطريق المؤدي الى مقر سعيد ، فانسل بين الاشجار وقد امسك الرأس من جدائله وتركه يتدلى والدم يقطر منه •

* * *

وكان سعيد ومعه الرسول قد استبطآ بلالا ، وشغلا عليه • فلما سمعا وقع أقدامه صاح سعيد فيه قائلا : «اين الفاكهة يا بلال ، لقد استبطأناك وغلب علينا الجوع» •

فلم يجبه بلال ، ولكنه ظل ماشيا حتى وقف امامه ورمى الجمجمة بين يديه وقال : «هذه فاكهتي» •

فأجفل سعيد ونظر فاذا هو رأس قطام بأقراطه وضفائره ، فاستغرب الامر ، وسأله عن تفصيل الخبر •

فقال : «ليس هذا وقت السؤال ، هلم نخرج من هذه الغوطة الان ، فاذا أمنا عيون الحكومة اخبرتكما الخبر» •

فنهضوا ولم يذوقوا طعاما ، وركبوا جمالهم واستحثوها جهد طاقتهم، وهم تارة يصعدون تلا ، او ينزلون غورا ، وآونة يغوصون في الماء ، وطورا يدوسون الاشواك او تتصادم رؤوسهم وأكتافهم بغصون الاشجار حتى انتصف الليل فانتهوا الى سهل قليل الاغراس وقد بعدوا عن دمشق فواصلوا السير الى الفجر ، وتحققوا انهم أمنوا العيون •

جلسوا للاستراحة على مصطبة بالقرب من عين ماء جارية ، وسعيد في شوق شديد الى سماع تفصيل مقتل تلك المرأة •

فقص بلال حديثه وقلبه يرقص فرحا • واتماما لاسباب سروره اخرج الجمجمة من جراب كان قد خبأها فيه ووضعها على المصطبة بين يدي سعيد وكان شعرها قد تجمد بالدم، والعينان مطبقتان والشفتان مفتوحتان عن اسنان كاللؤلؤ ، ومسحة الجمال لا تزال تتجلى في محيا تلك المرأة مع صفاء اللون واصفراره وما تلطخ به من الدماء •

* * *

مد سعيد يده الى جبين جمجمة قطام ، ولمسه فاذا هو بارد كالثلج

فقال : «آمنت بالله كأنه سبحانه وتعالى قد كتب لي ألا ألمس هـــذا الجبين الا وهو ميت وقد كنت أشتاق لمسه منذ أعوام» • ثم وجـــه خطابه الى الجمجمة وقال : «أأنت قطام بنت شحنة ؟ وقد جاز دهاؤك ومكرك على مئات من الرجال • أبهاتين العينين فتنت ابن ملجم كمـــا فتنتني ؟ وبهاتين الشفتين أغريته بقتل الامام كما فعلت معي • انـــك ستلاقينه عاجلا في مكان لا تخفى فيه خافية • في مكان تنال فيه كـــل نفس جزاء ما قدمت» •

ثم التفت الى بلال وقال : «ماذا نعمل بهذه الجمجمة ؟»

قال : «نحملها الى الفسطاط لاضعها بين قدمي خولة ذلك المـــلاك الطاهر» •

قال : «لا اظنها تسر بهذا ولا انا سررت به • وزد على ذلك ان هذه الجمجمة لا تصل الى الفسطاط الا بعد ان تنتن وتتصاعد منها رائحـــة تنفر منها النفس» •

فأطرق بلال هنيهة اسفا لحرمانه حمل الرأس الى خولة ثم قال : «فاسمح لي اذن ان احمل اثرا منها» •

قال : «وما هو هذا الاثر ؟»

قال : «أقطع الاذنين وفيهما الاقراط وأقص هذا الشعر وفيه الضفائر الذهب» •

قال : «لك ذلك فافعل» •

ثم قرروا ان يستريحوا هناك ويتناولوا الغداء ثم يبرحوا المكان الى الفسطاط •

* * *

عاد ريحان من عند البستاني وقد أعد كل ما ترتاح اليه سيدته مـــن

الفاكهة والاطعمة وأمر البستاني ان يشوي بعض اليمام . ولما دنا من الخيمة سمع شخيرا كشخير النائم وكانت قطام اذا نامت شخرت وهــو يعرف فيها ذلك . فقال في نفسه لعلها غلبها النوم على امرها من شدة التعب . ودنا منها فاذا هي بجانب القناة والظلام حالك والنار التــي اوقدها قد خمدت فلم ينتبه لحالها . فقال في نفسه : «لانيرن الشمع وأعد الطعام ريثما تفيق» . فأنار الشمع . ولاحت منه التفاتة الى سيدته فرآها تتحرك فأقبل اليها فاذا هي تختلج اختلاج النزع وقد اصبحت جثة بلا رأس ، ورأى دمها قد عكر القناة . فبغت ولطم وجهه ووقف لحظة يفكر فيمن عسى ان يكون قد فعل ذلك ، فقال في نفسه : «لا بد ان يكون قد حدث هذا بايعاز من عمرو بن العاص ، والقاتل قد فر الان ولا سبيــل اليه . فاذا انا صحت وجمعت الناس تقع التهمة على رأسي» .

فتحير في امره ثم تذكر ما ارتكبته قطام من الفظائع كأنه يحاول ان يلتمس لنفسه عذرا اذا تخلى عنها . فرأى انها اقدمت على جرائم تستحق القتل على كل واحدة منها . وتذكر ما وراءها من المال الكثير والحلــي الثمين ، وانه هو وحده يعرف مخبآتها في الكوفة . فطمع في الميراث وصمم على اغتنام الفرصة فهم بما عليها من الحلي فنزع الاساور والدمالج من يديها والعقود من عنقها ، وجمع ما في جيوبها وصناديقها من غالي الثمن وخفيف الحمل . وتركها غارقة في دمها ولسان حاله يقول : «ذلك جزاء القوم الظالمين» . ودخل الشام في الصباح التالي فاشترى أثوابا تنكر فيها ، وقصد الكوفة فأخرج ما خبأته قطام هناك من الاموال ، وابتاع لنفسه ضيعة اقام بها .

وأعد البستاني الطعام وحمله وفيه الجبن والفاكهة والخبز في كيس من القش ، وجاء الى موضع الخيمة وهو مسرور بتلك الضيفة لانها كانت كريمة تعطي الناس بسخاء . ولكنه ما وصل الى الخيمة حتى رأى الحال

كما ذكرنا ، وليس هناك الا جثة قطام وكانت قد همدت وسكن شخيرها واختلاجها . فلا تسل عن رعبه لما رآها في تلك الحال . فقال في نفسه : «لا شك ان جماعة اقوياء تجرأوا على هذا العمل ، وقد فعلوا ما فعلوا ونجوا بأنفسهم ، واذا انا اظهرت هذه الجثة جلبت على نفسي البلاء ، فمالي الا ان أحتفر لها حفرة اخفيها فيها» .

فاشتغل بالحفر وهو يحاذر ان يراه احد او يسمع فأسه . ثم دفن الجثة وأخفى آثار الدماء وحمل كل ما بقي من الامتعة الى بيته ، وساق جملا كان باقيا هناك ، وكتم خبر تلك الحادثة عن كل انسان .

- ١٩ -

طلاق .. وزواج

اما وفد الفسطاط فلما اشرفوا عليها من سفح المقطم ظهر لهم جامع عمرو في وسط المدينة كالبدر بين الكواكب ، فأرسلوا الرسول الى عبدالله لينبئه برجوعهم ، وأوصوه بأن لا يذكر له خبر قطام .

وكان عبدالله قد خلا له الجو ، وصفا قلب الامير له ، ولكنه بقي مبلبل الخاطر على سعيد ، وكلما تذكر فرار قطام من سجنها انقبضت نفسه ، وكلما لقي خولة تحادثا بما مر بهما وذكرا سعيدا وتمنيا سرعة وصوله ، وعبدالله يدبر أسلوبا يخبره به عن حقيقة حاله مع خولة .

وفيما هو جالس ذات صباح في غرفته بدار الامير ، اذا برسوله قد أقبل فصاح به : «ما وراءك ؟»

قال : «ورائي سيدي سعيد وبلال» .

قال : «وأين هما ؟»

قال : «تركتهما في سفح المقطم قادمين ، وجئت لأبشركم» .

قال : «اهلا بالقادمين» . ونهض لساعته وخرج على فرس أسرج له، ولم يكد يخرج من الفسطاط حتى التقى بسعيد وبلال على جملين ، فترجل بلال للحال وهم بيد عبدالله فقبلها .

فقال عبدالله : «بورك فيك يا أسمر وبورك بشهامتك» . وهم سعيد بأن يترجل فأشار اليه عبدالله ان يبقى على جمله لينزلا معا في دار الامارة فساروا وسعيد يتبسم فقال له عبدالله : «ما الذي يضحكك ؟

قال : «يضحكني اننا ذاهبون الى دار عمرو بن العاص ، وقد كنا بالامس نحاذر ان يسمع بنا او يرانا» .

قال : «لله في خلقه شؤون» . ثم قال بصوت خافت كأنه يحاذر ان يسمعه احد : «لو اراد الله نجاح مسعانا ونجا الامام علي كرم الله وجهه لما أهمنا النزول بهذه الدار» .

فقال بلال : «لا تذكرني بذلك الحادث الفظيع فقد شهدته بنفسي ، ورأيت ابن ملجم اللعين بأم عيني يضرب الامام بذلك السيف المسموم، وقد كان بيننا وبين انقاذه لحظة لو اراد الله لعجلها . ولكن الآجال مرهونة بأوقاتها» .

قال : «ولكن الله سيجزي الظالمين ، اما نحن فقد صرنا الان من حاشية ابن العاص ، وهو والحق يقال من دهاة العرب وكرامهم وكبار قوادهم» .

* * *

وبقيا في مثل هذا الحديث حتى اقتربا من الدار فقال عبد الله : «لم

اسمعك تذكر خولة . هل نسيتها ؟»

فابتسم سعيد وقال : «كيف انساها وأنا انما جئت ألتمسها» .

قال : «وماذا تلتمس منها ؟»

قال : «لا ادري ...»

قال : «أظنك تدري ، ألا فاعلم ان خولة الان زوجتي ، وقد زوجني بها عمرو» .

فضحك سعيد وهو يظن ابن عمه يمازحه ..

فتظاهر عبدالله بالجد وقال : «يلوح لي انك لم تصدق قولي ، فأقسم بالله وتربة ابي رحاب ان خولة قد زفت الي ، وعقد قراننا على يـــد الامير . واذا كنت لا تصدقني فاسأل كل من في هذه الدار عن ذلك » .

فغلبت الشهامة على سعيد ولم يسعه الا ان قال : «ومـــا يمنع ان تكون زوجة لك ؟ بورك لك فيها . ألست اخي ورفيقي وابن عمي ؟»

قال ذلك وهو لا يزال يشك فيما سمعه من عبدالله .

ووصلا الى الدار ، فترجلا وسارا توا الى غرفة عبدالله ، وبعثا الى عمرو ينبئانه بقدومهما ، فأمر بأن يستقبل سعيد في غرفة خاصة ، وبعث الى خولة وأبيها ، فلما جاءا أقبل عمرو الى الغرفة وقد اجتمع فيها الجميع وبلال واقف خارجا ، فلما دخل عمرو تقدم سعيد لتقبيل يده والسلام عليه ، فرحب به ودعاه للجلوس .

فقال سعيد : «اذا أذن مولاي فليأمر عبده بلالا بالدخول ليحضر هذه الجلسة» .

فأمر بدخوله فانزوى في بعض جوانب الغرفة متأدبا وفي يده جراب من جلد .

وكان سعيد ينظر الى خولة من تحت النقاب ، ويفكر فيما سمعه من عبدالله وهو يتردد بين الشك واليقين .

فلما استتب بهم الجلوس خاطب عمرو سعيدا قائلا : «أظنكـــــم تتوقعون ان تروا قطام سجينة ؟»

فقال سعيد : «نعم يا مولاي» .

قال : «ولكنها فرت من السجن وزادت ذنبها اجراما بقتل خادمتها . وكنا قد اردنا استبقاءها مسجونة . اما الان فاذا ظفرنا بها فلا قصاص لها عندنا غير القتل» .

فلم يتملك سعيد عن الابتسام ، وقد ندم لانه لم يصرح بالامر بادىء بدء ، وهم بالكلام فاعترضه بلال مستأذنا . فسكت فتقدم بلال الى عمرو وجثا بين يديه والجراب بيده وقال : «هل يأذن لي مولاي بكلمة اقولها؟» قال : «قل» .

قال : «كيف ترجون القبض على قطام وأنتم لا تعرفون مقرها ؟»

قال : «نطمع الناس في البحث عنها بمال كثير» .

قال : «وكم تعطون من يقبض عليها ؟»

قال : «نعطيه مائة دينار» .

قال : «أتشترطون ان يؤتى بها حية ؟»

قال : «سواء علينا . جاء بها حية ام ميتة» .

قال : «واذا جاء بخبر قتلها ؟»

قال : «نقبل منه ذلك على ان يأتينا بما يثبت موتها» .

فأخذ بلال يحل الجراب وهو يقول : «فليأمر مولاي الامير باعطائي مائة دينار» . وما أتم قوله حتى افرغ الجراب بين يدي الامير ففاحت الرائحة وظهر الشعر الملطخ بالدماء وبلال يبحث فيه باصبعه حتى وجد الاذنين وفيهما الاقراط .

فأجفل عمرو وسائر الحضور لذلك المنظر واشمأزت نفوسهم من تلك الرائحة الكريهة وصاح فيه عمرو : «ويلك ما هذا ؟»

قال : «هذا هو شعر قطام ملطخا بدمها . وهذه أذناها وأقراطها .

* * *

واذا اخرجتموني جئتكم برأسها . فاني انما تخليت عنه اجابة لامر مولاي سعيد» . قال ذلك ووقف وهو يشير الى سعيد .

فقال سعيد : «نعم يا مولاي ، انا أشهد ان بلالا قتل قطام وحده ، واحتز رأسها وجاءني به وهو ينوي حمله اليكم ، فأشرت عليه بـــأن يكتفي بهذا الاثر تخلصا من نتن الرمة» .

وكان الحضور قد بهتوا وهم ينظرون الى الشعر والاذنين فأشـــار عمرو الى بلال ان احمل هذه الاقذار من هنا . فأعادها الى جرابه وتنحى.

فقال له عمرو : «لك عندنا مائة دينار» .

فشكر وأثنى وقال : «اني اشكر مولاي الامير على نعمته وأعترف بين يديه بأني لم اقتل هذه الخائنة لمال ، وانما قتلتها انتقاما للعدل» . وأراد ان يفصل ما أجمله فانتبه الى انه لا يجوز ذكر الامام علي فـــي المجلس فاكتفى بما قال .

وتذكرت خولة ان اباها كان قد غضب عليها من اجل بلال ، فاغتنمت هذه الفرصة لاكتساب رضا ابيها عنه فقالت : «يا بلال تقدم وقبل يدي سيدك» . وأشارت الى ابيها ، فتقدم بلال وقبل يده فلما هم القـــوم بالانصراف وقف عبدالله ووجه كلامه الى عمرو وقال : «أشهد ايها الامير ان امرأتي هذه طالق مني ثلاثا» . وأشار الى خولة .

فأدرك سعيد ان ما قاله له صحيح وانه كان قد عقد قرانه عليها . ولمح الامير عمرو الاضطراب على وجهه فقال : «طب نفسا يا سعيد انما كان الزواج صوريا وقد صح الموقف الان بالطلاق» . والتفت الى ابي خولة وقال له : «اني اخطب خولة منك لسعيد ؟»

فقال ابو خولة : «هي جاريتك يا مولاي فاصنع بها ما تشاء» .

فأطرقت خولة حياء ، وعندما آن الاوان عقد قران سعيد بخولة في مجلس عمرو فبارك لهما وهنأهما بالزواج .

وبعد ايام استأذن عبدالله ابن عمه سعيدا في الذهاب الى مكة للاقامة بها مع ذويه ، وودع خولة والاصدقاء وسار الى مكة واقترن هنالك بابنة عم له وعاش الجميع كل في مقامه عيشة لا يشوبها كدر الا حين يذكرون مقتل الامام علي . ثم حين سمعوا بعد ذلك عن تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية بن ابي سفيان . فخرجت الخلافة من اهل البيت وصارت الى بني أمية . وانما فعل الحسن ذلك حقنا للدماء ، ولم يتول الخلافة الا ستة اشهر ، فانتقل كرسيها من الكوفة الى دمشق ، وبقي فيها الى انقضاء دولة بني أمية .

سلسلة روايات تاريخ الإسلام

تأليف جرجي زيدان

*